HISTORY OF ARABIC LITERATURE

BA AFZAL UL ULAMA

2011 Admission onwards

Core Course

III SEMESTER



UNIVERSITY OF CALICUT

SCHOOL OF DISTANCE EDUCATION

CALICUT UNIVERSITY P.O., MALAPPURAM, KERALA – 673 635

UNIVERSITY OF CALICUT

SCHOOL OF DISTANCE EDUCATION

STUDY MATERIAL

BA Afzal Ul Ulama

III Semester

CORE COURSE

HISTORY OF ARABIC LITERATURE

Prepared by:

Prof. Abdul Azeez.V.M.

Department of Arabic

Rouzathul Uloom Arabic College

Edited and Scrutinised by

Dr.P.K. Abdu Razak Sullami,

HOD, Dept of Arabic (Rtd),

P.S.M.O College, Tirurangadi

Thouheed Manzil,

Near OHSS, Thirurangadi

Layout & Settings

Computer Section, SDE



Syllabus

UNIVERSITY OF CALICUT

BOARD OF STUDIES IN ARABIC (UG)

Core Course

AU3B04 History of Arabic Literature

Semester 3 Credit 4

- الخصائص العامة للأدب العباسي
- أقسام الادب العباسي
- الشعر العباسي – اغراضه وفنونه واساليبه وصياغته
- النثر العباسي – اغراضه وفنونه وأساليبه وصياغته
- ابرز شخصيات هذا العصر (Brief Study)
- عبد الله بن المقفع – الجاحظ – أبو العتاهية – أبو نواس – أبو تمام – المتنبي – أبو العلاء المعري
- الترسل – ابن العميد ، القاضي الفاضل
- الادب القصصي – المقامات : بديع الزما الهمذاني - الحريري

- التصنيف في الأدب والنقد الأدبي
- أبو الفرج الاصبهاني – ابن قتيبة – أبو العباس المبرد
- النقد الأدبي : ضياء الدين الاثير ومحمد بن سلام
- العلوم والفنون : تطور حركة النقل
- العلوم اللسانية – اللغة – النحو – العروض – البلاغة
- خليل بن أحمد، سيبويه، الكساني
- العلوم الدينية – التفسير – الحديث – الفقه
- علم الكلام والتصوف – علم التاريخ والجغرافية – الفلسفة والعلوم الطبيعية
- العلوم الرياضية والفلكية

- العهد العباسي في الغرب
- الادب الأندلسي – الخصائص العامة
- تطور الشعر الاندلسي – أغراضه وفنونه
- الموشحات – أغراضها وميزاتها
- العلوم والفنون في الاندلسي – التاريخ والجغرافية

- أدب العهد التركي
- الخصائص العامة لهذا العصر
- ميزات الشعر اهم الشعراء – البوصيري ، صفي الدين الحلبي
- أنواع النثر في هذا العصر
- العلوم العلمانية والعلوم الدينية – العلوم التاريخية والجغرافية
- أحمد بن خلكان – إبن خلدون – عصر الإنحطاط

- عهد النهضة
- عوامل النهضة ومظاهرها – خصائص أدب النهضة – المدارس الأدبية الحديثة

  1. مدرس الديوان 2. الرابطة القلمية 3. جماعة أبولو 4. العصبة الأندلسية 5. الشعر الحر
- الأدباء المشهورون : محمود سامي البارودي – أحمد شوقي – حافظ ابراهيم
- النثر الفني : محمد عبده – قاسم أمين – مصطفى لطفي المنفلوطي – طه حسين – توفيق الحكيم – نجيب محفوظ
- الرواية وتطورها في مصر

Books for Reference :

- مختصر تاريخ الأدب العربي – أ. عبد الناصر
- تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان
- تاريخ الأدب العربي – حنا فاخوري
- الدليل الأدبي – سامي الحوري وجان الديك

المحتويات

16. عبد الله ابن المقفع
17. الجاحظ
18. أبو العتاهية
19. أبو نواس

Unit IV

20. أبو تمام
21. المتنبي
22. ابو العلاء المعري
23. الترسل
24. ابن العميد
25. القاضي الفاضل
26. الأدب القصصي

Unit V

27. المقامات
28. بديع الزمان الهمداني
29. الحريري
30. التصنيف في الأدب والنقد
31. أبو الفرج الإصفهاني
32. ابن قتيبة
33. أبو العباس المبرد
34. ضياء الدين ابن الأثير
35. ابن سلام الجمحي

Unit VI

36. حركة النقل
    أ. الترجمة في العهد الأمويين
    ب. الترجمة في العهد العباسيين
37. العلوم اللسانية
    أ. علم اللغة
    ب. النحو
    ج. العروض
    د. البلاغة
38. خليل بن أحمد
39. سيبويه

ج. أعراض الموشحات

53. العلوم والفنون في الأندلس

أ. دوافعها

ب. مظاهرها

54. أدب العهد التركي

أ. مراكز العلم

ب. نصراء الأدب

ج. علوم جديدة والقاب تفخيم

د. المكاتب والكتب

ه. المدارس والموسوعات

و. العلوم

55. مميزات الشعر

أ. البدوي والحوراني

ب. عروض البلد والمواليا وغيرهما

ج. التاريخ الشعري

56. شرف الدين البوصوري

57. صفي الدين الحلي

58. النثر

59. التاريخ

60. النقد التاريخي

61. ابن خلكان

62. ابن خلدون

63. الاسباب المهمة لضعف اللغة العربية

Unit X

64. عهد النهضة

أ. نظرة عامة

65. عوامل النهضة ومظاهرها

أ. المدارس

ب. الجامعة الأزهرية

ج. الجامعة المصرية

د. الطباعة

ه. الصحافة

و. التمثيل

ز. المجامع الأدبية

66. نثر النهضة الحديثة

أ. مدارس النثر الحديث

67. شعر النهضة الحديثة

أ. الشعر الجديد

Unit XI

68. المدارس الأدبية الحديثة

أ. الديوان في الأدب والنقد

ب. مفهوم الشعر عند جماعة الديوان

ج. الرابطة القلمية

د. العصبة الأندلسية

ه. جماعة أبولو

69. الشعر الحر

أ. أسباب ظهور الشعر الحر

ب. طبيعة الشعر الحر

ج. خصائص الشعر الحر

70. الشعراء المشهورون

أ. محمود سامي البارودي

ب. أحمد شوقي

ج. حافظ ابراهيم

Unit XII

71. الأدباء والكتاب

أ. محمد عبده

ب. قاسم أمين

ج. مصطفى لطفي المنفلوطي

د. طه حسين

ه. توفيق الحكيم

و. نجيب محفوظ

72. الرواية وتطورها في مصر

أ. تنوع الرواية الفنية

ب. دعاء الكروان لطه حسين

Unit I

الخلافة العباسية

الدولة العباسية أو الخلافة العباسية أو العباسيون هو الاسم الذي يُطلق على ثالث خلافة إسلامية في التاريخ، وثاني السلالات الحاكمة الإسلامية. استطاع العباسيون أن يزيحوا بني أمية من دربهم ويستفردوا بالخلافة، وقد قضوا على تلك السلالة الحاكمة وطاردوا أبنائها حتى قضوا على أغلبهم ولم ينج منهم إلا من لجأ إلى الأندلس، وكان من ضمنهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، فاستولى على شبه الجزيرة الأيبيرية، وبقيت في عقبه لسنة 1029م.

تأسست الدولة العباسية على يد أصغر أعمام نبي الإسلام محمد بن عبد الله، ألا وهو العباس بن عبد المطلب، وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظ العرب بها، كذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية. نقل العباسيون عاصمة الدولة، بعد نجاح ثورتهم، من دمشق العربية الشاميّة، إلى بغداد العراقية الإسلامية، التي ازدهرت طيلة قرنين من الزمن، وأصبحت إحدى أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل. تنوّعت الأسباب التي أدّت لانهيار الدولة العباسية، ومن أبرزها: بروز حركات شعوبية ودينية مختلفة في هذا العصر، وقد أدّت النزعة الشعوبية إلى تفضيل الشعوب غير العربية على العرب، وقام جدل طويل بين طرفيّ النزاع، وانتصر لكل فريق أبناؤه. وإلى جانب الشعوبية السياسية، تكوّنت فرق دينية متعددة عارضت الحكم العبّاسي. وكان محور الخلاف بين هذه الفرق وبين الحكام العبّاسيين هو الخلافة أو إمامة المسلمين. وكان لكل جماعة منهم مبادئها الخاصة ونظامها الخاص وشعاراتها وطريقتها في الدعوة إلى هذه المبادئ الهادفة لتحقيق أهدافها في إقامة الحكم الذي تريد. وجعلت هذه الفرق الناس طوائف وأحزابًا، وأصبحت المجتمعات العباسيّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدولة العبّاسية وساعد على تصدّع الوحدة العقائدية التي هي أساس الوحدة السياسية. ومن العوامل الداخلية التي شجعت على انتشار الحركات الانفصالية، إتساع رقعة الدولة العبّاسية، ذلك أن بعد العاصمة والمسافة بين أجزاء الدولة وصعوبة المواصلات في ذلك الزمن، جعلا الولاة في البلاد النائية يتجاوزون سلطاتهم ويستقلون بشؤون ولاياتهم دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصالية والتي لم تكن تصل إلا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية: حركة الأدراسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطمية.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م/656هـ عندما أقدم هولاكو خان التتري على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه. انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمز لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا، أما في الواقع فإن سلاطين المماليك المصريين كانوا هم الحكّام الفعليين للدولة. استمرت الخلافة العباسية قائمة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان، سليم الأول، فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية.

العصر العباسي الأول: شباب الدولة وصعودها

التأسيس (750 – 785م)

أصيبت الدولة الأموية بالضعف والقنوط إثر وفاة عاشر خلفائها هشام بن عبد الملك يوم 10 يناير سنة 743م، الموافق فيه 9 ربيع الأول سنة 125هـ وتعاقب من بعده أربع خلفاء هم الوليد بن يزيد الذي قتلته الأسرة الأموية لانشغاله عن الدولة وأمور السياسة ويزيد بن الوليد وإبراهيم القاسم ومروان بن محمد، وتميزت فتراتهم بانقسام داخلي حاد واستشراء الحروب الداخلية، فضلاً عن الوضع الاقتصادي المتردي، ما ساهم في تقوية الجماعات والأحزاب الدينية والحركات السياسية المعارضة لحكمهم والتي كانت منتشرة بشكل أساسي في العراق وإيران، البعيدة عن حاضرة الخلافة في دمشق. وأبرز تلك الأحزاب التي عارضت بني أمية الحزب القائل بأحقية سلالة علي بن أبي طالب بالخلافة والحزب القائل بأحقية سلالة عباس بن عبد المطلب عم النبي محمد بالخلافة.

كان الحزب الأول قد أطلق عدة ثورات خلال الحكم الأموي، أدت إلى مقتل العديد من مواليه وقادته، فقتل الحسين بن علي عام 680م وقتل زيد بن علي عام 740م بعد أن ثار في الكوفة. أما الحزب العباسي فقد تطور تطورًا تدريجيًا والتزم الهدوء طوال عهود القوة الأموية واستغل ضعف الاقتصاد لتفجير ثورته؛ فضلاً عن ذلك يرى الباحث عبد العزيز الدردوري أن العباسيين قد استغلوا أيضًا التمييز العنصري والطبقي الذي كان يمارسه الأمويون بين العرب وغير العرب في الوظائف والضرائب والجيش، فكونوا بذلك قاعدة شعبية عريضة لدى غير العرب خصوصًا في أوساط فلاحي الريف وعمال المدن الفقراء. وذهب الدردوري وعدد آخر من الباحثين العرب والمستشرقين لاستخلاص قاعدة مفاهدا بأن الدعوة العباسية كانت ثورة دينية واجتماعية واقتصادية ويراها البعض أيضًا ثورة الفرس ضد العرب.

ويمكن إرجاع نضوج الدعوة العباسية إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وابنه إبراهيم الذي سجنه آخر الأمويين مروان بن محمد في مدينة حران إلى أن توفي عام 746م، فتولى أخاه أبو العباس شؤون الحركة العباسية بناءً على دعوة أبو مسلم الخراساني؛ وقد قام أبو مسلم بإعلان قيام الدولة العباسية في خرسان وحارب نصر بن سيار الوالي الأموي فيها وانتصر عليه، ثم احتلّ مدينة مرو ومنها انتقل أبو العباس إلى الكوفة في أغسطس سنة 742م بشكل سري، وظل مختفيًا حتى 29 أكتوبر 742م، الموافق فيه 12 ربيع الأول سنة 132هـ حين بايعه أهل الكوفة بالخلافة، لتدخل عملية خلق الدولة العباسية مرحلتها الأخيرة، إذ التقى إثر ذلك الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد وجيش العباسيين بقيادة أبي العباس قرب نهر الزاب شمال العراق بين الموصل وأربيل، وكانت الغلبة للعباسيين، الذي أتموا فتح العراق وانتقلوا منها إلى بلاد الشام فمصر حيث طاردوا فلول الجيش الأموي وقتلوا الخليفة مروان بن محمد في معركة بوصير. وبفتحهم مصر دانت لهم سائر الأمصار التي كانت تابعة للأمويين وتأسست الدولة العباسية، ثالث مراحل تاريخ الخلافة، بعد الراشدية والأموية، وبويع أبو العباس بالخلافة سنة 132هـ ولقب بالسفّاح لكثرة سفكه الدماء، خصوصًا لدى دخوله دمشق حاضرة الأمويين، إذ نهب بيوت الأسرة الأموية والمقربين منها وأحرق قصورهم ثم نبش قبور خلفائهم، ولم ينج من الأسرة الأموية سوى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي انتقل إلى المغرب ثم دخل الأندلس فاستقلّ بها مؤسسًا حكمًا أمويًا فيها. أما أبو العباس السفاح فقد نقل عاصمة الدولة من حران التي كان مروان بن محمد قد نقل إليها عاصمة الدولة الأموية، إلى الكوفة رغم أنه لم يلبث بها إلا قليلاً حتى انتقل للعيش في الأنبار، وإثر وفاته عام 754 ودفنه في الأنبار أخذت البيعة لأخيه أبي جعفر المنصور والذي كان السفاح قد عينه وليًا للعهد.

كانت فترة حكم المنصور توطيدًا لدعائم الدولة الجديدة، فقضى على الثورات المتلاحقة التي هددتها، وقتل أبو مسلم الخراساني مع كونه سبب حصول العباسيين على الخلافة خوفًا من امتداد نفوذه، وقضى على ثورة المدينة المنورة التي بايع أهلها محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية بالخلافة، وقضى على ثورات شبيهة في البصرة وواسط والأهواز، ويصفه الباحث عبد القادر عيّاش بالقول بأن أبو جعفر المنصور أعظم رجل من العباسيين شدة وبأسًا ويقظة وثباتًا، شحن الثغور والأطراق وأمن السبل وعرف بميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه تاركًا لابنه المهدي ثروة جعلته ينفق في سعة. ومن الأعمال العمرانية الهامة التي ارتبطت به تشييده مدينة بغداد على نهر دجلة ونقله عاصمة الخلافة إليها، وظل مقيمًا بها إلى أن توفي في 7 أكتوبر سنة 775م، الموافق فيه 6 ذي الحجة سنة 158هـ، في قصر الخلد الذي أشاده مقابل نهر

دجلة. أما على الصعيد الديني فقد توفي خلال عهده الإمام أبو حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي لدى السنة، وقد تلى المنصور في الخلافة ابنه محمد المهدي والذي اهتم بالخدمات الداخلية فنظم البريد والطرقات وأصلح الزراعة ونقل عن رفاه الشعب وعدالة القضاء الذي كان يرأسه بنفسه، كما نقل عن المهدي ورعه وميله للالتزام بالشريعة، والعناية بالفقراء وأصحاب الأمراض والمساجين في جميع أنحاء الدولة، ممهدًا بذلك بدء العصر الذهبي لسلالة آل العباس.

العصر الذهبي (785 -847)

توفي محمد المهدي عام 785م وأخذت البيعة لابنه موسى الهادي، غير أن حكمه لم يطل إذ توفي عام 786 مفسحًا المجال أمام أخاه هارون الذي خلع عليه والده لقب الرشيد في أعقاب إحدى الغزوات التي انتصر فيها على البيزنطيين، لاستلام السلطة. اهتم هارون الرشيد بالإصلاحات الداخلية فبنى المساجد الكبيرة والقصور الفخمة وفي عهده استعملت القناديل لأول مرة في إضاءة الطرقات والمساجد، وتطورت العلوم خصوصًا الفيزياء الفلكية والتقنية، وابتكرت عدد من الاختراعات كالساعة المائية. اعتنى الرشيد أيضًا بالزراعة ومأسسة نظامها، فبنت حكومته الجسور والقناطر الكبيرة وحفرت الترع والجداول الموصلة بين الأنهار، وأسس ديوانًا خاصًا للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال الإصلاحية، ومن أعماله أيضًا تشجيع التبادل التجاري بين الولايات وحراسة طرق التجارة بين المدن، وقد شيّد مدينة الواقفة قرب مدينة الرقة على ضفاف الفرات لتكون مقرًا صيفيًا لحكمه، وقد نقل ابن خلكان أن الرشيد قد حجّ تسع مرّات وكان يصلي في اليوم مائة ركعة. راسل الرشيد شارلمان، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وينسب المؤرخون صداقة قامت بين الرجلين وتبادل الهدايا حتى قدّم الخليفة مفتاح القدس لشارلمان. كذلك فقد اهتم هارون الرشيد بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة خصوصًا في القوقاز وآسيا الوسطى والأناضول، وقد سجّل عهده عام 782م آخر محاولة عربية لفتح القسطنطينية، التي استمرت عصيّة على الفتح إلى أن استطاع السلطان العثماني محمد الثاني فتحها عام 1453م.

خلال بداية خلافته، اعتمد الرشيد على البرامكة وعهد إلى يحيى البرمكي بالوزارات، مانحًا إياه صلاحيات مطلقة، واستمر الوضع على ما هو عليه حتى عام 805م حين تخوّف الرشيد من امتداد نفوذهم وزيادة أموالهم وميل الناس إليهم، فصادر أموالهم وقتل قادتهم وسجن القسم الأكبر منهم. ويختلف المؤرخون في تصنيف علاقات هارون الرشيد النسائية، فبينما يجزم البعض أنه كان زير نساء ، يرفض البعض الآخر هذه الفكرة.

توفي هارون الرشيد عام 809م في خراسان وأخذت البيعة لابنه الأمين وفقًا لوصية والده التي نصت أيضًا ان يخلف المأمون أخاه الأمين، إلا أن الخليفة الجديد سريعًا ما خلع أخاه من ولاية العهد وعين ابنه موسى الناطق بالحق وليًا للعهد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما أخذ العلم بأن أخاه قد خلعه عن ولاية العهد أخذ البيعة من أهالي خراسان وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربع سنوات، إلى أن استطاع المأمون محاصرة بغداد والتغلب على الأمين وقتله عام 813م، ظافرًا بالخلافة.

تفرّد عهد المأمون بتشجيع مطلق للعلوم من فلسفة وطب ورياضيات وفلك واهتمام خاص بعلوم اليونان، وقد أسس الخليفة عام 830م جامعة بيت الحكمة في بغداد والتي كانت من كبريات جامعات عصرها، واخترع في عهده الاسطرلاب وعدد من الآلات التقنية الأخرى، وحاول العلماء قياس محيط الأرض ما يدلّ على الاعتراف بكرويتها من ناحية وتطور العلوم من ناحية ثانية؛ وقد تكون عمليات الترجمة التي رعاها هو وحاشيته وولاته، أبرز سمات عهده، إذ نقلت خلالها العلوم والآداب السريانية والفارسية واليونانية إلى العربية، اكتسبت من خلاله اللغة العربية مكانة مرموقة إذ تحولت من لغة شعر وأدب فحسب إلى لغة علم وفلسفة. وكذلك فقد ساهمت عمليات الترجمة في إرساء منسوب ثقافي عالٍ في الدولة، وقد أثر الانفتاح الثقافي على المعتقدات الدينية، فقال المأمون بخلق القرآن وأجبر الناس على الحذو في هذه الصيغة،[17] كما أعلن المعتزلة عقيدة الدولة الرسمية، ثم عهد بولاية العهد قسطًا من الزمن لعلي الرضا الشيعي وأخذ الشعار الأخضر بدلاً من الشعار الأسود، ثم عاد إلى شعار بني العباس الأسود وعيّن أخاه وليًا للعهد. وزار المأمون مصر ودمشق والجزيرة السورية وتوفي ودفن بطرسوس شمال بلاد الشام في 10 أغسطس سنة 833م، الموافق فيه 19 رجب سنة 218هـ وأخذت البيعة لأخاه محمد المعتصم بالله الذي بنى مدينة سامراء وفتح عمورية قرب أنقرة مسقط رأس العائلة الإمبراطورية البيزنطية، واستمرت عمليات الترجمة والنهضة العلمية في عهده كما افتتحها سلفه المأمون، ولعلّ قضاءه على ثورة بابك الخرمي التي أسست دولة شاسعة في أذربيجان وجوارها منذ عهد المأمون أبرز أعماله؛ إذ إن بابك الخرمي قد مزج بين الإسلام والمجوسية وأسس دينًا هجينًا وعمد إلى إصلاحات اقتصادية واجتماعية جذرية ما ساهم في بقاءه عصيًا على الدولة العباسية عشرين عامًا، إلى أن استطاع القائد التركي أفشين القضاء عليه، ومن الثورات الأخرى ثورة الزط جنوب العراق وإجلاء المعتصم إياهم إلى الأناضول.

كانت والدة المعتصم تركية، لذلك فقد أحاط نفسه بالحرس التركي كما فعل أخاه المأمون مع الفرس، وكان قوام الحرس التركي بداية عهد المعتصم أربعة آلاف رجل، غير أنه استقدم المزيد من قبائلهم عامًا فعامًا ما آثار قلاقل واضطرابات في بغداد اضطر معها الخليفة لنقل عاصمته إلى سامراء، وإثر وفاته عام 842م بويع ابنه الواثق بالله واستمر في سياسة والده القائمة على استيراد القبائل التركية ومنحهم الوظاف العالية في الدولة وجعلهم قوام الجيش فعليًا، وكان الواثق قد خلع على القائد التركي أشناس لقب السلطان ما مهد لضعف الدولة وزوال سيطرة الخلفاء عليها، وإثر وفاته عام 847م بويع أخاه أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بالخلافة، والذي يحدد أغلب المؤرخين تاريخ خلافته بدءًا لانحطاط الدولة العباسية.

العصر العباسي الثاني: عصر الحرس التركي

طلائع الانهيار (847 - 862)

لم يستطع العباسيون الحفاظ على وحدة الدولة كما فعل أسلافهم الأمويين، فاستقلّ عبد الرحمن الداخل بالأندلس منذ قيام الدولة، وفي خلافة موسى الهادي استطاع إدريس بن عبد الله بن الحسن الفرار من مذبحة لحقت بأسرته وأنصارها في المدينة المنورة إثر مطالبة والده بالخلافة، واتجه إلى المغرب حيث أسس الدولة الإدريسية المستقلة وعاصمتها مراكش، وفي عهد المأمون تولى إبراهيم بن الأغلب ولاية إفريقية التي تشمل ليبيا وتونس وشمال الجزائر، وبقي حكم هذه الولاية محصورًا في ذريته حتى ظهور الدولة الفاطمية، ولم يحفظ بنو الأغلب للخلفاء العباسيين سوى الخطبة وسك اسم الخليفة على النقد، وبذلك فإن الدولة العباسية منذ عهود قوتها لم تحفظ وحدة أراضيها الإدارية، وهو الأمر الذي سيكرس رسميًا وفي كل جهات الدولة خلال عصور التراجع والانحطاط.

أبرز أوجه عصور الانحطاط، سوى استقلال الولاة والسلاطين في شؤون ولايتهم بل وتأسيسهم دول مستقلة تمامًا في بعضها، كان تدخل الجيش في تعيين الخلفاء. توفي أول السلاطين الأتراك أشناس عام 844م وخلفه وصيف التركي، وعندما توفي الواثق عام 847م ما كانت مبايعة المتوكل على الله لتتم لولا رغبة السلطان وصيف، في وقت كانت الأسرة العباسية والمقربين منها، تميل لمبايعة محمد بن الواثق بالخلافة.

حاول المتوكل على الله الثورة على واقعه، فقتل عددًا من قواد الجيش كابن الزيات وإيناخ، ونقل عاصمة الدولة إلى دمشق عام 858م إلا أنه اضطر العودة إلى سامراء بعد شهرين فقط بضغط الأتراك، وقام أيضًا بتحويل المذهب الرسمي من المذهب المعتزلي إلى المذهب السني الشافعي، ما مثّل نقلة كبيرة لدى الدولة العباسية التي طرأت عليها عدة مراحل من التطورات الدينية، إذ بدأت مع تقارب مع الشيعة وسرعان ما انقلبت عليهم، واعتمدت الاعتزال كعقيدة الدولة منذ عهد المأمون. وكان المتوكل على الله قد أمر عام 850م بهدم ضريح الحسين بن علي في كربلاء وضريح علي بن أبي طالب في النجف ومنع الناس من زيارتهما، كما أمر بهدم جميع الكنائس في العراق ومناطق أخرى وكذلك الكنس اليهودية مع وضع شارات معينة على لباس المسيحيين واليهود ومنعهم من ركوب الخيل، وعلى الرغم من دعواته المتلاحقة للعمل بالشريعة الإسلامية إلا أن ما أقدم عليه يتنافى مع قواعدها، حيث كفل نظام أهل الذمة الإسلامي حقوقًا وكرامة أوسع لليهود والمسيحيين.

أخيرًا اتفق بعض الجند الأتراك مع ابنه المنتصر بالله على قتله في مجلس شرابه يوم 10 ديسمبر سنة 861م، الموافق فيه 3 شوّال سنة 247هـ غير أن خلافة المنتصر بالله لم تطل إذ سرعان ما قضى عليه الأتراك بالسم في مايو 862م، وبويع أبو العباس أحمد المستعين بالله ابن المعتصم بالله بالخلافة، لأن رجال السلطان لم يرد أن يبايع أحد أولاد المتوكل خليفة.

العصر العباسي الثالث: عصر آل سلجوق

السلطنة السلجوقية في أوجها (1055 - 1092)

وفق أكثر النظريات انتشارًا، فإن السلاجقة هم جمهرة من القبائل التركية الرحل المحاربة، كانت تستقر في الصين وانتقلت منها إلى بخارى حيث اعتنقت الإسلام في عهد مؤسسها سلجوق، ثم استطاعت تحت زعامة طغرل بك السيطرة التدريجية على أملاك الدولة الغزنوية ثم الدخول إلى بغداد بناءً على طلب الخليفة، الذي عين طغرل بك سلطانًا وخطب باسمه في 15 ديسمبر سنة 1055م، الموافق فيه 22 رمضان سنة 447هـ، ولقبه بملك المشرق والمغرب وزوجه ابنته. وإثر وفاته عام 1063م، كان طغرل بك قد حقق استقرارًا سياسيًا واقتصاديًا في الأوضاع، وقد خلفه ألب أرسلان الذي امتد حكمه حتى القدس واستطاع عقب انتصاره في معركة ملاذكرد تأسيس دولة سلجوقية في الأناضول هي الأولى من نوعها؛ غير أنه قتل في إحدى معاركه عام

1064م وتلاه ابنه جلال الدولة ملكشاه، الذي شهدت سلطنته وفاة الخليفة القائم بأمر الله بعد خلافة استمرت خمسة وأربعين عامًا تعكس الاستقرار وتحسن الأوضاع المعيشية، وبويع المقتدي بأمر الله بالخلافة. وقد اهتم ملكشاه بالعلوم والفنون وشيّد في بغداد مرصدًا فلكيًا ومسجدًا كبيرًا دعي جامع السلطان ، وقد برز في عهده أيضًا عمر الخيام وثار القرامطة في البصرة عدة مرات، وبوفاته عام 1092م أخذت الدولة السلجوقية بفقدان قوتها، إذ تفرقت إلى عدة عدة دول مستقلة في بلاد الشام والعراق وبلاد فارس وغيرها، بل تحولت الساحة إلى دسائس وتحالفات بين الملوك السلاجقة ضد بعضهم البعض بهدف توسيع إمارتهم. لا شكّ أن تكلفة هذه الحروب الداخلية المستمرة، لم تؤثر فقط على الاستقرار الاجتماعي في البلاد، بل على الوضع الاقتصادي أيضًا بسبب كلفتها الباهظة، ما سهّل تحقيق انتصار الحملة الصليبية الأولى عام 1098م، وكان المستظهر بالله حينها يشغل منصب الخليفة منذ عام 1094م.

خلافة المستعصم بالله ونهاية الدولة (1242 - 1258)

توفي المستنصر في ديسمبر من سنة 1242م، وتلاه ابنه المستعصم بالله آخر العباسيين في بغداد؛ والذي شهدت خلافته نهاية محطات مهمة في تاريخ الخلافة العباسية؛ منها فشل الحملة الصليبية السابعة والثامنة وهما آخر الحملات الصليبية مما عجل في نهاية تلك الحقبة، وعمومًا فإنه باستثناء الحملة الصليبية الأولى والثالثة والرابعة التي توجهت إلى القسطنطينية لم تحقق أي حملة صليبية نصرًا هامًا وطويل الأمد في المناطق التي استولت عليها. وفي أعقاب الحملة الصليبية الثامنة، كانت أملاك الصليبيين الأساسية في المشرق تقتصر على أنطاكية وطرابلس وعكا كجزر متناثرة وغير متصلة جغرافيًا. كذلك فقد شهدت خلافته نهاية السلطنة الأيوبية عام 1250م بعد وفاة الملك الصالح أيوب واستلام شجرة الدر السلطنة مكانه ثمانين يومًا ليقوم جند زوجها بخلعها والسيطرة على الحكم بانقلاب سلمي. انتخب إثره عز الدين أيبك سلطانًا.

أما الحدث الثالث، فتمثل بسقوط بغداد حاضرة الخلافة على يد المغول بقيادة هولاكو خان التتري، حيث سار هولاكو على رأس جيش ضخم بأمر من إمبراطور المغول منكو خان الذي أمر ان يخرج معه كل ذكر قادر على حمل السلاح في الإمبراطورية، ثم انضم للجيش قبائل أرمنية وجورجية وتركية وفارسية. ويرى المؤرخ آلان دمورجيه أن الجيش الصليبي المرابط في أنطاكية وطرابلس كان أيضًا من المشاركين في الهجوم.

طالب هولاكو الخليفة المستعصم بالله بالاستسلام، ولكن الخليفة رفض محذرًا المغول من العقاب الألهي الذي سيحلّ بهم في حال هاجموا الخلافة؛ يشير الكثير من المؤرخين بأن أحد أسباب نجاح الهجوم المغولي هو حالة الجيش العباسي الضعيفة وتسريح عدد كبير من جنده لتقليص النفقات خلال تولي ابن العلقمي شؤون الوزارة، فضلاً عن ضعف استحكامات المدينة وعدم تقوية أسوارها؛ يقول ديفيد نيكول بأن الخليفة بالإضافة لفشله بتجهيز آلية الدفاع عن المدينة بشكل جيد، فقد أساء كثيرًا لهولاكو بتهديده إياه، إضافة إلى وثوقه المبالغ فيه لوزيره ابن العلقمي، ما ساهم على تدمير المدينة والخلافة، مع أن مونكو خان أمر أخاه هولاكو بالمحافظة على الخلافة إن وافق الخليفة الخضوع لسلطة المغول.

قبل التوجه إلى بغداد، دمر هولاكو قبائل اللور ومن ثم حصّل استسلام الإسماعيليين والمعروفين أيضًا باسم الحشاشين بعد أن حاصر حاضرتهم قلعة ألموت في شمال إيران على شواطئ بحر قزوين، ورغم ذلك فقد قتل هولاكو الكثير منهم باستثناء نصير الدين الطوسي وأتباعه والذين لحقوا بجيش هولاكو المتوجه لمحاصرة بغداد منذ عام 1256م. قسم هولاكو جيشه إلى قسمين، وضرب حصارًا حول بغداد بدءًا من يوم 29 يناير سنة 1258م؛ دمر المغول السدود وقنوات الري ما ساهم في تدمير الزراعة وإفاضة المياه داخل المدينة، ثم إن قصف المقالع والمناجيق سهلت سقوط استحكامات العباسيين الواحدة تلو الأخرى حتى أحاط المغول بالمدينة من كل جانب يوم 5 فبراير 1258م / 30 محرم 656هـ؛ حاول المستعصم أن يفاوض المحاصرين لكن هولاكو رفض، واقتحم بغداد يوم 10 فبراير 1258 م / 4 صفر 656هـ، مرتكبين مذابحًا بحق أبنائها، وبحسب بعض المصادر بلغ عدد القتلى من الجند والمدنيين مليوني شخص بل حتى من حاول من الأهالي الفرار عمد المعول إلى قتله، ويذكر أن هولاكو أمر بنقل مقر المخيم بسبب روائح الموت المنبعثة؛ كما بدؤوا عمليات سلب ونهب ثم إحراق، فتلفت المكتبات وما تحويها وقيل أن مياه نهر دجلة تحولت إلى اللون الأسود لكثرة ما رمي فيها من أوراق محترقة، وكذلك حال المساجد والقصور والجامعات. أما الخليفة فقد أمر هولاكو بحبسه ثم منع عنه الطعام والشراب حتى مات في 20 فبراير 1258م، لتزول بذلك الخلافة العباسية في بغداد.

العصر العباسي الرابع: السلطنة المملوكية

الخلافة العباسية في القاهرة (1261 - 1517)

المماليك في العربية هم من سبوا دون أبائهم أو أماتهم، وكان المصدر الرئيسي لاستيرادهم هو الأسر في الحروب أو الشراء في أسواق النخاسة؛ وكانت فكرة تجنيد العبيد قد بدأت منذ عهد المأمون وأصبحت في عهود ضعف الدولة العباسية القوام الوحيد للجيش والمنبع الأساسي للسلطة؛ أما مماليك مصر فقد تمّ استقدامهم على يد السلاطين الأيوبيين وهم في الغالب شراكسة بيض، يتم تعليمهم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وفنون القتال منذ الصغر. تولى المماليك حكم مصر عام 1250م بعد انقراض السلطنة الأيوبية، ولم يعتمدوا في كثير الأحيان، نظام الحكم الوراثي بل نظام التوافق من ناحية والانقلابات بين زعماء الكتائب من ناحية ثانية، وقد توالى واحدًا وأربعين سلطانًا مملوكيًا في ستة وأربعين ولاية، إذ إن عددًا من السلاطين قد خلعوا ثم عادوا إلى عروشهم؛ وقد قضى ثمانية وعشرين سلطانًا منهم اغتيالاً على يد المماليك أنفسهم، ما يعكس التنافس نحو السلطة وفقدان الاستقرار السياسي في طبقتهم، خصوصًا إثر فقدان الشرق موقعه كصلة وصل بين آسيا وأوروبا في أعقاب اكتشاف رأس الرجاء الصالح وعصر الاكتشافات والفتوح الأوروبية للعالم الجديد.

رغم ذلك، فقد كان للماليك دور بارز في حماية المشرق خلال بداية عهدهم؛ فبعد أن اجتاح هولاكو بغداد وأسقط خلافتها، اتجه بجيوشه نحو بلاد الشام فاحتلّ نصيبين ثم الرها فحلب ناشرًا من الويلات ما حلّ ببغداد خلال اجتياحه لها. خلال هذه الأثناء خلع سيف الدين قطز السلطان نور الدين علي بن أيبك وقلّد نفسه شؤون السلطنة، ثم حشد الجيش وخرج به من مصر نحو بلاد الشام، حيث كان هولاكو بعد أن دمر حلب قد أحرق دمشق، وقد التقى الجيشان في معركة عين جالوت في الجليل عام 1261م كانت الغلبة في هذه المعركة الفاصلة للمماليك، فأمنت مصر شرّ المغول ووطد المماليك أقدامهم فيها ثم استطاعوا السيطرة على بلاد الشام والحجاز واليمن، مؤسسين بذلك سلطنة واسعة المساحة.

توفي قطز على طريق العودة إلى مصر وأصبح الظاهر بيبرس سلطانًا من بعده؛ كان بيبرس ناجحًا في معاركه مع الصليبيين ففتح يافا وأنطاكية والقلاع المحيطة بها والتي بقيت عصيّة على الفتح حتى سنة 1268.

كان قد مضى ثلاث سنوات والعالم الإسلامي دون خليفة، وكانت تلك أطول فترة شغور منذ تأسيس الخلافة في القرن السابع؛ على الرغم من أن السلطان الأيوبي في دمشق قد بايع أبا العباس أحمد خليفة ليضفي الشرعية على سلطنته ويجابه المماليك ذوي القوة المتصاعدة في مصر. وعندما سيطر قطز على دمشق في أعقاب معركة عين جالوت أراد خليفتها التوجه إلى القاهرة لكنه عدل عن رأيه واتجه إلى حلب التي كانت لا تزال تحت حكم الأيوبيين، حيث بايعه أميرها ولقبه الحاكم بأمر الله. غير أن شهرة هذا الخليفة كانت محدودة فلم يخطب له خارج إمارة حلب على عكس سائر الخلفاء حتى عندما لم تكن لهم أي سلطة، فالخطبة في صلاة الجمعة تعتبر هامة للخليفة، ولذلك فقد عمد أغلب الباحثين إلى إسقاط خليفة حلب من قائمة الخلفاء، واعتبار هذه محاولة إحياء الخلافة. غير أن المحاولة الناجحة كانت على يد الظاهر بيبرس عام 1262، فبعد أن أفاده وزراءه وصول الأمير أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله، عقد بيبرس حفلاً حضره رجال الدولة والشرع أثبت خلاله صحة نسب الأمير ثم تمت مبايعته بالخلافة رسميًا ولقب المستنصر بالله، وأمر بأن يضرب اسمه على النقد ويذكر في خطبة الجمعة.

طلب بيبرس من الخليفة أن يكتب له تفويضًا مطلق الصلاحية في إدارة الدولة وتسيير شؤونها، ومنحه الخليفة هذا التفويض الذي لم يترك له أية صلاحية، واقتصار دوره كرمز للدولة ومصدر شرعيتها. نصّ التفويض أيضًا على أن تعمل الدولة على استعادة بغداد وإعادة كرسي الخلافة إليها، وهو ما تمّ فعلاً عندما خرج الخليفة بنفسه على رأس جيش نحو العراق، إلا أنه قتل في إحدى المعارك مع المغول قبل بلوغه بغداد بعد خلافة قصيرة دامت بضع شهور فحسب؛ ويرى عدد من المؤرخين أن الخليفة الجديد لم يكن راضيًا عن نزوله لبيبرس بالسلطة، وأنه كان يطمح من خلال قيادته الجيش إلى الاطلاع بدور سياسي مستقبلاً. أما في القاهرة فقد بويع الحاكم بأمر الله الثاني بالخلافة ومكث بها ثلاثة عقود.

عمومًا فإن الدولة العباسية بمعنى الدولة قد سقطت مع سقوط بغداد عام 1258م، أما الخلافة العباسية فقد استمرت حتى 1517م كرمز للدولة ودورها الديني في كنف الدولة المملوكية؛ ولم تسقط الخلافة العباسية إلا بعد سقوط الدولة المملوكية، ففي أعقاب معركة مرج دابق التي انتصر بها السلطان سليم الأول العثماني على المماليك، توجه بجيشه نحو الجنوب، ففتح أغلب مدن بلاد الشام سلمًا ومنها انعطف نحو مصر حيث هزم آخر المماليك الأشرف طومان باي بعد معركة الريدانية قرب القاهرة، وقد اصطحب معه لدى رجوعه من القاهرة آخر الخلفاء العباسيين المتوكل على الله الثالث، والذي تنازل له عن الخلافة وسلّمه رموزها أي بردة النبي محمد وسيف

عمر بن الخطاب؛ وبذلك لم تؤول الخلافة من إلى العثمانيين فحسب بل انتهى الفرع الأول من فروع الخلافة كما صنف المؤرخون وهو الفرع العربي أو بشكل أكثر دقة فرع قريش ، إذ إن جميع الخلفاء السابقين سواء أكانوا من راشدين أو أمويين أو عباسيين ينتمون إلى قبيلة قريش وهي قبيلة النبي محمد، وافتتح الفرع الثاني وهو فرع آل عثمان .

الخصائص العامة للأدب العباسي

المراكز الثقافية في العصر العباسي

في العصر العباسي تنتقل مواكز الثقافة من مكة والمدينة ثم دمشق إلى الكوفة والبصرة وبغداد، فقد أصبحت هذه المدن في العصر العباسي عواصم كبرى ومراكز ثقل فكري وممعقلا للإبداع الأدبي والترجمات عن شتى العلوم والفنون .

ومع هذا كان لكل منها طابعها المميز الكوفة ظلت أميل إلى الحفاظ على القديم منا إلى التأثر بالوافد الحديد ، ساعد على ذلك بعدها عن البحر وقربها من الجزيرة العربية واحتضانها للثقافة العراقية القديمة والآثار المسيحية في الأديرة والبيع المنتشرة في الحيرة .

البصرة

كانت نشأتها عربية ، ولكنه كانت قريبة من البحر ما أهلها لاستقبال الكثير من الوافين من جنسيات مختلفة ، من النبط والزنج والروم والفرس

وقد ترك هذا التنوع الجنسي أثرة الكبير على الممدينة ، فانتشرت فيها حضارة الفرس وعرفت دياناتهم .

وادهرت الثقافة اليونانية وكثرت الترجمات عنها ونشط علماء الكلام ولا سيما المعتزلة كما كان كثرة الكادحين فيها من الزند وغيرهم تحمل خطورة على المجتمع ومثيرة الفتن والتورات على الخلافة

بغداد

أسسها أبو جعفر المنصور سنة145هـ لتصبح العاصمة بديلا عن الكوفة ومنذ نشأتها كانت الكوفة شديدة التأثير عليها فكريا وأدبيا لقربها منها ، فكان علماء الكوفة وأدباؤهه من أمثال المفضل الضي والكسائي وثعلب ينتقلون إليها منشطين الحركة الثقفافية فيها. فكان الطابع الكوفي الغالب عليها وفي بداية القرن الثالث الهجري بدأ الطابع البصيري يغزو بغداد وما لبث أن سيطر

عليها وهكذا تلاقت في بغداد الثقافتان الكوفية والبصرية وكان أن امتزجتا بثقافات أخري وافدة ليفضي ذلك كله إلى ثقافة جديدة ممثلة الطابع البغدادي . ومن ثم ظهر في تاريخ الثقافة العربية مذاهب بغدادية في النحو واللغة والأدب أسهمت مع مذهبي البصرة والكوفة في رسم ملامح الحضارة الإسلامية في العصر العباسي كانت بغدادقصبة الدولة الإسلامية ، توافد إليها الناس من جنسيات مختلفة ، وطبعتها الحضار الفارية الطاغية بطابعها ، وعمرت بظاهر الترف والبزخ ، ونشطت فيها الحياة بجميع مظاهرها : جادة ولاهية ، ولم تلبث أن غطت على البصرة والكوفة لتصبح وحدها أم المدئن الإسلامية وبؤة العلم ومجتمع العماء والأدباء ، وما برحت تمارس دورها الحضاري حتى شاركتها ذلك القاهرة وقرطبة ودمشق وحلب والقيروان وغيرها

تيارات حيوية في العصر العباسي

الصراع الشعوبي :

في هذا الموضوع نسعى إلى التعريف بالشعوبية ، وبيان السياق التاريخي الذي نبتت فيه وأثمرت ، وتحديد أثرها عل حركة الأدب في العصر العباسي .

الشعوبية في معناها العام : المساواة بين الشعوب الإسلامية في الحقوق والواجبات وفي مفهوحا التاريخي تعصب غير العرب ضد العرب .

وهذه النزعة ظهرت بقوة عند الموالي وخاصة الفرس بعد قيام الدولة العباسية . وإن كانت بدايتها ترجع إلى العصر الأموي ، فقد لاقى الموالي في ظل بنى أمية الكثير من الإهانة ،وعانوا من افتقاد العدالة الاجتماعية بمباركة من حكام البيت الأموي الذين كانوا يتوجسون من كثرتهم ويخشون خطرهم ، فتعصبوا ضدهم ، وحرصوا على إهانتهم ووضعهم في مرتبة أقل من مرتبة العرب، ولم يكن مقبولا أن تتزوج عربية من مولى أو يتزوج عربي بأمة ، أ حتى أطلق على ابن غير العربية هجينا .

وكان أثر ذلك كراهية الموالى للعرب وللحكم الأموي ، ومن ثم انضموا إلى الثائرين عليهم ، وشاركوا في القضاء عليهم ،فلما قامت الدولة العباسية ، عدوا ذلك انتصارا لهم ، شعروا بكيانهم ، واستشرفوا للانتقام لأنفسهم من العرب الذين أهانوهم في ظل الأمويين ، وساعدهم في ذلك ما كان من تقريب الخلفاء العباسيين لهم اعترافا بفضلهم في قيام دولتهم ، فاتخذوهم سدنة ووزراء وممستشارين ، وأصبح لهم الحظوة والمكانة على حين تدنت منزلة العرب . هنا ظهر ما كان مضمرا في نفوس الموالي وخاصة الفرس من عصبية ضد العرب استعلاء عليهم وتحقيرا لهم . ويهمنا هنا أثرتلك النزعة في النتاج الأدبي للعصر.

وهو أثر انعكس بقوة في الشعر والكتابة والتأليف :

فقد ألف بعض من ينتمون إلى غير العرب كتبا تتضمن انتقاصا من العرب ، وتعدادا لمثالبهم وتمجيدا للفرس ، ومن هؤلاء : أبوعبيدة معمر بن المثنى . الهيثم بن عدي ، هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، وغيرهم ، وظهرت كتب تحمل عناوين من مثل : كتاب فضائل الفرس ، فضل العجم على العرب وافتخارها ، لصوص العرب ، أدعياء العرب ، مثالب ربيعة ، وغيرها .

وكتب كتابهم رسائل في ذمّ القيم التي عرف بها العرب وكانت عماد فخرهم ، من ذلك أن سهل بن هارون كتب رسالة يمدح فيها البخل ويرغب فيه ، وذلك نيلا من صفة الكرم التي افتخر العرب بها .

وكانت الشعوبية أكثر ظهورا وأشد خطرا في شعر شعراء الموالى من أمثال بشار وأبي نواس وغيرهم .

وقد دارت معانيهم في شعرهم الشعوبي على التغني بأصلهم والتذكيربأمجاد أممهم ، والحط من شأن العرب ، وتحقير عاداتهم وأعراف مجتمعهم .

وكثيرا ما يسلك الشاعر طريق المقارنه بين أمجاد قومه وحياتهم المترفة ومثالب العرب وحياتهم الخشنة . وبشاريعد أشد شعراء الشعوبية حدّة في تناول هذه المعاني بما تنم عنه من حقد على العرب ، وتعصب مقيت ضدهم ، ومن ذلك قوله موجها كلامه إلى أعرابي أنكر على الموالي أن يقولوا شعرا.

خليلي لاأنام على اقتسار ولاآبى على مولى وجار

وشارك أبو نواس في هذا الشعر الشعوبي ، عازفا على إيقاع الموازنة بين حياة الموالي وحياة العرب ، وهي موازنة تنتهي عنده دائما إلى الحط من شأن العرب وتحقير حياتهم ، وكثيرا مااتكأ في ذلك على التناول الساخر لأبرز ما في تراثهم الشعري من مفردات الوقوف على الأطلال ، ويكاء الدمن ، والرسوم الدوارس ، والظعائن المرتحلة . داعيا الشعراء إلى أن يستبدل بذلك الوقوف وهذا البكاء وصف الخمرة التي تعدّ من معالم الحياة الجديدة ، والتي ترتبط بحضارة الموالي وحياتهم .

يقول : قل لمن يبكي

ويقول : دع الأطلال

وتصدّى بعض شعراء العرب للرد على الشعوبيين، لكن الجاحظ كان أقوى من تصدى لهم مفندا مزاعهمهم ، رادا على تهمهم .

المجون

الماجن في لسان لعرب : الذي يرتكب المقابح المردية والفضائح المخزية، ولا يمضه عذل عاذله ولا تقريع من يقرعه . والمجون هو صنيع هذا الماجن . ولن نجد عصرا من عصور التاريخ الإسلامي يستدعي من مؤرخه الوقوف عند هذه الظاهرة أكثر من العصر العباسي ، بل لعله العصر الإسلامي الوحيد الذي تفشت فيه هذه الآفة حتى غدت ظاهرة قوية وتيارا طاغيا ترك أثره الكبير في حياة المجتع ، ومنها لاشك الحياة الأدبية ، وهي ما تعنينا – دون غيرها – في هذه الدراسة .

لقد بدأت هذه الآفة تزداد حدة وانتشارا مع بداية هذا العصر ، متثلة في رواج سوق الخمر والمجاهرة بشربها ، بل التمدح به . فكثرت مجالسها بكل ما فيها من أسباب الأنس وعناصر اللذة المباحة والمحرمة ، مجالس صاخبة بالغناء والقصف والعبث والخلاعة والتهتك ، فمع الخمر كان الساقي المتهتك ، والمغنية الخليعة . والنديم السكران .

إنها حياة جديدة على المجتمع العربي الإسلامي الذي عُرف بالحفاظ ، وتغنّى أبناؤه بالمروءة والعفة والحياء ،وما خرج عن ذلك في غير هذا العصر ظل استثناء .

فما الذي حدث في هذا العصر ليسبّب هذا التحول الخطير في المجتمع فيزلزل ما رسخ من أعراف وقيم ومثل ، فإ ذا بنا في مجتمع المثل الأعلى لفئة منه المجانة والتهتك واللهو في مجالس الخمر والغناء ، يحيونه ويدعون إليه في شعرهم ، فهاهو أبو نواس كبيرهم في المجانة يؤسس لهذا فيقول :

إنما العيش سماع ومًدام ونِـــــدام

فإذا فاتك هذا فعلى الدنيا ســلام

وعلى الوتر نفسه يعزف شاعر آخر لا يقل عنه مجانة ، هو أبو الهندي الذي ضرب فيها بسهم وافر ، ولنسمعه يرسم منهجه في الحياة ، ويصور تطبيقه له فيقول :

إنما العيشُ فـــــــتاةٌ غادةٌ وقعودي عاكفا في بيت حان

أشربُ الخمرَ وأعصي من نهى عن طلابِ الراح والبيضِ الحسانِ

في حياتي لذةٌ ألهو بـــــها فإذا متٌّ فقد أودَى زمـــــاني

هذا إذن هو العيش كما يراه الماجنون ، خمريعكفون على احتسائها ، وعبث مع الجواري ، وطرب بالغناء ، مع ندماء يشاركونهم السكرو المتعة ، وهي حياة لا يرضون عنها بديلا ، ولا يسمعون فيها عاذلا ، ولا يطيعون ناهيا .

لاغرو أن وجدنا شاعرا آخر منهم لايكتفي بتصوير مجانته ، بل يصيح بغيره ليبادر إلي سلوك سبيله راسما له المنج والطريق ، طريق المجون والخلاعة والفجور ، يدعو إلي تلك الموبقات في جرأة وصراحة لايردعه خوف ولا يمنعه حياء . ذلك هو مطيع بن إياس ، وهذه دعوته ونصيحته:

اخلع عذارَك في الهوى واشــــرب معتّقة الدنان

وصلِ القبيح مجاهرا فالعيشُ في وصل القيانِ

لا يلهيـــنّك غيرُ ما تهوَى فإنّ العمرَ فــــان

عواملُ كثيرة هيأت الظروف لآفة المجون أن تشيع في مجتمع العصر العباسي :

لقد كان قيام الدولة العباسية بداية تغير اجتماعي كبير ؛ لما نتج عنه من زيادة النفوذ الفارسي وقوة حضورهم وطغيان حضارتهم في المجتمع ، فكان أن تقدموا الصفوف واحتلوا الصدارة ، مدلّين على الخلفاء بدورهم في قيام دولتهم ، تسندهم حضارة عريقة ،وتدعمهم نجاحات ثقافية لم يلبثوا أن حققوها ، فإذا منهم العلماء المبرِّزون ، والشعراء المشهورون ، والكتاب المبدعون ، والمؤلفون والمصنفون . منهم سيبويه وأبوحنيفة ، وبشار وأبو نواس ،وابن المقفع وسهل بن هارون ، وأبو عبيدة معمر بن امثنى ، والهيثثم بن عدي ، وغيرهم كثير ، أتقنوا العربية وعلومها وأدبها ، واتخذوا مكانا لهم في صدارة المشهد الثقافي .

وعرف العباسيون للفرس فضلهم في قيام دولتهم ، وقدروا أهميتهم في تثبيت دعائم حكمهم ، واعترفوا لهم بمكانتهم في المجتمع ، فأفسحوا لهم في مجالسهم ، وآثروهم بكبرى المناصب ، فلم يلبثوا أن تصدروا الساحة مستشعرين كثيرا من الزهو، وغير قليل من الاستعلاء حتى على العرب الذين طالما انتقصوا من أقدارهم عهد بني أمية ، وكان طبيعيا أن تسود معهم مظاهر حضارتهم ، وتقاليد شعوبهم ، السياسي منه والاجتماعي ، االغث منها والسمين ، ساعدهم في ذلك جو واسع من الحرية عرف بها هذا العصر ، حرية اجتماعية نتج عنها تطور هائل في العادات والأخلاق والقيم ، وحرية دينية وفكرية أتاحت السبل لظهور البدع الدينية ، وتعدد الفرق والنحل والمذاهب والأهواء .

والجانب المادي من الحضارة الفارسية معروف بالتحرر والتحلل والإمعان في اللذة المادية ، بعناصرها المختلفة ، من أبهة المساكن ، وشهي المطاعم ، ولذيذ المشارب ، ومجالس الأنس ، فيها الكؤوس ، والغناء والقصف واللهو .

وسرعان ما انتقلت هذه العادات إلى المجتمع العباسي ، تمد لها أسباب قوية من ثراء عريض وترف كبير نعمت به طبقة كبيرة من أبنائه ، طبقة مترفة أشد ما يكون الترف ، فقد جمعت في يدها الكثير من أسباب النعيم ،وعرفت حياتها الكثير من مظاهر الترف ، تلك طبقة الأغنياء بدءا برجال الحكم من الخلفاء ، والوزراء ، والولاة ، والقادة، ومرورا بأصحاب الثروات من الإقطاعيين والتجار ، وانتهاء بمن يقربهم أولئك و هؤلاء من العلماء والأدباء والمغنين .

في هذه الطبقة شاعت حياة الترف والبذخ ، وتسلل إلى الكثير منها شوائب المجون والتهتك في مجالس الأنس ، ودور القيان ، وحانات الخمارين . وأديرة النصارى .

لقد كثرت الخمر في هذا العصر ، وتعددت مواطن تقديمها ، وكثر معاقروها ، ولم يكن الكثرون من الخلفاء والعلماء بمنأى عن مجالسها والمشاركة فيها ، ومرويّات التاريخ الأدب التي صورت ذلك أكثر من أن تجتمع على اتهام بما لم يقع ؛ فقد أدى اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ، فشرب الناس هذه الأنبذة ، لكن الكثيرين منهم تجاوزوا ما حلله الأحناف إلى المسكر الحرام من الأنبذة وغيرها ، ومن الطريف في ذلك قول ابن الرومي:

أباح العراقيُّ النبيذَ وشربهُ ◻ وقال حرامان المدامةُ والسكرُ

وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ ◻ فحلَّ لنا من بين قوليهما الخمرُ

سآخذ من قوليهما طرفيهما ◻ وأشربها لا فارق الوازرَ الوزرُ

وابن الرومي يريد بالحجازي الإمام الشافعي ، وبالعراقي الإمام أبا حنيفة، وقد استحدث لنفسه مذهبا ثالثا أحل فيه الخمر .

ومن هنا فإننا نحمل ما ورد في كتب التاريخ عن شرب بعض الخلفاء أو العلماء على هذه الأنبذة التى أحلها بعض الفقهاء . وإن كنا لا نستبعد تجاوز بعضهم إلى ما لاخلاف في حرمته ؛ وسكر الخليفة الأمين مع شاعره ونديمه أبي نواس وثقه التاريخ وصوره الشعر في غير موطن .

وتعددت مواطن تقديم الخمر في أنحاء الدولة :

فكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بالحانات التي يختلف إليها الشعراء وغيرهم : حيث تقدم لهم الخمر في جو من المتعة بجمال الطبيعة والتلذذ بالقصف ، والغناء ، والعبث بالغلمان والجواري .

وقد صور الشعر أطرافا من ذلك :

يقول البحتري :

إشربْ على زهر الرياضِ يشوبُه زهرُ الخدود وزهرةُ الصهباءِ

من قهوة تنسي الهموم وتبعث الشـ ـــوق الذي قد ضل في الأحشاءِ

وكانت أديرة النصارى متناثرة في الحيرة وبغداد و طرق الممسافرين ، تقدم لروّادها الخمر المعتقة ، ومعها ما شاؤوا من لهو وعبث . وكثير من الشعراء الماجنين كانوا يرتادونها ، وفي شعرهم وصف لكثير منها وتصوير لمشاهدهم فيها وتجاربهم مع من بها :

من ذلك قول جحظة البرمكي:

ديْر تدورُ به الأقداحُ مترعــــةً من كف ساق مريض الطرف وسنانِ

والعودُ يتبعه نايٌ يوافقـــــهُ والشدو يُحكمه غصنٌ من البــــــانِ

وقد ألفت في الديارات وما قيل فيها من شعر كتب منها (الديارات) للشابشتي . وهو ما يصور كثرتها من جهة ، ودورها في المجتمع من جهة ثانية .

وكان رواج تجارة الرقيق ، والتوسع في اقتناء الجواري ، وانتشار بيوت القيان والمقينين بابا واسعا دخل منه الكثير من ألوان المجانة والتهتك في المجتمع؛ فقد كانت بيوت القيان في الكوفة والبصرة وبغداد مقصدا لطلاب المتعة واللهو والعبث تقدمها جوار مدربة على فنون الإغواء ، وقد امتلكت من أسلحته الكثير : جمالاً وثقافة وإجادة للغناء ورقة حديث و خلاعة حركات وفتنة إشارات ،إغراء للرواد وابتزازا لأموالهم ، وكثير من الشعراء كان يغشى هذه البيوت ، ومنهم ابن المعتز الذي يقول من قصيدة طويلة في تصوير تجربة له نزل فيها ضيفا في إحدى دور القيان :

أشرْ بيد واغمزْ بطرْفٍ ولا تخفْ رقيبا إذا ما كنت غير مبخّلِ

وأعرض عن المصباح والهج بمثْله فإنْ خمَدَ المصباحُ فادنُ وقبِّلِ

وسل غيرَ ممنوع وقل غيرَ مسكَتٍ ونم غيرَ مذعور ، وقم غير مُعجـلِ

لك البيت ما دامت هداياك جمّةً وكنت مليًّا بالنبيذ المعسّـــــــــلِ

ثم يقول بعد أبيات :

هل الدهرُ إلا ليلة طرحتْ بنا □ أواخرها في يوم لهو معجـّـــــلِ

ليعلن بذلك أن الآفة وإن بدأت فارسية لم تلبث عدواها أن انتشرت لتكون طابع البيئة المترفة في معظمها فارسية وغير فارسية ، بل عربية عباسية ، فابن المعتز صاحب هذه الأبيات وما تصور من تجربة شاعر وخليفة وابن خليفة .

ومن الشعاء المرتادين لهذه الدور من تعلق بواحدة من جواريها وخصّها بكثيرمن غزله . فلا غرو أن كان معظم غزل هؤلاء الشعراء في الجواري ، وطبيعي أن يكون غزلا ما جنا ، ضاربا في الحسية ، بل غارقا في مستنقع اللذة الجسدية ، وجدنا كثيرا منه عند بشار بن برد وغيره من الشعراء .

ومهما كان من سوأة هذا الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة شاعر ولا جارية ؛ فإن غزلا آخر أسوأ منه ، وأقل ما يوصف به أنه شاذ ، ابتلي به العصر وشاع بين أبنائه ، ذلك هو الغزل بالمذكر ، نعم الغزل بالغلمان ، آفة ما كان أبعد المجتع العربي الإسلامي - بما عرف عنه من كرم الطبع ، وعفة النفس، واستقامة الفطرة ، ونقاء السلوك – أن يسقط في حمأتها ، ويتردى في سوأتها ، لكنها الحضارة الوافدة بمفاسدها وغلبة سلطانا ، فقد غدا الغلمان المرد من مفردات هذه الحضارة ، لهم دورهم في إتمام مظاهر الترف ، وعناصر المتعة التي طلبها ماجنو المترفين من جميع جوانبها . كان الغلمان خدما في القصور ، وسقاة للخمور ، ينافسون الجواري في الزينة إمتاعا لسادتهم ، وجذبا لزبائنهم ، فلبسوا ملابس النساء ، وتبشهوا بهم في الليونة والخلاعة ، ووجد ذلك هوى في نفوس الماجنين ، فتعلقوا بهم ، ونظم شعراؤهم الغزل فيهم ، مسجلين بذلك قمة الانحراف الخلقي والشذوذ النفسي ، وضرب أبو نواس بسهم وافر في هذا الضرب من الغزل ، وقال فيه الكثير ، متصرفا في معانيه ، مجددا في صوره ، تساعده شاعرية مقتدرة حتى في هذه الموضوعات ! .

من ذلك قوله :

وعاذلةٍ تلوحُ على اصطفائي □ غلاما واضحا مثل المهاةِ

دعيني فلا تلوميني فإنّي □ على ما تكرهين إلى المماتِ

بذا أوصى كتابُ الله فينا □ بتفضيل البنين على البنـــــــاتِ

بهذا التبرير الديني المغلوط الذي ألبس لباس الظَّرْف يصل هؤلاء الشعراء في مجونهم إلى درجات يتجاوزون فيها الانحراف الخلقي إلى الغمز في الدين والسخرية من شعائره ، بل الخوض بالباطل في حقائقه .

فهذا آدم بن عبد العزيز حفيد الخليفة الأموي الزاهد عمربن عبد العزيز ، يقول مخاطبا من لامه في شرب الخمر :

قل لمن يلحاك فيهــا □ من فقيه أو نبيـــــل

أنت دعها وارجُ أخرى □ من رحيق السلسبيل

تعطش اليوم وتُسقَى □ في غدٍ نعتَ الطلول

ويتمادى بشار بن برد في الخوض في أمر الدين حتى يلامس ساحة الزندقة والإلحاد عندما يقول مفضلا إبليس على آدم مخالفا بذلك ثابتا من الدين :

إبليسُ أفضل من أبيكم آدم □ فتنبهوا يا معشر الفجـــار

النار عنصره وآدم طينـــة □ والطين لا يسمو سمو النار

الأرض مظلمة والنار مشرقةوالنار معبودة مذ كانت النار

الزهد والتصوف

الزهد بمعنى الرغبة عن الدنيا والاكتفاء بالقليل منها ظاهرة إنسانية ، عرفتها كثير من الأمم بدوافع مختلفة قد تكون دينية أو فلسفية أو تربوية أو أخلاقية .

والقرآن الكريم وإن لم يدع إلى الزهد صراحة فإن حديثه عن الدنيا والآخرة كان منبعا لرواد الحياة الروحية في الإسلام ، فالدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر ، والآخرة خير وأبقى ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ، إلى كثير من هذه المعاني التي تعدّ أساسا لسلوك الزاهد زهدا دينيا ، كما أن الصورة التي رسمها القرآن الكريم للمؤمن تتفق إلى حد كبير مع الصورة المثالية للزاهد الإسلامي كما نجدها عند المعتدلين من زهاد المسلمين ، وهذه الصورة المثالية وجدت خير تطبيق لها في شخصية الرسول صلى الله وعليه وسلوكه .

ويمكن أن نعرِّف الزهد بمعناه الإسلامي بأنه : الرغبة عن الدنيا إيثارا للآخرة ، وعلى هذا ففيه جانبان متلازمان :

جانب سلوكي : يقوم على حياة التقشف والقناعة من متاع الدنيا بالقليل .

وجانب عِبادي : وهو صرف الهمّة إلى الآخرة ، والتزوّد لها بصالح العمل والتقوى مع التوكل على الله والرضا بما قسم وقدر .

والزهد بهذا المعنى كان خلقا للمسلم في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الخلفاء الراشدين

لكن الأمر يأخذ في التغير بعد الفتوحات الإسلامية ، وما عادت به على كثير من المسلمين من الغنائم ، وما أتاحته لهم من ضروب الثراء وألوان المباهج الدنيوية ، فعلى حين لم يجد الكثيرون حرجا في التمتع بما أفاء الله عليهم من طيبات الحياة ، ظلت فئة منهم متمسكة بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته عازفة عن هذه المباهج ، ترى في الإقبال عليها خطرا على دينها ، وخروجا على سلوك رسولها صلى الله عليه وسلم الذي نظروا إليه على أنه زاهد الأمة الأول .

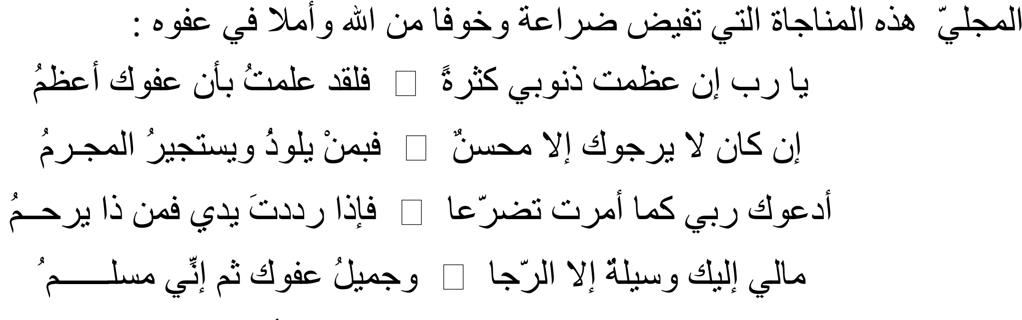
بذلك أصبحت في المجتمع الإسلامي طائفة متميزة ، رغبت عن الدنيا التي أقبلت، وتمسكت بالزهد وعُرفت بذلك ، فكان يطلق عليهم القراء والعباد والقصّاص ثم سموا بعد ذلك " الزهاد " وبقيام الدولة العباسية يشهد المجتمع الإسلامي تطورات اجتماعية ، وظروفا سياسية واقتصادية ، ومؤثرات ثقافية لها خطرها ، كان لها تأثيرها الكبير في قوة تيار الزهد وانتشار ظاهرته :

فقد كان تيار المجون والزندقة بما فيه من إباحية وخروج على مبادئ الدين والخلق ، كانت قوة هذا التيار في العصر العباسي وراء قوة تيار الزهد ، بما يثير من حمية دينية وأخلاقية عند المسلم الغيور على دينه وخلقه ، فيقف هؤلاء المحافظون على دينهم في مقابل الخارجين عليه يعظونـهم ويحذرونهم مغبة ما هم فيه ، ويذكرونـهم بمصيرهم المحتوم وما ينتظرهم بعد ذلك من عقاب .

بل إن كثيرين ممن قضوا شطرا من حياتهم في المجون انتهى أمرهم إلى الزهد ، ذلك أن الزهد تعبير عن حالة لا تكاد نفس تفلت منها في حياتها مهما كانت سادرة في غيّها ، سائمة في لهوها ومجونـها ، حالة يتنبه الإنسان فيها إلى مصيره ، ويبصر نهايته المحتومة ؛ فلا مفر من الموت والقبر والبعث والحساب والجزاء ، هذه مشاعر فطرية في الإنسان عامة والمسلم خاصة ، قد تتواري فترة تحت ستار من الغفلة حين تستغرق الحياة بجوانبها الجادة واللاهية عقلَ الإنسان وحواسه وجهده ، لكنها لا تلبث أن تطفو على السطح تحت مؤثر يزيل هذا الستار وتلك الغشاوة ، قد يكون هذا المؤثر تقدّمَ العمر والإحساس بدنوّ الأجل وتسرُّب الحياة ، وقد يكون فقدَ عزيز لم تُهيّأ النفسُ لفقده ، فيهزّ أقطارَها وينبهها إلى المصير المحتوم ويذكرها بفناء الدنيا ، وقد يكون سماعَ موعظة مؤثرة تأخذ طريقها إلى العقل فتوقظه وإلى القلب فتملؤه ندما على ما فات وخوفا من المصير والحساب .

لا عجب إذن أن وجدنا شعرا زهديا يفيض خوفا وندما لدى الشعراء الذين عرفوا بالمجون مثل أبي نواس وغيره . فلا عجب أن وجدنا لأبي نواس شاعر الخمر الأكبر وفارس المجون

المجليّ هذه المناجاة التي تفيض ضراعة وخوفا من الله وأملا في عفوه :



يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً   فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ   فبمنْ يلوذُ ويستجيرُ المجـرمُ

أدعوك ربي كما أمرت تضرّعا   فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحــمُ

مالي إليك وسيلةٌ إلا الرّجا   وجميلُ عفوك ثم إنِّي مسلـــــمُ

وكان للتفاوت الطبقي الذي عرفه المجتمع العباسي أثره في قوة تيار الزهد حيث وجدت طبقة تمتلك من أسباب الترف ما أتاح لها أن تحيا حياة مسرفة في التملك والتنعم ، حيث القصور والرياض والجواري ومجالس اللهو ، تلك كانت طبقة الحكام ومن يقربونـهم من الشعراء والعلماء والمغنين ، على حين كانت غالبية الشعب تحيا بعيدا عن هذا الترف ، تراه بعينها لكنها لا تقربه ، تعيش في الضنك والضيق ، ويفتقد الكثير منهم ضروريات الحياة .

هؤلاء الفقراء المحرومون في مجتمع يعجّ بألوان المباهج وزينة الحياة إما أن يتّجهوا إلى كسب المال بالطرق الملتوية ، وبوسائل غير مشروعة أو غير أخلاقية ، وكان من هؤلاء اللصوص والعيارون وقطاع الطرق والمُكدون ، وهي طوائف عرفها المجتمع العباسي ، وإما أن يسلكوا طريق الزهد واجدين فيه سلواهم وراحتهم بما يقدمه لهم من تهوين لمتاع الدنيا وتعظيم لما ينتظرهم من نعيم الآخرة .

وكان للصراع الذي شهده العصر ؛ الصراع السياسي والعرقي والمذهبي أثره كذلك في قوة تيار الزهد ، فهذا الاضطراب يفقد الكثير من الناس إحساس الأمن ، ويصيبهم بأحاسيس القلق والخوف ؛ فالخلفاء يقتلون ، والوزراء يصادَرون ، والعبيد يملّكون ، ويبلغ تعصب كل طائفة لمذهبها حدَّ الاقتتال . في هذا الجو يفضِّل الكثيرون اعتزال المجتمع ، حيث يقضون وقتهم في العبادة ، أو في العلم ، أو في كليهما ، فلا غرو أن كثر الزهاد خاصة بين العلماء.

وكان لازدهار الثقافة الإسلامية والترجمة عن الثقافات الأجنبية أثر قوي في انتشار تيار الزهد . فقد غدت المساجد دور علم تقدم ألوان الثقافة ، ومنها : تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته وسير حياتهم ، وتفسير القرآن الكريم ، ودراسة الحديث الشريف ، إلى جانب نشاط واسع قام به وعاظ كان لهم تأثيرهم الكبير في المجتمع من أمثال الحسن البصري ت 161 هـ ، وداود الطائي ت 165هـ ، وعبد الله بن المبارك ت 181هـ ، والفضيل بن عياض ت 187هـ، وسفيان بن عيينة ت 198هـ ، ولا شك أن هذا الجو الديني له أثره في قوة التدين والجنوح إلى الزهد .

وإذا كان الكثير من كلام هؤلاء الوعاظ يدخل في أدب الزهد النثري ، فقد أثروا في شعراء الزهد فأمدوهم بكثير من المعاني الزهدية ، وهو ما يؤكده تشابه المعاني بين بعض ما قال أبو الحسن البصري نثرا وما قال أبو العتاهية شعرا ، فبينما نقرأ لأبي الحسن البصري هذه الموعظة : " يابن آدم ، أنت اسير الدنيا ، رضيت من لذاتها بما ينقضي ، ومن نعيمها بما يمضي ، ومن ملكها بما ينفد ، فلا تجمع الأوزار لنفسك ، ولأهلك الأموال ، فإذا متّ حملت الأوزارإلى قبرك ، وتركت أموالك لأهلك "

نقرأ لأبي العتاهية :

أبقيتَ مالك ميراثا لوارثــــه   فليت شعريَ ما أبقى لك المــــالُ

القومُ بعدك في حالٍ تسرّهــمُ   فكيف بعدهمُ دارت بك الحـــــالُ

ملُّوا البكاء فما يبكيك من أحدٍ   واستحكم القيلُ في الميراث والقالُ

كذلك كان للترجمة عن الثقافات الوافدة أثرها في تعرف ما فيها من تيارات الزهد والتصوف ، وهي تيارات عرفها فلاسفة الإغريق ، وبوذيو الهند ، ومانويو الفرس ، كما آمنت بها المسيحية ، وكان لذلك أثره في تأثر بعض الزهاد والمتصوفة بهذه التيارات ، بل إن المجتمع عرف نوعا من الزهد غريبا عن الإسلام كان يعرف بزهد الزنادقة يعود إلى " المانوية "وهي مذهب ديني للفرس كان يدعو إلى الزهد وينهى عن ذبح الحيوان ، ويمكن أن يفسر ذلك ما نجده من أفكار زهدية في شعر صالح بن عبد القوس الذي اتهم بالمانوية .

وما لبثت هذه الظاهرة أن تطورت إلى ما يعرف بالتصوف الذي ظهرت بداياته نهاية القرن الثاني الهجري ، حيث تطور الزهد من زهد قوامه الخوف من النار والرغبة في الجنة إلى زهد قوامه حب الله ، والأنس به ، والإقبال عليه ، والشوق إليه ، ويهتم بتطهير النفس وتصفية القلب ، كما يهتم بأعمال القلوب من التقوى والورع والإخلاص والصدق والتوكل والرضا والمحبة والمراقبة والصبر، وهي أعمال تنبثق من عقيدة " المحبة الإلهية " التي هي أساس التصوف ، وتستند إلى قوله تعالى : " والذين آمنوا أشد حبا لله " .

وطبيعي أن يتبع قوةَ تيار الزهد وانتشارَ ظاهرته ازدهارٌ في شعر الزهد ؛ فما الشعرُ إلا تصوير صادق للشاعر وبيئته وعصره .

لقد ازدهر شعر الزهد في العصر العباسي ، وكان لذلك مظاهر أهمُّها :

أصبح شعر الزهد غرضا مستقلا ، وفنا من فنون الشعر قائما بنفسه ، فرأينا قصيدة الزهد والمقطوعة الزهدية ، بعد أن كان يأتي في بيت أو أبيات ضمن غرض آخر : رثاء أو مدحا ، أو فخرا أو غير ذلك . والفضل الكبير في ذلك يرجع لأبي العتاهية اسماعيل ابن القاسم ، وكان قد تحول إلى حياة الزهد في الخمسين من عمره مودِّعا حياة اللهو والمجون التي عرف بها فترة شبابه ، فإذا هو يلبس الصوف ، ويتقشف ، ويكف عن شعر الغزل والخمر ، ويحبس شعره على الزهد ، ويكثر منه مخلصا أشد الإخلاص له حتى إن ما نظمه فيه يؤلف ديوانا كاملا ، وهو بحق يعد شاعر الزهد الأول لا في العصر العباسي فقط ، وإنما في الأدب العربي كله ، وهو كذلك واضع أسس القصيدة الزهدية ببنائها ومعانيها وصورها وأسلوبـها .

ودارس زهديات أبي العتاهية لا يهمه كثيرا ما يثار حول تجربته الزهدية من القول بمانويته ، أو بأنه متزهد وليس زاهدا ؛ فالذي يثبته شعره بلا شك أنه شاعر زهد من الطراز الأول ، وأن زهده زهد إسلامي : فيه الإيمان بالله واليوم الآخر ، والخوف من الحساب والجزاء ، واتهام النفس بالتقصير في حق الله ، ومجاهدتها ، والتحذير من المعاصي ومن اتباع هوى النفس والغفلة عن التزود لما بعد الموت ، والحث على التقوى وحسن الخلق ، والاعتبار بما نرى في حياتنا من مظاهر الفناء التي تحيط بنا وتذكرنا دائما بالمصير الذي يستوي فيه الجميع شريفا وحقيرا ، سيدا وعبدا ، غنيا وفقيرا . وتلك هي معظم المعاني التي يدور حلها شعر الزهد الديني في العصر العباسي

كثر شعر الزهد في العصر العباسي ، فإلى جانب ما نظمه شعراء الزهد الذين غلب عليهم هذا الشعر أسهم فيه أكثر الشعراء إن لم يكن كلهم ، فلا يكاد يخلو شعر أحدهم من قصيدة أو مقطعة زهدية ؛ لا نستثني من بدأوا حاتهم بالمجون على ما ذكرنا سابقا .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قاله علماء الفقه والتفسير والحديث واللغة وغيرهم من شعر زهدي ، وهو كثير تحفل به كتب الطبقات والتراجم إلى جانب دواوين من لهم دواوين منهم من أمثال الإمام الشافعي و الزمخشري تأكد ما ذهبنا إليه من كثرة شعر الزهد في العصر العباسي .

أصبح عندنا في هذا العصر –كما أشرنا من قبل – " شعراء زهد " وهم شعراء غلب عليهم شعر الزهد حتى تفرغوا له طوال حياتهم أو فترة كبيرة منها هي فترة تحولهم الزهدي .

من هؤلاء الشعراء الذين يقترن ذكرهم بالزهد أبو العتاهية ، عبد الله بن المبارك ، محمود الوراق ، محمد بن كناسة ، أبو العلاء المعري .

عرف العصر العباسي نوعا من الزهد يمكن أن يطلق عليه الزهد التأملي الفسفي ، وهو ما يمكن أن يندرج تحته شعر أبي العلاء الزهدي الذي ضمنه ديوانه " لزوم ما لا يلزم " وذلك لما اجتمع له من النظر الفلسفي والحس التشاؤمي

والزهد الفلسفي قسيم الزهد الديني ، لكنه يختلف عنه في دوافعه وطبيعته وغايته . فإذا كان الدافع إلى الزهد الديني إيثار الآخرة اتباعا لتوجيهات الدين" التي تدعو إلى إيثار الآخرة الباقية على الأولى الفانية ، فإن الزهد الفلسفيّ دافعه ازدراء الحياة لفنائها ، أو كراهيتها لشرورها .

والزاهد الديني لا يكره الحياة ولا يعتزلها ، وإنما يتخذ منها سببا للفوز برضا الله، فهو يعمل في الدنيا رغبة في الآخرة ، والحياة تكتسب قيمتها عنده من ارتباطها بالآخرة ، فالسعي هنا والجزاء هناك ، وهنا الزرع وهناك الحصاد ، وعلى المسلم أن يحسن السعي ، وأن يزرع الخير فتغدو حياته سببا إلى الفوز الأكبر والسعادة الدائمة.

وهذه الطبيعة وتلك الغاية لا يعرفها الزاهد الفلسفي وخاصة من غلب عليه التشاؤم ، فهو يحتقر الحياة ويكرهها ويؤثر عليها الموت لا لشيء إلا لأنه يريح من شرورها ، ويضع نـهاية لشقاء الإنسان فيها .

وزهد أبي العلاء في جانبه الأكبرمن هذا الزهد فلسفي ، تغذيه نزعة تشاؤمية ترمق الوجود بنظرة قاتمة ، وتطيل التأمل فيما تنطوي عليه حياة الإنسان من آلام وما يتهدده من الفناء ، وهو تأمل انتهى به إلى رفض الحياة والسخط عليها والزهد فيها ، وهو ما عبر عنه في لزومياته

وكما كان للزهد شعراؤه الذين صوروا تجاربهم الزهدية كان للصوفية شعراؤهم الذين صوروا تجاربهم الصوفية ، من أمثال (ذي النون المصري ، وأبو يزيد البسطامي ، وسحنون الخواص ، والحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، ودلف بن جحدر المعروف بالشبلي ، وعمر بن الفارض .

ومن شعرهم الصوفي قول ذي النون المصري مخاطبا الذات الإلهية :

أموتُ وما ماتت إليك صبابتي ◻ ولا قضيتُ من صدق حبّك أوطاري
تحمّل قلبي فيك ما لا أبثّــه ◻ وإن طال سُقْمي فيك أوطال إضراري

وقول أبي الحسين سحنون الخواص :

وكان فؤادي خالـيا قبل حبّكم ◻ وكان بذكر الخلق يلهو ويمزحُ
فلمّا دعا قلبي هواك أجابـهُ ◻ فلستُ أراه عن فِنائك يبـــــرحُ
رُميت ببيْن منكَ إن كنتُ كاذبا ◻ وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإنْ كلُّ شيء في البلاد بأسرها ◻ إذا غبتَ عن عيني بعينيَ يملحُ

Unit II

آثر الثقافات الأجنبية على الأدب فى العصر العباسى الأول

ناقشت الدراسة مفهوم الثقافة وتعريفها ، وأثر الثقافة الفارسية فى المجتمع العباسى على العقائد والسياسة والحياة الاجتماعية والأدب ،وتناولت أثر الثقافة اليونانية والهندية والسريانية واليهودية والنصرانية على الثقافة العربية وجوانب تأثيرها على العرب ،وتناولت طرق اتصال العرب المسلمين بالثقافات الأخرى، صيغت المشكلة فى رأى بعض المفكرين والكتاب فى أن الفكر الغربى الوافد وما انتجته الحضارة الأوربية والقول أن الفضيلة عاجزة عن توجيه الحياة ، ونبعت أهميتها من بيان أفادة الفكر العربى المسلم من الفكر الوافد واخذ الصالح ونبذ الطالح ، اختار الباحث المنهج التحليلى والمنهج المقارن واستخدم الباحث من الادوات المراجع والملاحظة ،ومن أهم النتائج :اتصال العرب بالثقافات الوافدة عن طريق الاتصال المباشر والترجمة والنقل ، الثقافة الفارسية هى اكثر الثقافات تاثيرا على الادب العربى تلتها اليونانية والهندية والنصرانية واليهودية ، اسهمت الثقافة اليونانية فى تطور العلوم والمعارف العربية وافادتها فى المنطق والفلسفة والعلوم ، كانت مجالات تاثير الثقافة الهندية فى : الحكمة والطب والنحو والحساب والرياضيات والنحو ، وأثبتت الدراسة أن تاثير الثقافة اليهودية والنصرانية كان سلبيا فى العصر العباسى الأول.

التفاعل الثقافي والحضاري في العصر العباسي

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والقرن الأفريقي جنوباً إلى بلاد الترك والخزر والروم والصقالبة شمالاً، وبذلك كانت تضم بين جناحيها بلاد السند وخراسان وماوراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والمغرب العربي. وهي أوطان كثيرة، تعيش فيها منذ القدم شعوب وأقوام وجماعات متباينة في الجنس واللغة والثقافة، غير أنها لم تكد تدخل في نطاق الثقافة العربية حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجاً قوياً، فإذا بنا إزاء حضارة تتألف من أجناس وعناصر مختلفة، فمضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد.

وقد تميّز العصر العباسي باختلاط كبير بين الأمم المفتوحة وامتزاجها في السكن والمصاهرة وفي الحياة الاجتماعية والمهن والحرف.. الخ، بحيث غدت أحياء المدن الكبرى تعجّ بالعرب والهنود والأحباش والفرس والترك والأكراد والأروام والأرمن وغيرهم، وبحيث أصبح العربي خالص الدم في بغداد (عاصمة العباسيين) نادراً، فالكثرة الكثيرة من أبناء العرب كانت أمهاتهم من السنديات أوالفارسيات أو الحبشيات أو التركيات، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم.

وكان وراء هذا الامتزاج الدموي بين العناصر والشعوب والأقوام المختلفة امتزاج روحي عن طريق الولاء الذي شرعه الإسلام، والسياسة الحكيمة، التي قامت على التسامح والاحترام المتبادل، فتحول الولاء إلى الكيان الواحد إلى رابطة تشبه رابطة الدم، فالشخص يكون فارساً أو هندياً أو رومياً أو حبشياً ويكون عربي الولاء، بل إن الرقيق كانوا بمجرد تحريرهم يصبحون موالي لأصحابهم ويُنسبون إلى القبائل العربية مثلهم مثل أبنائها الأصليين.

وهذا الرقيق إنما كان قلة قليلة بالقياس إلى أحرار الموالي الذين كانت تتكون منهم الشعوب المفتوحة، وقد دخل أكثرهم الإسلام، وامتزجوا بأهله من العرب ونعموا بما يكفل للناس من عدل ومساواة. وحتى من لم يعتنق الإسلام من الموالي (من المجوس الصابئة والنصارى غير العرب) أخذ يندمج من المحيط العربي بفضل ماشرعه الاسلام لهم من حقوق اجتماعية وحرية دينية. وبذلك فتحت بينهم وبين المسلمين أبواب التعاون الوثيق -على مصاريعها- في شؤون الحياة كلها، وحقاً دخل جمهورهم الضخم في الإسلام ولكن دون ضغط أو إكراه أو عنف.

وبذلك استطاع الخلفاء العباسيون -بسياستهم المتسامحة، المنفتحة- أن يحدثوا امتزاجاً قوياً بالعناصر والأقوام والشعوب والجماعات المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة، وهو امتزاج لم يبلغوه بامتلاك الأرض المفتوحة، إنما بلغوه باحترام الاختلاف والتنوع والتعدد.

بالانفتاح وضمان حرية الاعتقاد شعرت الشعوب غير العربية بالولاء للدولة، أسرعت معظمها إلى تعلم لغة القرآن الكريم والحديث النبوي، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العربية تسود في أنحاء العالم الإسلامي، لا بين المسلمين وحدهم، بل أيضاً بين غيرهم ممن بقي على دينه القديم، لا في البيئات التي كانت قد أخذت تستعرب في عهد ماقبل الإسلام: بيئات العراق والجزيرة والشام فحسب، بل أيضاً في البيئات النائية: في إيران ومصر وبلاد أفريقيا الشمالية، فإذا هي تتعرب وتتعرب معها الأطراف الغربية للقارة الأوربية في الأندلس.

وكان سكان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة، ففي إيران كانوا يتكلمون الفهلوية، وفي العراق والجزيرة كانوا يتكلمون الآرامية، وفي بلاد الشام كانوا يتكلمون هذه اللغة ولهجات عربية مختلفة، وفي مصر كانوا يتكلمون القبطية والعربية، وفي المغرب كانوا يتكلمون البربرية بلهجاتها المتنوعة. وكانت اللغة اليونانية قد أخذت تشيع -منذ غزو الاسكندر- في الأوساط الثقافية في كل من بلاد الشام وإيران والعراق والجزيرة ومصر، بينما كانت اللاتينية تشيع في تلك الأوساط بشمالي أفريقيا والأندلس.

وفي العهد العباسي أصبحت شعوبها جزءاً أساسياً في المجال الثقافي -الحضاري العربي، لغةً وشعوراً وأدباً وانتماء. وقد اختلف إسراعها إلى هذا الانصهار(التعرّب) باختلاف مواقعها -بعداً أو قرباً- من الجزيرة العربية، فكان أسرعها تعرّباً العراق والجزيرة والشام، وكان تعرّبها جميعاً قد بدأ بقرون قبل الإسلام، فأتمته الفتوح (الإسلامية) سريعاً، وتعرّبت شمال أفريقيا تدريجياً.

وفي هذا السياق الحضاري والمناخ الفكري المواتي أقبل الفرس -مثلاً- على التعرّب إقبالاً منقطع النظير، فقد أكبّوا على تعلّم العربية إلى أن أتقنوها واتخذوها سريعاً للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم، بحيث لانكاد نتقدّم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء والكتّاب والشعراء منهم، فهم يقبلون على دراسة الشريعة الإسلامية ويتألق فيها نجم أبي حنيفة وتلاميذه، وهم يقبلون على جمع العربية وتدوين أصولها النحوية على نحو ماهو معروف عن سيبويه، وهم يقبلون على صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عن ابن المقفع، وهم يقبلون على الشعر بحيث يصبح أعلامه النابهون منهم على نحو ماهو معروف عن بشار وأبي نواس.

وفي ظلّ التسامح الفكري العظيم ظلّت كثير من اللغات الأصليّة متداولة حتى في أكثر البيئات تعرّباً أي في العراق والشام، ونقصد بها الآرامية أو السريانية والنبطية والفارسية والكردية والتركية وغيرها.

ونشير هنا إلى الفارسية، التي ظلّت حيّة، مزدهرة، لابين سكان إيران فحسب، بل أيضاً بين سكان المدن في العراق، الذي زحف إليه من عصر بني أميّة جموع كبيرة منهم، وازداد زحفهم في العصر العبّاسي الذي علا فيه سلطانهم. ويدل على ذلك من بعض الوجوه مايرويه الجاحظ عن قاص من قصّاص البصرة ووعاظها هو موسى الأسواري، إذ يقول: "كان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب على يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسّرها للعرب بالعربية، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يُدرى بأي لسان هو أبين".

وقد تعلم كثير من العرب الفارسية وأتقنوها، حتى لنراها تدور في مجالسهم. وممّن اشتهر بإتقانه للفارسية الأصمعي العربي القحّ. ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ الفارسية شاعت على ألسنة كثيرين في الحياة اليومية لبغداد والكوفة والبصرة، وبسبب ذلك ولأنها كانت لغة الحضارة الفارسية دخل منها إلى العربية ألفاظ كثيرة، وخاصة مااتصل بأسماء الأطعمة والأشربة والأدوية والملابس، ودخل إلى العربية في هذا العصر بعض ألفاظ هندية وخاصة في أسماء النباتات والحيوانات، كما دخل بعض ألفاظ اليونانية وخاصة مااتصل باصطلاحات الفلسفة والطب وأسماء المقاييس والموازين والأمراض والأدوية (مثل القيراط والأوقية والقولنج).

ولم تعد هذه الألفاظ والكلمات غزواً للعربية، وكثيراً ماكانت تعرّب بحيث تتفق واللسان العربي، وقد ألف العرب فيها مصنّفات كثيرة تمييزاً لها وتعريفاً بها. وبذلك اتسعت العربية بفضل هذا الاحتكاك الثقافي الواسع، وتحوّلت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة على مقوّماتها ومكوّناتها الأساسية وأوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية.

وفي الوقت نفسه، وكنتيجة طبيعية لهذا الاختلاط الأممي الكبير شاع اللحن في العربية، وقد ساق الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" جملة من لكنات بعض الأعاجم، وهي لكنات مردّها إلى ماكان يجده نفر من صعوبة التكيف العضوي لمخارج الحروف العربية، التي لاتوجد في لغاتهم، إذ كان منهم من يبدل الراء غيناً والزاي والتاء والشين سيناً والعين همزة والقاف كافاً أو طاء والجيم زاياً أو ذالاً والحاء هاءً والصاد سيناً والظاء زاياً واللام ياءً. ولكن الفصحى ظلّت المثل الأعلى للناس في هذا العصر، وخاصة الطبقة المثقفة، وحتى غير المسلمين أو المؤمنين اتخذوها لسانهم وأدواتهم في التعبير، مما أحالها وعاءً كبيراً لكل ما لقيته من ثقافات في البيئات الحضارية والاجتماعية والبشرية ومن معارف مختلفة متباينة، وهي معارف امتزجت فيها منذ فتوح الاسكندر عناصر شرقية بعناصر إغريقية مكوّنة مايسمّى بـ "الثقافة الهلّينيّة"، حيث إن زحوفه العسكرية شملت مصر وليبيا والشام والعراق وإيران وأفغانستان وشطراً من بلاد الهند، وقد عُني بنشر الثقافة اليونانية في كل البلدان التي احتلها ومضى خلفاؤه الذين ورثوا ملكه على نهجه. وبذلك امتزجت هذه الثقافة بثقافات أمم كثيرة، فتكونت من هذا الامتزاج ثقافة جديدة فيها من فلسفة الإغريق المتشعبة، وفيها من ديانات الشرق وروحانياته وأساطيره ومعارفه الفلكية والطبية وغيرها. وكانت المراكز الثقافية الهلّينيّة قبل الإسلام مدارس مختلفة في الاسكندرية وقيسارية وأنطاكية والرها ونصيبين وحرّان وجند يسابور، فاتصلت الثقافة العربية بعد الإسلام، ولاسيما في العصر العباسي بكلّ هذا التراث وحدث تفاعل بينه وبين المعارف الإسلامية والآداب) الإسلامية)

الجديدة، واتخذ هذا التفاعل صوراً كثيرة، منها الترجمة ونقل العلوم، مما سنتحدث حوله لاحقاً وبصورة أكثر تفصيلاً.. وفيها تأثر العرب بالمعارف العملية التطبيقية عند الشعوب الأخرى، مما اضطرهم إلى التعمّق فيها من خلال إنشاء المدن وضبط الدواوين وعمل الأساطيل وإعداد الجيوش والنهوض بالزراعة والميكنة (فنون الحيل كما كان العرب يطلقون عليها .(واضطرمت المجادلات بين المسلمين والمسيحيين وغيرهم، وتعرّفوا عقائدهم وتصوّراتهم وطقوسهم وشعائرهم. ناهيك من تحوّل قسم كبير من أتباع تلك الديانات والعقائد إلى الإسلام بتراثهم العقيدي، بل تراثهم الثقافي والقومي والتاريخي.

وقد فصّل في هذه المسألة مؤرخون وباحثون كُثر، سواء من العرب أو من المستشرقين، نذكر منهم -على سبيل المثال- كارل بروكلمان ومؤلفه الشهير" تاريخ الشعوب الإسلامية"؛ لويس غارديه وكتابه "أهل الإسلام"؛ كلود كاهن وكتابه "تاريخ العرب والشعوب الإسلامية"؛ هاملتون جيب وكتابه "التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى".. الخ. بالإضافة إلى مئات المؤلفات العربية والإسلامية بهذا الشأن.

مانودّ التركيز عليه هنا أننا أمام حضارة ذات خليط سكاني -ثقافي شديد التنوع -أحياناً أمام انصهار حقيقي تحت الهيمنة الشرفية -على الغالب- للفاتحين المسلمين. ويتكوّن هذا المزيج من القبائل العربية العاربة والمستعربة والآرامية (السريان) والبيزنطيين والإيبيرايين خاصة، ثم الرفد الوفير من القبائل التركية والكردية، في المشرق، والبربر والإيبيريون والفاندال والفيزيغوت في الجناح الغربي. والعامل الارتكازي الأول، الذي يوحّد هذه الشعوب كلها، يتمثل في الإقرار الإجمالي بالسلطة المركزية -الإسلاميّة، وبالإسلام، كعقيدة دينية واجتماعية -ثقافية محورية.

وبهذا السياق يقول لويس غارديه: إنّ الجماعات غير المسلمة المرخّص لها العيش وسط أمّة النبيّ ظلّت ناشطة حتى القرن الثاني عشر للميلاد، وبعد ذلك انكمشت في وضع دفاع ذاتي: ففي القرن التاسع، وفي ظلّ السلطان الإسلامي، ظهرت دعوات قويّة إلى المزدويّة (أو المزدكيّة) ؛ كما أن المناظرات الإسلامية المسيحية كانت ناشطة بتشجيع واضح من الخلفاء أنفسهم. ومن جهة أخرى استقبل نصارى ويهود وصابئة من ذوي الكفاية في عدد كبير من ندوات "العلوم الإنسانية" في مجالس الخلفاء، التي سيكون لها أثر قوي في إرساء أسس ممتازة لحوارات عقائدية غاية في الأهمية والتأثير والروعة. وقد أدخلوا فيها، بفعل ذلك، قدْراً وفيراً من تأثيرات ماضيهم الثقافي. وستحدث عملية تمازج ذي عنصر إسلامي مهيمن، ولكن دون إهمال للمصادر النصرانية واليهودية والحنيفية وغيرها.

وللتدليل على الطبيعة الانفتاحية للمجتمع الإسلامي -العبّاسي، يؤكّد لويس غارديه أنّ هذا المجتمع هو الذي خصّص اليهود في تجارة المعادن الثمينة ثم في الهيئات المصرفية، وكذلك كانت المهن الضرورية لحياة الحاضرة ميسّرة لليهود والنصارى.. وكانت أكثرية الأطباء من اليهود النصارى، وهي مهنة محترمة فتحت لهم صدور البيوت، بصرف النظر عن دين وعقيدة أصحابها.

ولا يدخل في بحثنا هذا موضوعُ المناصب والمسؤوليات التي تقلّدها غير المسلمين) من مسيحيّن ويهود وصابئة) في الدول الإسلامية، إذ تناولته أقلام ودراسات كثيرة. نودّ فقط الإشارة هنا إلى الحريّة والتساهل والعطف التي تمتع بها أتباع تلك الديانات كما تشهد بذلك حوادث عديدة. فقد جرت مناقشات دينية في بلاط العبّاسيين بصورة واسعة، كذلك التي جرت في بلاط معاوية وعبد الملك .ومنها الدفاع العقائدي الذي قدّمه طيموثاوس بطريرك النساطرة في سنة 781م دفاعاً عن المسيحية أمام المهدي ولا يزال نصّه محفوظاً إلى اليوم. وتحفل المصنّفات والمؤلفات التاريخية الإسلامية بأخبار عن المناظرات الدينية، التي كانت تجري في مجالس الخلفاء وفي حلقات الأدباء والفقهاء والمتكلّمين.

وممّا يدلّ على المناخ الفكري والسياسي المتسامح في العهد العبّاسي أنّ وزراء مسيحيّين أُسندت إليهم مهمّات كبيرة، مثل عبدون بن صاعد، الذي يحكى أنه دخل على قاضي بغداد فقام له ورحّب به فأنكر الشهود ذلك. وكان للمتقي 940-944م) وزير مسيحي كما كان لأحد بني بويه وزير آخر (هو نصر بن هارون). وقد نال أمثال هؤلاء المسيحيّين من أصحاب المناصب العالية ما ناله زملاؤهم المسلمون من الإكرام والتبجيل والعزّ. وقد نشر أخيراً "براءة "منحها المكتفي سنة 1138م لحماية النساطرة. وهي توضح مدى العلاقات الوديّة بين رجال الدولة الإسلامية الاسميين وبين المسيحيين بعامّة. وقد كان رعايا الخلفاء العبّاسيين من المسيحيّين ينتمون بالأكثر إلى كنيستين) سريانيّتين) هما الكنيسة اليعقوبية والكنيسة النسطورية، وكانت أكثرية مسيحيي العراق من النساطرة فنال بطريركهم المعروف بالجاثليق حق السكنى في بغداد وجعلها مقرّاً لكرسيه. وقد نشأ حول مقر الجاثليق ببغداد المدعو بدير الروم حيٌّ للمسيحيّين عرف بدار الروم. وكان للجاثليق سلطة روحية على سبع أبرشيات أو مطرانيات منها أبرشية البصرة وأبرشية الموصل وأبرشية نصيبين. وكان المرشح المنتخب لمنصب الجثلقة يتسلّم من الخليفة "براءة" تسند إليه الزعامة الرسمية على مسيحيّيي الامبراطورية الإسلامية كلّها .وبالمقابل كان لليعاقبة دير ببغداد وأبرشية في تكريت غير بعيدة عن العاصمة .وقد أورد ياقوت أسماء نحو ستة أديرة من

أديرتهم كانت في الجانب الشرقي من بغداد غير الأديرة التي قامت في الجانب الغربي.

ومن أروع الأمثلة على الجوّ المتحرّر والمنفتح والمزدهر في ظلّ الخلفاء العبّاسيّين أنّ المسيحيّين السريان افتتحوا لهم في ذلك الحين مراكز تبشيرية في الهند والصين. وقد أنبأنا ابن النديم عن اجتماعه براهب في دار الروم ببغداد كان قد أنفذه الجاثليق مبشراً إلى الصين. وأنّ العمود الحجري المشهور في "سيان فو" بالصين الذي نصب سنة 781م تذكاراً لجهود سبعة وستين مبشّراً سريانياً، وانضمام الكنيسة الهندية وأتباع القديّس توما في مالابار بالقرب من مدراس إلى بطريركية بغداد لدليل على حيوية الكنيسة السريانية وغيرتها الدينية للتبشير بينما كانت تعيش في كنف المسلمين. ثم إنّ حروف الكتابة المتداولة اليوم عند المغول والمانشو قد تحدرت في الأصل عن أشكال كتابية مشتقة من الأبجدية السريانية التي حملها إلى تلك الأصقاع مبشّرون من رهبان النساطرة.

وقد لقي اليهود من محاسنة الخلفاء العبّاسيين مثل مالقيه المسيحيون مع مافي بعض الآيات القرآنية من تنديد بهم. والسبب أنّ الدولة كانت قويّة لاتخشى أذاهم، وكان لهم في الدولة مراكز هامة، خصوصاً في عهد المعتضد (892-902م .(وكان لهم في بغداد حيّ كبير ظلّ مزدهراً حتى سقوط المدينة. وقد زار هذا الحيّ بنيامين التطيلي حول سنة 1169م فوجد فيه عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً، منها واحد رئيس مزدان بالرخام المخطط ومطعّم بالذهب والفضة. وأفاض بنيامين في وصف الحفاوة التي لاقاها رئيس اليهود البابليين من المسلمين بصفته سليل بيت داود النبي ورئيس الملّة الموسوّية (ريش جالوثا في الآرامية) ، أو بصفته في الواقع كبير الحاخامات وزعيم جميع اليهود الذين يدينون بالطاعة للخليفة (في بغداد) والسلطة المركزية. وقد كان لرئيس الحاخامين هذا سلطات تشريعية وروحية هائلة على أفراد طائفته. وقد رُوي أنه كانت له ثروة ومكانة وأملاك وافرة، فيها الحدائق والبيوت والمزارع الخصبة .وكان إذا خرج للمثول في حضرة الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرّزة وعمامة بيضاء موشاة بالجواهر وأحاط به رهط من الفرسان، وجرى أمامه ساع يصيح بأعلى صوته "أفسحوا درباً لسيدنا ابن داود".

وقد مُنح الصابئة لمؤهلاتهم العقلية وخدمات بعض نوابغهم العلمية الحماية والرعاية التي لأهل الكتاب. ويأتي في مقدمتهم ثابت بن قره وغيره من علماء الفلك الحرّانيين، ومن اللامعين بين الصابئة البتّاني الفلكي وابن وحشية المنسوب إليه كتاب "الفلاحة النبطية". ولعلّ جابر بن حيّان الكيميائي الشهير كان منهم أيضاً. إلاّ أن الثلاثة الآخرين قد أسلموا.

وقد اقتضت المصلحة العليا للدولة والسياسة العملية -الواقعية لاحتساب الزرادشتيين كأنهم من الصابئيّين، وبذلك توسّع نطاق الذمة فشمل كلّ أهل إيران. وبذلك ظلت الديانة الزرادشتية (وكانت دين الدولة الإيرانية قبل الإسلام) وهياكلها بعد الفتح الإسلامي منتشرة لا في الأمصار الإيرانية فحسب بل في العراق والهند أيضاً.

وبقيت فارس بوجه عام خارج حظيرة الدين الإسلامي مدة طويلة بعد فتحها. ولايزال فيها إلى اليوم من أتباع زرادشت نحو تسعة آلاف شخص. وهناك بلاد كالجزيرة الفراتية ظلّت أغلبية سكّانها (إلى مابعد فتحها بخمسة أو ستّة قرون (نصرانية، في أعيادها وتقاليدها وأديرتها وكنائسها وثقافتها.

غير أنّ مايعنينا هنا بوجه خاص دور "المجالس" الأدبية والفلسفية والعلمية، التي كانت معْلماً ثقافياً رائعاً في ذلك العصر.

ففي مجالس ليلية، حرر ابن سينا(680-1037/م وهو محاط بتلامذة من طلبة الحكمة والعلم والطبّ، (الفيلسوف المعروف والطبيب الطاجيكي)، الوزير في بلاط همذان آنذاك، عدداً من فصول مؤلفه الكبير "الشفاء". ولاتنفك أخبار بغداد تذكر "المجالس"، التي شكلت لحمة "نشوار" التنوخي (أبو علي المحسن /الأديب والفقيه ت/994م)، كما أنّ التوحيدي (المتوفى في سنة 1010م) يتحدّث عنها بإعجاب عظيم في مؤلفه الشهير "الإمتاع والمؤانسة".

كانت المجالس تلتئم غالباً حول وزير أو أمير. ومن أشهرها في القرن العاشر مجلس الوزير ابن الفرات عدوّ الحلاّج. لكن ربمّا قام علماء غير موظفين بإنشاء مجالس أيضاً.

كانت" المجالس" تضم جنباً إلى جنب سياسيّين وقضاة ونحاة وكتاب وشعراء وفقهاء ومتكلمين وفلاسفة وعلماء، ودون تفريق بين أثرياء وفقراء. والشروط الحصرية كانت الثقافة والفطنة والأدب والمحاضرة والمناظرة. وكانت تتناول موضوعات متنوعة ولا يبهجها شيء قدر سرعة البديهة والجواب الفوري الموجز المقنع.

لم يكن من تفرقة في عرق أو دين أو طبقة أو لون. ففي القرنين (العبّاسيّين (التاسع والعاشر كان الشيعة والسنة يتناظرون ولا يتناحرون.. كان اليهود والمسيحيّون والصابئة والمزدّيون يؤمون المجالس الأرفع مقاماً دون خوف ولا وجل. وكان أمين مجلس أبي محمد المهلبي الشهير صابئياً. وقد حفظ لنا التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" تفصيلات شائقة

للمناظرة، التي اشتعلت في مجلس ابن الفرات بين النصراني أبي بشر متّى، (ابن يونس المنطقي) والمسلم أبي سعيد السيرافي النحوي المعروف. وكان للفيلسوف العربي المسيحي يحيى الكندي مجلسه الخاص، الذي كان يحفل بالمتأدبين والمتفلسفين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات والعقائد المختلفة.

والحقيقة أنّ الغالبية المطلقة (إنْ لم نقل كل) من الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة من أواسط آسيا إلى مشارف البرنس تحوّلت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظّمة لسبب طبيعي وهو أن شعوب هذه الثقافات تعرّبت، فكان طبيعياً أن تتحول ثقافاتها وأن لاتنتظر إلى أن ينظّم لها النقل والترجمة. وأهم هذه الثقافات حينئذ الهندية والفارسية واليونانية . وكانت الثقافة الهندية تصل إلى العرب عندئذ من ثلاثة طرق: طريق الفرس وماسقط إليهم منها من قديم وطريق اليمن وجنوب الجزيرة العربية (حيث الصلات التجارية الكثيفة) وعن طريق من دخلوا منهم حديثاً في الإسلام واندمجوا في عرب العراق وسواحل الخليج والجزيرة العربية. ومعروف أن جمهور الهنود يدينون بالهندوسية، والبوذية.. وأطلق العرب عليهم لقب "سُمّنية" من حيث الاعتقاد بأنهم لايؤمنون بشيء سوى الحس. وقد شاعت لفظة "الدهرية" كوصف لهذه العقائد والملل. وقد ناظرهم قديماً جهم بن صفوان (ت 745/128م رأس الفرقة الجهمية أو الجبرية)، وظلّ المعتزلة على نحو مايصوّرهم الجاحظ في كتابه "الحيوان "يردّون عليهم ردّاً عنيفاً، وهو مايدلّ على اعتناق بعض العرب تلك الأفكار والتصوّرات والعقائد. وقد تحدّت الشهرستاني مطوّلاً بهذا الشأن في موسوعته "الملل والنحل". وقدّم البيروني (أبو الريحان أصله من خوارزم/ عالم فلكي ورياضي وطبيب ومؤرّخ) أوصافاً دقيقة لطقوس وشعائر وعقائد أقوام الهند في كتابه الرائع "تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

ومن الطبيعي أن تتبادل هذه العقائد والملل التأثير فيما بينها، وأن تتشابه في مواضع ومعتقدات وتصورات عديدة. ومن ذلك نشير إلى تأثر المانوية -مثلاً -بزهد البوذيين وطرقهم في الزهد وتحريمهم ذبح الحيوانات.

وكانت الثقافة الفارسية الشعبية أبعد تأثيراً في المحيط العربي لهذا العصر، فقد دخل الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيراً من أساليبهم في المطعم والملبس وبناء القصور وتنظيم إدارة الدولة وترتيب الخدم والحشم، وآداب السلوك بين أيدي الملوك والرؤساء.

وكانوا يحتفلون معهم بأعيادهم، ويحكون عنهم قصصهم عن رستم واسفنديار وأخبارهم عن ملوكهم وحكمائهم (مثل بزرجمر). وكانت المجوسية ظلت حيّة بمعابد نيرانها ونحلها المختلفة من زرادشتية ومانوية ومزدكية، وماكانت تجتمع عليه هذه النحل من ثنويه أو اعتقاد بأنّ للعالم إلهين: إلهاً للنور وإلهاً للظلمة .وقد أصبح بعض العرب ثنوياً مانوياً على نحو ماكان صالح بن عبد القدوس وكان تأثير المزدكيّة في المجتمع العبّاسي أشدّ عمقاً وانتشاراً، ممّا يتوقعه المرء لتركيزها على مبادئ العدل الاجتماعي، والحث على المساواة والثورة على الظلم والاستعباد والاضطهاد، إضافة إلى ماقيل عن تساهلها في الميدان الاجتماعي وحياة اللهو والتمتع بالملذّات و(ربمّا أنّ هذه المسألة تهمة يراد منها النيل من المزدكية اجتماعياً وقيمياً وتنفير العامّة من دُعاتها ومناصريها).

ويرى عدد من الدارسين والمؤرخين أنّ تلاقحاً واسعاً حدث بشكل خاص بين العناصر الإسلامية والمسيحية في المجتمع العبّاسي، حيث نشأ جيل كبير أمهاته من المسيحيات، حاملاً ثقافتهن وكثيراً من طباعهن وعاداتهن وربما بعض معتقداتهن. وكان للمسيحيّة تأثير -من وجوه كثيرة- فقد كانت قبائل عربية كبيرة (مثل تغلب وطيء) على المسيحية؛ وكان مسيحيّو بغداد قد اختصوا بالصناعات المدنية الجديدة مندمجين في حياة الخلفاء والرعية؛ فمنهم كتّاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة. وكان لقسم منهم دور عظيم بالترجمة من وإلى اللغات اليونانية والسريانية والعربية.

وانتشرت في العصر العبّاسي الحلقات العلمية المختلفة. وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته الخاصة.. ومن أبرز الحلقات كانت حلقة المتكلمين لما يجري فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل .وكان يتحلّق كثيرون في حلقات اللغويين والنحاة، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابي الكوفي زهاء مائة شخص، وكثيراً ماكانت تحتدم المناظرات بين أصحابها على نحو مايُروى عن الأخفش من أنه تعرّض للكسائي في حلقة وسأله عن مائة مسألة محاوراً ومناقشاً مناقشات مستفيضة. وكانت هناك حلقات للفقهاء والمحدّثين والمفسّرين والنحويين وللشعراء والقصّاص وغيرهم.

وهذه الحلقات الكثيرة لم يكن يشترط للحضور فيها أي شرط سوى التزام قواعد السماع وآداب الحوار والمناظرة (التي جاء على ذكرها عدد من الأدباء والفقهاء والمتكلمين، وفي مقدّمتهم الغزالي.. ولنا مقالة في "الأسبوع الأدبي" حول هذه المسألة). والملاحظ كثرة العلماء والمتخصصيّن في كل علم وفن، حتى ليروى أنّ النضر بن شُميل تلميذ الخليل بن أحمد حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان شيّعه نحو ثلاثة آلاف شخص بين محدّث ونحوي ولغوي وإخباري. وإذا كانت البصرة قد اشتملت على هذا العدد الوفير من العلماء فإنه ممّا لا شك فيه أن بغداد كانت تضمّ منهم أضعاف ذلك.

والظاهرة الثانية تتمثّل بنشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوّعوا معارفهم تنويعاً واسعاً، إذ كانوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا مثقفي عصرهم، الذين يستطيعون التحدّث حديثاً شائقاً في كل صور المعرفة والثقافة. وكانت لهم حلقاتهم، التي يسوقون فيها من الجدال والحوار في أيّ شيء يعنّ لهم. وكانت لهم حظوة في مجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم. ولعلنا لا نتعدّى الحقيقة إذا قلنا إنّ ظهور هذه الطائفة وما حظيت به في المجتمع العبّاسي هو الذي جعل الجاحظ وغيره يحوّلون كتبهم الأدبية إلى دوائر معارف واسعة، فاستقرّ في الأذهان أنّ الأدب هو الأخذ من كل علم وفن بطرف.

وإذا كان الخلفاء ووزراؤهم قد أغدقوا على هذه الفئة كثيراً، فإنهم لم يحرموا شريحة العلماء المتخصصين، بل كثيراً ما كانوا يضفون عليهم عطاءاتهم الجزيلة، وجاراهم في ذلك الولاة وكبار القادة وكان أول من سنَّ ذلك وجعله تقليداً للدولة المهدي فإنه أكثر من مكافآته للعلماء كثرة جعلتهم يشدّون إليه الرحال من كل أنحاء الدولة، وتبعه في ذلك ابنه الرشيد. وكان المأمون سحابة عطاء وبذل للعلماء والفلاسفة والمتكلمين.

وليس من شك في أن هذا التشجيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلمية والفكرية، إذ كان من يبزغ نجمه في الحلقات لايلبث أن يستدعى إلى مقر الخلافة أو دار الولاية أو دور الوزراء، فإذا العطايا تنهال عليه وإذا الرواتب تفرض له شهرياً. وقد اتسعت في ذلك الحين صنعة الوراقة، وهي تشبه في هذا العصر الطباعة والنشر، وقد مضى العلماء حينئذ يفيدون منها، فاتخذوا لأنفسهم ورّاقين ينقلون عنهم كتبهم ويذيعونها في الناس. وكان مما دفع لرواج الوراقة تنافس كثيرين على اقتناء الكتب واتخاذ المكتبات، وقد أقامت الدولة منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هي "دار الحكمة" عُنيت فيها أشد العناية بالكتب المترجمة التي تحمل كنوز الثقافات الأجنبية، ولا ريب في أن هذه المكتبة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة. في هذا المناخ الثقافي المؤاتي أخذ كثيرون من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات، وكانوا يوظفون فيها بعض الورّاقين للنسخ، من ذلك مكتبة اسحق بن سليمان العبّاسي، وكانت تمتلئ بالكتب والأسفاط والرقوق والقماطير والدفاتر والمساطر والمحابر، وأضخم منها وأعظم مكتبة يحيى بن خالد البرمكي، إذ قيل إنه لم يكن في مكتبته كتاب إلاّ وله ثلاث نسخ، وربما فاق هذه المكتبة عظماً وضخامة مكتبة الواقدي المؤرّخ المشهور (المتوفى سنة 207هـ/786م)، وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، وكان له مملوكان يكتبان ليلاً ونهاراً. الأمر الذي يدلّ دلالة أكيدة على الأهمية القصوى، التي كان يولاها العلم والمعرفة والاطلاع على تجارب الأمم والثقافات الأخرى.

وقد حفظت لنا كتب التراث مجموعة رائعة من المناظرات والمحاورات، التي كانت تجري في مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والأعيان، على نحو مايروى من مناظرة الكسائي الكوفي واليزيدي البصري بين يدي المهدي ومايُروى من مناظرة الكسائي وسيبويه بين يدي الرشيد أو بين يدي يحيى بن خالد البرمكي. وكانت مجالس البرامكة ندوات كبيرة للمتكلمين والمتفلسفين من كل نحلة يتجادلون فيها ويتجاورون في كل مايعرض لهم من مسائل، وفي ذلك يقول المسعودي: "كان يحيى بن خالد البرمكي ذا بحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل، فقال لهم يحيى وقد اجتمعوا عنده: "قد أكثرتم الكلام في الكمون والظهور والقدم والحدوث والإثبات والنفي والحركة والسكون والمماسّة والمباينة والوجود والعدم والجوهر والطفرة والأجسام والأعراض والتعديل والتحوير والكمية والكيف والمضاف، والإمامة أنصٌّ هي أم اختيار وسائر ماتوردونه من الكلام في الأصول والفروع.. فقولوا الآن في العشق على غير منازعة، وليورد كل منكم ماسنح له فيه وخطر بباله".

وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة والاطلاع على ثقافات الأمم وآدابها ومعارفها، وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية والفلسفية وعلوم الأوائل والشعوب الأخرى، فحوّل مجالسه في دار الخلافة ببغداد إلى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة. وفي ذلك يقول يحيى بن أكثم: "أمرني المأمون أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم". ويمضي ابن أكثم فيقول: إنه لما انتهى ذلك المجلس طلب إليّ المأمون أنْ أنّوع مجالسه بحيث تكون لكل طائفة من العلماء مجلس. ويعرض طيفور في كتابه "بغداد" كثيراً من هذه المجالس وماطرح فيها من موضوعات مختلفة للجدل والمناظرة. ويصوّر المسعودي ماعاد على الحركة العلمية من هذه الندوات التي غدت كأنها مجمع علمي كبير، فيقول: "قرّب المأمون إليه كثيراً من الجدليين والنظّارين كأبي الهذيل العلاف وأبي اسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما، ممّن وافقهم وخالفهم، وألزم مجالسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأدباء وأقدمهم من الأمصار، وأجرى عليهم الأرزاق) الرواتب)، فرغب الناس في صنعة النظر وتعلمّوا البحث والجدل، ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيّد بها قوله".

وقد كُفلت الحرية الفكرية في هذه المجالس والندوات أو المجامع إلى أبعد حدود ممكنة، بحيث كان كل رأي يعرض للمناقشة العقلية الخالصة، بما في ذلك آراء الزنادقة، كما يذكر الجاحظ. فكلّ شيء يناقش في حرية، وكلّ شيء يعرض على بساط البحث والجدل.

وكان وراء مجلس المأمون ومجلس يحيى بن خالد البرمكي مجالس صغرى يجتمع فيها العلماء ويتجادلون ويتناظرون، من ذلك مجلس أيوب بن جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقد اجتمع فيه يوماً النظام وأبو شمر المتكلم؛ ومن ذلك مجلس أزدي بالبصرة، وفيه يقول صاحب "الأغاني" (أبو فرج الأصفهاني ت 356هـ/967م): "كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام: عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشّار الأعمى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبي العوجاء ورجل من الأزد، فكانوا يجتمعون في مجلس الأزدي ويختصمون عنده". ويتحدّث صاحب "النجوم الزاهرة ")ابن تغري بردي -أبو المحاسن /1409م-1469م) عن مجلس آخر في البلدة نفسها، فيقول: "كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يعرف مثلهم: الخليل بن أحمد صاحب العروض سُني، والسيد ابن محمد الحميري الشاعر شيعي، وصالح بن عبد القدوس ثنوي، وسفيان بن مجاشع صُفْري، وبشار بن برد خليع ماجن، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودي، وابن نظير النصراني متكلم، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسي، وابن سنان الحرّاني الشاعر صابئي، فتتناشد الجماعة أشعاراً وأخباراً".

ومن المؤلفات التاريخية والمصنّفات الأدبية ندرك كيف كان يلتقي أصحاب الملل والنحل والأهواء المختلفة في المجالس، وكيف كانوا يثيرون من المسائل التي تتصل بأهوائهم للمتفلسفة والمتكلمين، ويقال إنّ مجلس يوحنّا بن ماسويه "كان أعمر مجلس بمدينة بغداد لمتطبب أو متكلم أو متفلسف إذ كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب" وكان تلاميذه يقرؤون عليه في هذا المجلس كتب المنطق لأرسطاطا ليس وكتب جالينوس في الطب. وعلى شاكلة مجلسه مجلس حنين بن اسحق. ويقال إنّ المأمون رسم له على كل كتاب ينقله إلى العربية أن يأخذ وزنه ذهباً. وكانت لابن أبي داؤد المعتزلي مستشار المأمون والمعتصم والواثق ندوة كبيرة يحضرها من كبار المترجمين والأطباء سلمويه وابن ماسويه وبختيشوع بن جبريل.

كانت المعرفة والثقافة في كل مكان تقريباً، فأبواب المساجد مفتوحة على مصاريعها لكلّ الورادين ومثلها دكاكين الورّاقين، وكان التعلم مجاناً من حق الجميع .وكان لذلك آثار بعيدة، فإن جمهور العلماء والشعراء لهذا العصر كانوا من أبناء العامّة، ويكفي أن نعرف أنّ أعلام الشعر حينئذ وهم بشّار بن برد وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو تمّام كانوا جميعاً من الطبقة الدنيا في الشعب، فبشّار كان أبوه طيّاناً، وأبو نواس كانت أمه غازلة للصوف ومن هذا الغزل كانت تعوله، وأبو العتاهية كان في صغره يحمل الخزف والجرار على ظهره في شوارع الكوفة يبيعها للناس، وكان أبو مسلم حائكاً، أمّا أبو تمام فكان أبوه عطّاراً؛ وكذلك كان العلماء في جميع فروع العلم، بل كان

منهم من يجمع بين علمه وحرفته التي نشأ فيها مثل أبي أحمد التمّار وشعيب القلاّل الذي كان يصنع فعلاً القلال، وهما من المتكلمين. وكان أكثر العامّة يصيبون حظوظاً مختلفة من الثقافة، إذ لم يكن بينهم وبينها أي حجاب ولا أي حاجز، ومن خير مايصوّر ذلك أن نرى الجاحظ يقول: "وسألت بعض العطارين من أصحابنا المعتزلة. وكأن العطارين كانوا أقساماً منهم من يتبع المعتزلة ومنهم من يتبع غيرهم ولابدّ أن كان مثلهم بقية التجار وأصحاب الحرف، فهم يناصرون هذا المذهب أو ذاك، وهم يناصرون هذا الأستاذ أو ذاك ولكل أستاذ أتباعه لا من أوساط المثقفين فحسب، بل من العامة أيضاً، وبذلك نفهم قول صاحب "النجوم الزاهرة" عن النظّام ونشاطه في الدعوة لآرائه الاعتزالية ببغداد إذ يقول: "وفي سنة 220 (للهجرة الموافقة لسنة 799ميلادية) ظهر إبراهيم النظام وقرر مذهب الفلاسفة وتكلم في القدر، فتبعه خلق". ويستنكر الجاحظ تعرّض العامة لمناقشة الملحدين في آرائهم المتطرّفة لعدم إحاطتهم الدقيقة بتلك الآراء وما ينقضها نقضاً من الأدلة، فيقول: "ومن البلاء أنّ كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم وأنه ليس أحد أحق بمحاجّة الملحدين من أحد".

وليس من شك في أنّ ذلك كان ثمرة ازدهار التفاعل الثقافي والانفتاح الفكري والتسامح المذهبي -العقائدي في العصر العبّاسي، ممّا أسهم في بروز صفوة من العلماء والأدباء كان جمهورها من أبناء العامّة قادت الحركتين الأدبية والفكريّة قيادة خصبة باهرة، إذ استطاعت أن تكيّف كلّ مانقل إلى العربية من ثقافات متباينة وأن تضيف إليها من واقعها الخاص وتجربتها الذاتية مادعم حضارتنا دعماً عظيماً، فبلغت أوج الازدهار والرفعة والسموّ.

الأغراض الشعرية في العصر العباسي

المديح

نظم العباسيون في المديح الذي هو من الموضوعات القديمة التي نظم فيها الجاهليون والإسلاميون ، وبذلك أبقوا للشعر العربي شخصيته الموروثة ودعموها بما لاءموا بينها وبين حياتهم العقلية الحصينة وأذواقهم المتحضرة المرهفة ، فإذا المديح يتجدد من جميع أطرافه تجددا لا يقوم على التفاصل بين صورته القديمة وصورته الجديدة ، بل يقوم على التواصل الوثيق.

تعريف المديح

المديح ثناء حسن يرفعه الشاعر إلى إنسان حيّ أو جماعة أحياء ، عرفانا بالجميل أو طلب للنوال ، أو رغبة في الصفح والمغفرة ، أو تمجيدا لقيم إنسانية تتجسد في سلوك قائد أو أمير ، أو شخصية تاريخية فذة مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي مدحه الشعراء من حسان بن ثابت إلى أحمد شوقي إلى غيرهما من الشعراء في الوقت الحاضر.

ويندرج في مجال المدح هاشميات الكميت ، والمدح السياسي الذي قاله الشعراء في الأحزاب السياسية التي شهدتها مرحلة الصراع على الخلافة في أوائل العهد الأموي وبدايات العهد العباسي.

تطور المديح في العصر العباسي

نستهل الحديث عن المدح بقول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في وصفه لزهير بن أبي سلمى والذي استحسنه قدامة بن جعفر وفيه يقول " إنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال " وعقب قدامة على ذلك " فإنه في هذا القول إذا فهم وعمل به منفعة عامة ، وهي العلم بأنه إذا كان الواجب أن لا يمدح الرجال إلا بما يكون لهم وفيهم ، فكذا يجب ألا يمدح شيء غيره " ثم ينتقل قدامة إلى ذكر فضائل مدحهم ، فيحددها في أربعة أنواع هي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، مبينا أن المادح للرجال بهذه الخصال تعد مدائحه صائبة ، بخلاف المادح بغيرها فهو مخطئ ، ثم وضح بأن الفضائل الأربعة قد لا تجتمع مرة واحدة للشاعر المادح ، ولهذا يجوز له أن يقصد بعضها دون بعضها الآخر.

ونتيجة للتطور الذي طرأ على الحياة العباسية من جهة ، ونظرة الناس إلى ما يجب أن تكون عليه الحياة الفنية التي هي وليدة الحياة العامة ، فإن نظرة المادح والممدوح وموقفهما من تلك المقاييس أصبحت هي أيضا متطورة ومتغيرة ، وبذلك لم يعد الشعراء في العصر العباسي الأول يتقيدون بتلك المقاييس التي تحدث عنها قدامة بن جعفر إلا أن هذا لا يعني أنهم تخلوا عنها تماما ، لأن شعر المديح في هذا العصر قد شهد تطورات استدعت تغيرات في شكل القصيدة ومضمونها.

وفيما يلي أهم التطورات الحادثة على قصيدة المديح في العصر العباسي:
كان المديح في العصر العباسي ذا طابع تكسبي ، فقد إستطاع أغلب الشعراء أن يرسموا لشخصية الممدوح صورة رائعة تتسم بجميع الصفات الحسنة والقيم النبيلة ، وذلك كان يرضى غرور الممدوحين لأنه بمثابة الإعلام المسيّس والموجه ، الذي يخدم الممدوح خاصة إذا كان من الطبقات السياسية العليا ، ولا يثير غضب الناس عليه ولا على سياسته ، ومن هذا المنطلق كان الممدوحون يغدقون الأموال على الشعراء ، وينادمونهم ويقربونهم ، تذكر المصادر أن مروان بن أبي حفصة

مدح المهدي فاستهل مدحته برقيق الغزل فقال:

طرقتك زائرة فحيّ خيالها ☐ بيضاء تخلط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستقاد ومثلها ☐ قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

ثم يصل مروان بن أبي حفصة إلى لب القصيدة وفكرتها:

هل تطمسون من السماء نجومها ☐ بأكفكم أو تسترون هلالها .

أو تجحدون مقالة عن ربكم ☐ جبريل بلغها النبيّ فقالها .

شهدت من الأنفال آخر آية ☐ بتراثهم فأردتهم إبطالها

فيزحف المهدي من صدر مصلاه حيث كان جالسا حتى صار على البساط إعجابا بما سمع ، ثم يقول لمروان : كم هي ؟ فيقول مائة بيت ، فيأمر له بمائة ألف درهم فكانت أول مائة ألف أعطيها شاعرا في أيام العباسيين.

التزموا بنظام القصيدة القديمة في أكثر الأحيان ، ولكنهم غيروا من رمزية هذه الأركان ، فاستبقوا على الأطلال والرحلة في الصحراء غير أنهم اتخذوها رمزا، أما الأطلال فلحبهم الداثر وأما رحلة الصحراء فرحلة الإنسان في الحياة.

ومثاله قول مسلم بن الوليد:

هلا بكيت ظعائنا وحمولا ☐ ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

فإذا زجرت القلب زاد وجيبه ☐ وإذا حبست الدمع زاد همولا

وإذا كتمت جوى الأسى بعث الهوى ☐ نفسا يكون على الضمير دليلا

واها لأيام الصبا وزمانه ☐ لو كان أمتع بالمقام قليلا

النداء بالتخلي عن المقدمات التقليدية بل بدلت بالفعل مقدمة البكاء على الأطلال أو مقدمة النسيب التقليدي أو سواها بمقدمات وصف الخمرة ومجالس للهو والعبث والتغزل المتهتك ، ولم يتوقف تطور قصيدة المدح عند هذا الحد ، بل تعداه إلى عنصر الرحلة حيث استعاض الشعراء عن وصف الناقة والصحراء وحيوان الوحش بالحديث عن الرحلة البحرية ووصف السفينة وأهوال البحر ، وأحيانا يقدمون مدحتهم بوصف الرياض في الربيع.

فمثال المقدمة الخمرية والنداء بالتخلي عن المقدمة الطللية قول أبي نواس:

قل لمن يبكي على رسم درس □ واقفا ما ضر لو كان جلس

تصف الربع ومن كان به □ مثل سلمى ولبينى وخنس

ومثال وصف الرحلة البحرية ووصف السفينة قول مسلم بن الوليد:

كأن مدب الموج في جنباتها □ مدب الصبابين الوعاث من العفر

كشفت أهاويل الدجى عن مهولة □ بجارية محمولة حامل بكر

لطمت بخديها الحباب فأصبحت □ موقفة الديات مرتومة النجر

إذا أقبلت راعيت بقنة قرهب □ وإن أدبرت راقت بقادمتي نسر

ومثال وصف الرياض في الربيع قول أبي تمام:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر □ وغدا الثرى في حليه يتكسر

نزلت مقدمة المصيف حميدة □ ويد الشتاء جديدة لا تكفر

لولا الذي غرس الشتاء بكفه □ لاقى المصيف هشائما لا تثمر

كان المديح موجها للطبقات العليا من الخلفاء والوزراء والولاة والقادة ،ولم يكن يهتم بالطبقات العامة إلا نادرا.

وقد أسهم كثير من الشعراء في الدفاع عن العباسيين وخلافتهم من خلال مدائحهم ، من بين هؤلاء مروان بن أبي حفصة ، السيد الحميري ، أبو دلامة ، سلم الخاسر وأبو نخيلة الذي يقول في السفاح:

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا □ وقام من تبر النبيّ الجوهر

أقبل بالناس الهوى المشهر □ وصاح في الليل نهار أنور

يقول أشجع السلمي مادحا هارون الرشيد:

إلى ملك يستغرق المال جوده □ مكارمه نثر ومعروفه سكب

ومازال هارون الرضا بن محمد □ له من مياه النصر مشربها العذب

متى تبلغ العيس المراسيل بابه □ بنا فهناك الرحب والمنزل الرحب

يقول الأصفهاني (كان هارون الرشيد يحتمل أن يمدح بما تمدح به الأنبياء فلا ينكر ذلك ولا يرده)

المدح بالمثالية الخلقية ومثالية الحكم : مضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى المثالية الخلقية من سماحة وكرم وحلم وحزم ومروءة وعفة وشرف نفسه وعلو همة والشجاعة والبأس ، مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التي لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كانوا صوتا قويا لها ، صوتا ما يني يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم.

يقول منصور النمري في هارون الرشيد:

بورك هارون من إمام … بطاعة الله ذي اعتصام

له إلى ذي الجلال قربى … ليست لعدل ولا لإمام

ويقول أبو العتاهية فيه أيضا:

وراع يراعي الله في حفظ أمة … يدافع عنها الشر غير رقود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها … مفارقة ليست بدار خلود

ويقول أبو نواس مادحا هارون الرشيد كنموذج الحاكم العادل:

إلى أبي الأمناء هارون الذي … يحيا بصوب سمائه الحيوان

في كل عام غزوة ووفادة … تنبت بين نواهما الأقران

هارون ألفنا إئتلاف مودة … ماتت لها الأحقاد والأضغان

متبرج المعروف عريض الندا … حصر بلا منه فم ولسان

كانت قصيدة المديح أحيانا بمثابة رسائل توجيهية للحاكم ليصلح من حال رعيته، ومثاله مدح أبي العتاهية لهارون الرشيد وتبليغه في مدحته مأساة اجتماعية فيقول:

من مبلغ عني الإما … م نصائحا متواليه

إني أرى الأسعار أسـ … عار الرعية غالية

وأرى المكاسب نزرة … وأرى الضرورة غاشية

وأرى اليتامي والأرا … مل في البيوت الخالية

من بين راج لم ينزل … يسمو إليك وراجية

يا ابن الخلائف لا فقد … ت ولا عدمت العافية

إن الأصول الطيبا … ت لها فروع زاكية

ألقيت أخيارا إليـ … ك من الرعية شافية

ونصيحتي لك محضة … ومودتي لك صافية

التكرار

لقد بلغ تأثر الشعر بالغناء والإيقاع والموسيقى في هذا العصر مبلغه حتى أصبحنا نجد ظاهرة التكرار على مستوى الألفاظ أو الجمل أو الأشطر كما في قول بشار بن برد في هجاء أحد الأشخاص:

ذر خلّتنا ذر خلّتنا يا ابن خليق قد أتى فبشار يوظف التكرار صوتيا ولذلك دلالة جمالية ونفسية كبيرة.

أصبح الهجاء يقتصر على مقطوعات قصيرة ، يقول مصطفى هدارة " ولعل أول ما نلحظه في شعر الهجاء في القرن الثاني اقتصاره على المقطوعات الصغيرة " وهذا يعود إلى تطور الحياة ومتطلبات العصر التي فرضت على الشعراء الإيجاز لا في الهجاء فقط بل في مختلف الأغراض والموضوعات.

التصوير الكاريكاتوري

يعتبر الهجاء الساخر التطور الفني الذي لحق الهجاء الذي يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه، فهو يرسم شخصية المهجو المعنوية والحسية رسما كاريكاتوريا يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر في هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره ، وبجميع عناصر الفكاهة والهزل الشائعة بين الناس ، وهذه الصور الشعرية الساخرة تشكل الأساس الرئيسي لمدرسة الصورة الشعرية الساخرة التي ازدهرت عند ابن الرومي بحيث عرفت به ونسبت إليه والواقع أن فضلا كبيرا في أصلها يرجع إلى دعبل لخزاعي الشاعر الرسام الساخر الهجاء الفنان.

ومثال ذلك قول منصور الأصفهاني في من اسمه مغيرة:

وجه المغيرة كله أنف □ موف عليه كأنه سقف
من حيث ما تأتيه تبصره □ من أجل ذلك أمامه خلف

ومثاله أيضا هجاء دعبل جاره الذي سرق ديكه وأكله هو وعياله ثم أنكر ذلك ، فشهّر به دعبل في المسجد بهذه الأبيات الساخرة المضحكة المتحركة:

أسر المؤذن صالح وضيوفه □ أسر الكميّ هفا خلال الماقط
بعثوا عليه بنيهم وبناتهم □ من بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا □ خاقان أو هزموا كتائب ناعط
نهشوه فانتزعت له أسنانهم □ وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

فالهجاء الساخر يعتبر طريقة تعبيرية متطورة لنقد الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفردية ، وهو بذلك محاولة إلى تجاوزها إلى ما هو أفضل وذلك بالإصلاح والتغيير وكشف الزيف ومواجه التشوه.

الرثاء

ظل شعر الرثائي منذ الجاهلية كباقي الأغراض الأخرى مواكبا لركب الحياة يتطور ويتجدد تبعا لتطورها وتجددها ، فلما دانت الرقاب لبني العباس اقتفى شعراؤهم نهج أسلافهم من شعراء أمية في مراثيهم التي كانوا يجمعون في أكثرها بين التهنئة والتعزية

ومن الشعراء العباسيين الذين تحقق لهم الجمع بين التهنئة والتعزية أبو نواس الذي يعزي الفضل بن ربيع عن الرشيد ويهنئه بالأمين:

تعز أبا العباس عن خير هالك بأكرم حيّ كان أو هو كائن

حوادث أيام تدور صروفها لهن مساو مرة ومحاسن

وفي الحي بالميت الذي غيّب الثرى فلا الملك مغبون ولا الموت غابن

ومن بين المواضع التي أكثر فيها الشعراء العباسيون من نظم الشعر الرثائي موضوع رثاء الخلفاء والوزراء والقادة حيث أبنوهم بمرثيات تعد من روائع الشعر العربي ، أتوا فيها على ذكر أعمالهم الحميدة وبطولاتهم الفذة ومحنة الأمة في فقدانهم ، كما يعد بكاء الرفقاء والأصدقاء والأبناء والآباء والأمهات والأزواج من المواضيع التي شغلت حيزا كبيرا في أشعارهم .

يرثى أبو الشيص هارون الرشيد بمرثية عجيبة يقول فيها

غربت في المشرق الشمـ ـس فقل للعين تدمع

ما رأينا قط شمسا غربت من حيث تطلع

ومن أمثلة المراثي التي قيلت في القادة مرثية أبي تمام التي رثى فيها محمد بن حميد الطوسي قائد جيش المأمون يقول فيها:

أصم بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح معنى الجود بعدك بلقعا

فتى كلما ارتاد الشجاع من الرّدى مفرا غداة المأزق إرتاد مصرعا

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى فخانك حتى لم يجد فيه منزعا

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة فقطعها ثم انثنى فتقطعا

ورثى عبد الله بن أيوب التيمي البطل منصور بن زياد البطل قضى على ثورة بالقيروان لعهد الرشيد فقال:

أما القبور فإنهن أوانس بجوار قبرك والديار قبور
والناس مأتمهم عليه واحد في كل دار رنّة وزفير
عجبا لأربع أذرع في خمسة في جوفها جبل أشم كبير

ويقول منصور النمري فر رثاء يزيد بن مزيد الذي فتك بخوارج الموصل:

وإن تك أفنته الليالي وأوشكت فإن له ذكرا سيفني اللياليا

وواضح ما في هذه الأشعار من دقة التفكير وبعد الخيال ولا عجب إذ كانوا يتنافسون في استنباط المعاني النادرة.

ومن مراثي الرفقاء والأصدقاء : رثاء بشار لأحد أصدقائه من الزنادقة:

اشرب على تلف الأحبة إننا جزر المنية ظاعنين وخفضا
ويلي عليه وويلتي من بينه كان المحب وكنت حبا فانقض
قد ذقت ألفته وذقت فراقه فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا

ونجد الرثاء عند أبي العلاء المعري عبارة عن وقفة تأملية يشترك فيهما العقل والعاطفة والخيال ، وأروع قصائده في هذا الغرض تلك التي رثى بها أبا حمزة، وهو الفقيه الحنفي وكان عزيزا عليه فقال في مطلعها:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ، ولا ترنم شاد
صاح هذي قبورنا تملأ الرحـ ـب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد
ربّ لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين في طويل الأزمان والآباد
تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

وبعد مقدمات في ذكر الحكم والعبر ، شرع في ذكر خصال الفقيد ومما قاله:

قصد الدهر من أبي حمزة الأواب مولى حجى وخدن اقتصاد
أنفق العمر ناسكا يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد
ذا بنان لا تلمس الذهب الأحمر زهدا في العسجد المستفاد

وظهرت ضروب جديدة للرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر كرثاء المدن فهذا ابن الرومي(255 هـ) يرثي مدينة البصرة عندما أغار عليها الزنج فنهبوها وأحرقوها فقال واصفا تلك الفضائع :

ذاد عن مقتلي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

أي نوم من بعدما حل بالبصرة ما حل من هنات عظام

أي يوم من بعدما انتهك الزنج جهارا محارم الإسلام

حتى يقول:

كم أخ قد رأى أخاه صريعا ترب الخدين بين صرعى كرام

كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو يعلى بصارم صمصام

كم فتاة مصونة قد سبوها بارزا وجهها من غير لثام

ومن ضروب الرثاء الجديدة مراثي الطير الصادح مثل القمري والحيوانات المستأنسة والأحصنة ، فقد رثى ابن الزيات فرسا له أشهبا لم ير مثله فراهة وحسنا أخذه منه المعتصم فقال:

كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنا فودعنا الأحمّ الأشهب

منع الرقاد جوى تضمنه الحشا وهوى أكابده وهم منصب

وتعتبر المعاني الحضارية التي أدخلت في الرثاء إحدى مظاهر التجديد التي عرفها هذا الغرض كالذي نراه في رثاء المغنين وأهل اللهو حيث شاعت فيهم معان لم يألفها الرثاء من قبل ، فبينما كان يرثى قديما بصفات النجدة والمروءة والكرم والشجاعة وما إلى ذلك من الصفات، أصبح بعض الناس في بغداد يرثي بمثل ما رثى به ابن سيابة إبراهيم الموصلي فيقول :

تولى الموصلي فقد تولت بشاشات المزاهر والقيان

وأي بشاشة بقيت فتبقى حياة الموصلي على زمان

ستبكيه المزاهر والملاهي وتسعدهن عاتقة الدنان

الوصف

إن التطور الذي عرفه الوصف في العصر العباسي استهدف أسلوبه ومعناه ولفظه ، إلا أن هذا لا يعني أن موضوع الوصف قد تخلص كلية من الطريقة التقليدية ، بل لبث في بعض نواحيه يساير مواضيع الوصف القديم كوصف الإبل والنياق والذئب والطير والبقر الوحشي وغيرها.

والشاعر في هذا الغرض بعد أن كان يحلق ببصره في ربوع تهامة ونجد والجزيرة وما تحويه من فيافي وقفار و وهاد موحشة ومظاهر أخرى هي وليدة البيئة العربية الخالصة كالخيام المضروبة هنا وهناك، وما كان يحيط بها من شياه وخيول ،أصبح بعد التحول الذي طرأ على المجتمع العربي المتنقل من حياة البداوة و الترحال إلى حياة التمدن والاستقرار ، يرفل في ألوان المدنية وينعم بضروب الترف والبذخ ، ويلهو بمسرات الدنيا وطيباتها.

وقد تعرض ابن الرشيق في أثناء حديثه عن الوصف الذي قال عنه بأن أكثر الشعر يرجع إليه ، إلى تفاضل الناس في الوصف وإلى أهم موصوفاته أو موضوعاته على عهد المولدين فقال " الأولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما مشاكلها وما كان مناسبا لهما كالكؤوس والقنان والأباريق ،و باقات الزهر، إلى مالا بد منه من صفات الخدود والقدود و... ، ثم صفات الرياض والبرك والقصور وماشاكل المولدين ، فإن ارتفعت البضاعة ، فصفات الجيوش وما يتصل بها من ذكر الخيل والسيوف والرماح والدروع والعصي والنبل ، إلى نحو ذلك من ذكر الطبول والبنود وليس يتسع بنا هذا الموضوع لإستقصاء ما في النفس من هذه الأوصاف – العمدة لابن الرشيق ج2 ، ص 295-296.

ثم يقول ابن الرشيق " وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها والقفار ومياهها .... لرغبة الناس في ذلك الوقت عن تلك الصفات، وعلمهم أن الشاعر إنما تكلفها تكلفا ليجري على سنن الشعراء قديما. "

ومن الموضوعات التي دار حولها الوصف عند أكثر من شاعر في هذا العصر وصف الخمر والغناء ووصف مجالسهما وآلاتهما، وجاهروا بالدعوة إلى ممارسة ذلك وبالغوا في الأمر مما نجم عنه الاستهتار بالدين.

فأبو نواس جاهر بالخمر والدعوة إليها فيقول:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ␣ ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

فعيش الفتى في سكرة بعد سكرة ␣ فإن طال هذا عنده قصر العمر

وما الغبن إلا أن تراني صاحيا ␣ وما الغنم إلا أن يتعتعني السكر

فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى ␣ فلا خير في اللذات من دونها ستر

وقال في قصيدة أخرى:

لا تبك هندا ولا تطرب إلى كعب ␣ واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأسا إذا انحدرت من حلق شاربها أجدته خمرتها في العين والخد
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة من كف لؤلؤة ممشوقة القد
تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فمالك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدي

وأخذ الشاعر العباسي يصف الطبيعة في الحاضرة ببساتينها ورياحينها ، وقد أخذ يخص هذه الطبيعة بمقطوعات وقصائد كثيرة حيث أصبحت موضوعا جديدا واسعا ، وكان يمزج نشوته بها في بعض الأحيان بنشوة الحب أو نشوة الخمر وسماع القيان وفي كثير من الأحيان كان يقف عند تصوير فتنته بها وبورودها ورياحينها من مثل قول إبراهيم بن المهدي في النرجس:

ثلاث عيون من النرجس على قائم أخضر أملس
يذكرنني طيب ريّا الحبيب فيمنعنني لذة المجلس

وقد أكثروا من وصف الأمطار والسحب ووصف الرياض خاصة في الربيع ، وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف ، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن اياس لنخلتي حلوان:

أسعداني يا نخلتي حلوان وأبكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـ رق بين الألاف والجيران
ولعمري لو ذقتما ألم الفر * قة أبكاكما الذي أبكاني
أسعداني وأيقنا أن نحسا سوف يلقاكما فتفترقان
كم رمتني صروف هذي الليالي بفراق الأحباب والخلاّن

ونرى شعراء كثيرين يعنون بوصف مظاهر الحضارة العباسية المادية وما يتصل بها من الترف في الطعام والتأنق في الملابس والثياب ووصف القصور وما حولها من البساتين وما يجري فيها من الظباء والغزلان من مثل قول أبي عيينة المهلبي في وصف قصر ابن عمه عمر بن حفص المهلبي:

فيا طيب ذاك القصر قصرا ومنزلا بأفيح سهل غير وعر ولا ضنك
بغرس كأبكار الجواري وتربة كأن ثراها ماء ورد على مسك
وسرب من الغزلان يرتعن حوله كما استل منظوم من الدّر من سلك

وأكثروا من وصف الحيوان والطير والحشرات ، واشتهر بذلك خلف الأحمر وجهم بن خلف وفي كتاب الحيوان للجاحظ من ذلك مادة وافرة.

وقد وضعوا وصف دقيقا الأمراض والآفات التي أصابتهم . فهذا عبد الصمد بن المعذل يصف حمى اعترته فيقول:

وبنت المنية تنتابني غدوّا وتطرقني سحرة
كأن لها ضرما في الحشا وفي كل عضو لها جمرة

وقد صوروا كثيرا من العواطف الدقيقة من ذلك التعاطف الرفيق بين الأب وبنيه وبناته وما يطوى فيه من الرحمة والبر والحنان ، و مثال ذلك تصوير ووصف ابن يسير عطفه على بنية له ، كيف يستأثر به ويجشمه اقتحام المصاعب من أجل سعادتها ، وكيف يحببه في الحياة خوفه عليها من ذل اليتم وجفوة الأهل، وأنه ليشفق عليها حتى من الدموع التي سترسلها حين يتأهب لمفارقة الحياة فيقول:

لولا البنية لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني جرت لعبرة بنتي عبرتي بدم

وحللوا كثيرا من المشاعر كالغيرة والشعور بالبؤس والمصغبة.

الغزل

الغزل فن وأدب وجداني وظيفته التعبير عن الأحاسيس في عالم الحب دون سواها من المواضيع الأخرى.

وقد أراح ابن رشيق القيرواني الدارسين من مشقة الخلاف بينهم في التسميات فقال " والنسيب والغزل والتشبيب كلها معنى واحد"

والغزل يعد غرضا من أغراض الشعر العربي ، برز منذ العصر الجاهلي في اتجاهين رئيسيين هما : الغزل الحسي والغزل العفيف.

فالأول أي الغزل الحسي ازداد شيوعا في العصر العباسي الأول ، وكثر أتباعه الذين أفرطوا في اللهو والمجون لكثرة الجواري والإماء ، ووفرة مختلف أسباب القصف والعبث مما جعل شعرهم يعكس مدى التدهور الأخلاقي في تلك البيئة المريضة، وأمثالهم : أبو نواس ، بشار بن برد ،مطيع بن اياس والحسين بن الضحاك ومسلم بن الوليد وغيرهم.

الغزل العفيف : وهو عكس التيار الأول في مضمونه واتجاهاته، نبتت جذور شجرته في الجاهلية ثم ترعرعت في العصر الأموي ، فلما كان العصر العباسي الأول الذي يندر أن تعثر فيه على شاعر عفيف وطاهر ، انحصرت بقايا هذا الفن في شعر خمسة من الشعراء ذوي الشهرة في هذا الغرض وهم : العباس بن الأحنف زعيم هذا الفن وعكاشة بن عبد الصمد العميّ ، والمؤمل ابن جميل الشاعر عم مروان بن أبي حفصة ، وابن رهيمة وعلى بن أديم الكوفي.

الغزل الحسي

لعبت البيئة العباسية الفاسدة في أكثر مظاهرها الاجتماعية دورا خطيرا في إشاعة تيار الغزل الحسي الفاحش ونشره ، فلولا الانحلال الخلقي الذي أدى بالمرأة الجارية الأمة على الخصوص إلى الكشف عن مفاتنها لما تجرأ الشعراء ولا سيما المتعودون منهم على السقوط في مراتع الإثم والفجور إلى فضح المرأة ونهش ما كان يعد منها أساس وجودها وعفافها (انظر الأغاني وما يصوره على سبيل المثال)

ومن أمثلة الشعر الذي يكشف عن حقيقة المرأة الجارية وكيف كانت تجري وراء الرجال من أجل ايقاعهم معها في الفواحش قول مطيع بن إياس التي كان يألف " بربر " صاحبة الجواري ، التي كانت ترسل جواريها ومن بينهم جوهر الجارية لتفسد عسكر المهدي فقال:

خافي الله يا بربر   لقد أفسدت العسكر

بريح المسك والعنبر   وظبي شادن أحور

وجوهر دره الغوا   ص من يملكها يجبر

فلا والله ما المهدي   أولى منك بالمنبر

فإن شئت ففي كفيـ   ك خلع ابن أبي جعفر

والمتتبع لأخبار الغزل الماجن في كتاب الأغاني يقف عند أخبار وأشعار متنوعة تكشف عن حقيقة هؤلاء الشعراء المجان الذين كانت لهم العديد من الرفيقات الماجنات من الجواري والإيماء يتغزلون بهنّ تغزلا ماديا فاحشا دون أن تدفعهم تلك العلاقة إلى الحب الصادق.

وهذا بشار بن برد يقول داعيا صراحة إلى الفحش:

لا خير في العيش إن كنا كذا أبدا   لا نلتقي وسبيل الملتقى نهج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

الغزل العفيف

يعد العباس بن الأحنف إمام الغزل العفيف، فهو الذي أحيا هذا النوع من الشعر بعد أن كاد يندثر.

ومما يدل على تخصص الشاعر في هذا الفن وعدم تجاوزه إلى الأغراض الأخرى قول الجاحظ : لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم كلاما وخاطرا ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما نعلم شاعرا لزم فنا واحدا لزومه فأحسن فيه وأكثر.

إن القارئ لديوان الشاعر يدرك بأنه لم يقل شعرا إلا في محبوبة واحدة هي فوز ، أما ظلوم و" دلفاء " فليس لهما حظ في الديوان فقد ذكرهما مرة أو مرتين ، فهما على ما يظهر صفتان في الغالب أطلقهما على محبوبته فوز التي تغزل فيها تغزلا عفيفا ، ويتضح ذلك من قوله:

وما بيننا من ريبة فنراقبها ▢ ولا مثلها يرمى بسوء ولا مثلي
وإني لأرعى حق فوز وأتقي ▢ عليها عيون الكاشحين ذوي الختل
وإني وإياها كما شفنا الهوى ▢ لأهل حفاظ لا يدنس بالجهل

وقوله أيضا:

قالت ظلوم سمية الظلم ▢ مالي رأيتك ناحل الجسم
يا من رمى قلبي فأقصده ▢ أنت العليم بموضع السهم

وقوله أيضا:

لا جزى الله دمع عيني خيرا ▢ وجزى الله كل خير لساني
نمّ دمعي فليس يكتم شيئا ▢ ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي ▢ فاستدلوا عليه بالعنوان

وشعر الغزل في العصر العباسي تأثرت لغته بالحياة الاجتماعية المتحضرة الجديدة ، وبالثقافة الشائعة آنذاك ، مما جعل الشعراء يستخرجون للورود والرياحين لغة خاصة كانوا يخاطبون بها أحباءهم، وكذلك ما كان شائعا عندهم من "اللبان والتفاح والريحان والسواك. "

ومن أبرز ملامح الغزل العفيف اقتصار الحب على واحدة على خلاف أصحاب التيار المضاد ، والتزام العفة وطهارة الضمير ، زيادة على شيوع ألفاظ ومعان حضارية مستجدة ، والميل بهذا الفن نحو الأسلوب السهل السلس .

الزهد

شعر الزهد هو الشعر الداعي للتقشف من الحياة الدنيا ومتعها والاشتغال بالآخرة ولوازمها من عبادة وانقطاع إلى الله ، وهو الشعر الذي يصف دون تزييف حقيقة الدنيا وأنها متاع الغرور وأن الآخرة خير وأبقى.

وكان الإمام البارز في هذا المجال ، الشاعر أبو العتاهية الذي كان غافلا في أول شعره ، ثم لبس الصوف وتزهد ، وأكثر في هذا الغرض ، وصارت له فلسفته الخاصة في الزهد ، والإعراض عن الدنيا:

دنياك غرارة فذرها فإنها مركب جموح
دون بلوغ الجهول منها منيته نفسه تطيح

وهو يتصور الحياة الآمنة في عزلته ،وتعبده فيقول في بساطة:

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية
وكوب ماء باردا تشربه من صافية
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحية
خير من الساعات في فيء القصور العالية

وشعره في الزهد تغلب عليه البساطة في اللفظ : حتى يكون قريبا إلى أفهام الناس جميعا ومنها شعره المزدوج الذي لا يراعى فيه وحده القافية إلا في صدر البيت وعجزه ، ونجد ذلك في أرجوزته التي تعد من بدائعه ، وهي طويلة جدا ، يقال إن فيها أربعة آلاف مثل وقد سماها أبو العتاهية بذات الأمثال والتي يقول فيها :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيها جاوز الكفافا من اتقى الله رجا و خافا
هي المقادير فلمني أو فذر إن كنت أخطأت فما خطا القدر
لكل ما يؤذي وإن قلّ ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضدّه الصلاح ورب جد جره المزاح
من جعل النمام عينا هلكا مبلغك الشرّ كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وحتى الشاعر أبو نواس لما انهى جسمه ، وشعر بالانتقام الرباني ، وأن أجله المحتوم يقترب ، تاب وسأل الله العفو والغفران فقال:

دب فيّ السقام سفلا وعلوا وأراني أموت عضوا فعضوا

لهف نفسي على ليال وأيام تجاوزتهن لعبا ولهوا

قد أسأنا كل الإساءة فا للهم صفحا عنا وغفرا وعفوا

الخمريات

الخمرة من الفنون التي شاع أمرها وسرت نشوتها في نفوس الكثير من أبناء المجتمع العباسي عامتهم وخاصتهم ، وإذا كان الجاهليون والأمويون قد سبقوا إلى ذكرها والتغني بها في أشعارهم إلا أن ذلك لم يكن يقصد لذاته فهي تأتي عندهم في مقدمات قصائدهم بشكل عرضي على خلاف العباسيين الذين قصدوها لذاتها.

يعتبر أبو نواس من أبرز شعراء هذا العصر المتخصصين والمسرفين في حبها ، وإذا كان الأعشى والأخطل قد سبقاه إليها إلا أنهما لم يفردا لها بابا قائما بذاته ، لأن الخمرة عندهما كانت وسيلة وليست غاية على خلاف النواسي ، فإنها كل شيء عنده في الحياة ولاشيء يشغل باله غيرها ، مما جعله يتخصص فيها ويفرد لها بابا مستقلا كاد أن يقصر شعره كله عليه.

ملامح التجديد في الخمريات:

التعمق في معانيها.

استقلالها ضمن قصائد بدلا من بقائها كغرض من أغراض القصيدة التقليدية.

حلت محل النسيب بمطالع القصائد العباسية.

لقد اتسع المعجم الفني لشعر الخمر وازداد ثراؤه وتنوعت صوره وأخيلته في العصر العباسي ، وهذا يدل على ما ألم بالقصيدة الخمرية من تطور واتساع ، فقد كان الشعراء يهتمون بإبراز الخصائص الفنية للخمريات من خلال تصويرهم لألوانها وروائحها ومذاقها وأوانيها ومجالسها وتأثيرها على الشاربين.

تميزت خمريات زعيم الشعر الخمري في العصر العباسي أبي نواس بـ:

ترف الإحساس

بساطة التعبير

سهولة اللغة

وهذا يدل على أنها تطورت فنيا وجماليا.

يقول عبد القادر القط (حركات التجديد في الشعر العباسي ، ص 418) " إن في قصائد أبي نواس الخمرية كثير من الصور الفنية الجميلة وهي تمتاز عن الخمريات السابقة في الشعر

العربي بـ:

بوحدة موضوعها

وصدق تجربتها

ونجاحها في تمثيل نفسية قائلها أصدق تمثيل

ولكن كثيرا منها تكرار لمعان وأحاسيس وتشبيهات ومجازات عبر عنها في عيون قصائده "

ويرد عليه د.نور الدين السد بالنسبة للنقطة الرابعة أما عن تكرار ذلك فهي ليست عيبا بل على العكس من ذلك ، فهي ميزة ايجابية استدعتها طبيعة النسق الفني العام الذي يربط بين قصائده ، فالخمرة عند أبي نواس تجسد هاجسا مستمرا ، وتجربة شعرية تكاد تكون واحدة ، وقضية انتشار بعض الصيغ اللغوية البلاغية في قصائده ، تؤكد رؤيته إلى عالم الخمر ، وما توحي به من دلالات ، فالخمر عند أبي نواس رمزا للذة ، وأحيانا هي رمز لاستمرار الحياة والتجديد والنماء والخصب ، فهي عنده متعددت الدلالات ، وهو بهذا المنظور يخرجها من معناها الحرفي أو اللفظي في النص ، ويتيح لنا فرصة تأويل معناها بما يتناسب وسياق القصيدة.

يقول أبو نواس في رده على النظام وهو أحد زعماء المعتزلة ، حين لامه على شرب الخمر.

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالي كانت هي الداء

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

ويلجأ الشاعر أبو نواس إلى روح التعليل الفلسفي ، والحجة الكلامية ومن هنا تظهر مغايرة هذا الأسلوب الشعري للأساليب السابقة.

ويقول أبو نواس في الخمرة لائذا بها لعله ينسى محاصرة الزمن وقرب الرحيل إلى مصير مجهول:

غرد الديك الصدوح فاستقني طاب الصبوح

واستقني حتى تراني حسنا عندي القبيح

يقول أحمد دهمان " لم يكن عند النواسي شيء أهم من الخمرة يهدف إلى تفجير طاقاته المكبوتة ، ومن هنا كان مجلس الخمرة مكانا يتبتل فيه لها ، ومعبدا تقام فيه شعائر الحب والجمال والحرية والنشوة والفن ، فمناسك الخمرة تتحقق في مجلسها وفي هذه الأجواء التي تكون عادة

لأصحاب المواهب ، ينتقل من العالم الخارجي إلى عالمه الداخلي ، هربا من قيود مجتمعه وريائه وزيفه ليحقق إمكانياته من خلال تأمل الكأس وأشيائه ، والشعور بالذات المتحررة من قيود الزمان والمكان بالإغراق في اللذة ، كي يعيش متعة الحياة القصيرة - كما تصورها - متخلصا من قلقه الوجودي وشعوره بتفاهة الحياة.

يسبر هذا الرأي النقدي أغوار النفس النواسية القلقة ، فيقبض على أهم الرموز التي تشكل محاور أساسية في متن القصيدة الخمرية لدى أبي نواس ، وهي مجلس الشراب ، هذا المكان الذي ينزاح عن دلالته العادية ليأخذ بعدا دلاليا جديدا ، فيتحول إلى معبد تقام فيه شعائر الحب والجمال والحرية ، ويخلو فيه الشاعر إلى عالمه الداخلي ، يشعر بتحقيق ذاته ، وفي مجلس الخمرة يقول:

ومجلس ماله شبيه □ حل به الحسن والجمال

يمطر فيه السرور سحا □ بديمة مالها انتقال

شهدته في شباب صدق □ ما إن تسامى لهم فعال

تشربها بالكبار صرفا □ وليس في شربنا مطال

الأغراض الشعرية المستحدثة

الشعر التعليمي

تعريفه : هو ما ألف نظما لتسهيل حفظ العلوم أو الفنون الأدبية. وهو شعر استخدم لحشد المفردات العلمية فيه بقصد الاستدلال والاحتجاج بها ، ثم تطور به الأمر فتمخض لسرد المفردات واتخاذه وسيلة من وسائل التعليم ،ومن أجل ذلك سمي الشعر التعليمي.

تاريخه : تعود بداية هذا النوع من الشعر إلى العهد اليوناني القديم ، ولعل أول من سبق إليه هيزيود اليوناني الأصل الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد ، فقد ابتكر هذا الشعر ونظم مجموعة من القصائد أولها وأشهرها قصيدته الخالدة " الأعمال والأيام " ضمنها جملة من الحكم والعظات والقواعد الخلقية وغيرها من النصائح والإرشادات وقد بلغ عدد أبياتها أكثر من 800 بيت.

وإلى جانب شهرة اليونان في هذا الفن الشعري ، فإن الهنود أيضا كانوا مولعين بنظم قواعد الرياضيات والفلك فيه.

وقد كانت الثقافتان اليونانية والهندية العارفتان للشعر التعليمي على صلة بالآداب العربية وثقافتها ، فأثرها عليها خاصة الهندية منها.

ومن حيث أولوية هذا الفن وشأنه في الشعر العربي ، فقد نشأ أولا عند أصحاب الآراء والمذاهب الدينية من الشعراء فاستخدموه في تأيد مذاهبهم وفي التحدث عن فضائلها والحملة على خصومتها.

ويعتبر السيد الحميري أول من نظم في شعرنا العربي نموذجا من الشعر التعليمي ، ضمنه جملة من المناقب والفضائل الحميدة والسير النبيلة كالتي تروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبنائه:

أتى حسن والحسين النبي وقد جلسا حجره يلعبان
ففداهما ثم حياهما وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه فنعم المطية والراكبان

ونتيجة لاتساع الحركة العلمية وازدهار الثقافة العربية وبخاصة في أيام المنصور والرشيد والمأمون الذين حرصوا على نقل ما أمكن من العلوم والمعارف العقلية والإنسانية كالطب والصيدلة والقانون والحكمة والموعظة وعلم النجوم والرحلات وسواها ، فإن بعض الشعراء قد اهتدوا إلى تحصيل بعض العلوم وتدوينها بواسطة الشعر التعليمي حتى يسهل حفظها بكل يسر وسهولة.

ويعتبر إبان بن عبد الحميد اللاحقي أول من بدأ هذا النوع من الشعر التعليمي بغرض تسهيل حفظ العلوم وتدوينها وذلك في القرن الثاني الهجري.

أشار صاحب الأغاني إلى أن إبان قد نقل كتاب " كليلة ودمنة " ونظمه شعرا حتى يسهل حفظه ، وأنه خص به البرامكة وقد أجازه عليه جعفر البرمكي جائزة كبيرة.

فكان أول نظمه قوله:

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه دلالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم حكاية عن ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله والسخفاء يشتهون هزله

وقد ذكر صاحب الفهرست بأن كتاب كليلة دمنة المتكون من سبعة عشر بابا ، لم ينقل بكامله إلى الشعر من قبل إبان بن عبد الله الحميد اللاحقي وحده ، بل شاركه في ذلك كل من علي بن داود وبشر بن المعتمد.

ونظم ابن سينا ت 428هـ منظومته في المنطق.

ونظم الحريري منظومة في ملحة الإعراب.

الشعر الفلسفي

يعتبر أبو العلاء المعري شاعر فلسفة الحياة ، وهو أول شاعر ينظم ديوانا كاملا في الفلسفة يدعى " اللزوميات " وفيه ملخص للمذاهب الفكرية السائدة في عصره.

فهو يرى أن السلطة المدنية فاسدة بسبب المكر والرشوة ، والحكام أصحاب فوضى ويتبعون هواهم ، ويحكمون الرعية بالظلم وينعمون بمالها وثمرة تعبها فيقول:

يسوسون الأموربغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأف من الحياة وأف منّي ومن زمن رئاسته خساسه

ثالثا : الغزل بالمذكر (أو الغزل الشاذ)

لم يعرف العرب قبل النصف الثاني من القرن الهجري مثل هذا الميل إلى الغلمان كما عرف في الأمم السابقة،أي قبل اختلاطهم بالأمم الأجنبية .

ويعتبر أبو نواس من الشعراء المولدين الذين ورثوا دماء فارسية فتغزلوا بالغلمان وأسسوا هذا الفن . يقول أبو نواس:

يا من يقول الغواني أحلى جنى و التزاما
خذ النساء ودع لي مما يلدن غلاما

Unit III

النثر في العصر العباسي

الخطابة

كان للخطابة شأن كبير في أوائل العصر العباسي؛ فقد كانت الدولة الجديدة في حاجة إلى ترسيخ الملك وإثبات حق العباسيين في الخلافة، وكان الخلفاء العباسيون الأوائل كالسفاح والمنصور والمهدي خطباء مصاقع، فازدهرت الخطابة في ذلك العصر.

وكانت الخطبة تلقى على مسامع الناس لأغراض مختلفة، فهناك الخطب السياسية التي يلقيها الخلفاء والقادة في استقبال الوفود أو تحميس الجنود، وهناك الخطب الدينية التي تلقي في الأعياد والجمع، والخطب الاجتماعية في المدح أو الذم أو الاستعطاف أو العتاب.

وقد امتازت الخطابة في أول العصر العباسي بجزالة الألفاظ، وعدم الالتزام بالسجع، وكثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وغلبة الإيجاز إلا ما تدعو الضرورة فيه إلى الإطناب.

وأشهر خطباء هذه الفترة السفاح، والمنصور، وداود بن على، وعيسى بن علي، وخالد بن صفوان، وشبيب بن شيبة.

ولما استقرت الدولة العباسية، وفشت العجمة، وسيطر الأعاجم من بويهيين وسلاجقة على الخلافة، ضعفت الخطابة، وقويت الكتابة، فلم يعد الخلفاء قادرين عليها كأسلافهم، فأصبحت الخطابة مقصورة على بعض المناسبات الدينية كالعيدين والجمعة، وقد أناب الخلفاء والحكام غيرهم فيها.

ثم ازداد الأمر سوءاً في آخر العصر العباسي، وضعفت الخطابة الدينية أيضاً، وأصبح خطباء المساجد يرددون خطب السابقين ويقرؤونها من كتبهم على المنابر، وأغلبها خطب مسجوعة متكلفة.

الكتابة الفنية

عندما قامت الدولة العباسية كانت الكتابة الفنية قد أصبحت ذات قواعد وأصول على يد عبد الحميد الكاتب.

والعصر العباسي هو العصر الذهبي للكتابة الفنية؛ فقد نبغ فيه كبار الكتاب الذين جددوا في أساليب النثر ومعانيه، وفتحوا آفاقاً جديدة للكتابة.

وقد ارتفع شأن الكتّاب في العصر العباسي، فأصبح لكل خليفة أو وزير كاتب أو أكثر، وأنشئت لذلك الدواوين المتعددة، بل إن بعض الكتاب قد وصل إلى الوزارة بسبب قدرته على الكتابة الفنية، كما أن الكتابة قد حلت محل الخطابة في آخر العصر، وأزالت دولة الشعر من الصدارة الأدبية.

وقد تعددت أنواع الكتابة في هذا العصر؛ فهناك الكتابة الديوانية مثل كتب البيعات وعهود الولاء وكل ما يصدر عن ديوان الرسائل معبراً عن رأى الخليفة أو الوزير في شؤون الدولة العامة، وسميت بالديوانية نسبة إلى صدورها من "ديوان الرسائل".

وهناك الكتابات والرسائل الإخوانية المتبادلة بين الكتاب في أمورهم الخاصة من مدح أو اعتذار أو تهنئة أو تعزية.

وهناك الرسائل الأدبية التي يكتبها الأدباء والبلغاء لإبراز قدرتهم وإبداعهم كرسائل الجاحظ وابن العميد.

التوقيعات

التوقيعات جمع توقيع، والمراد: كلام بليغ موجز، يكتبه الخليفة أو الوالي في أسفل الكتب الواردة إليه المتضمنة لشكوى أو رجاء أو طلب إبداء رأي.

والتوقيع الأدبي ليس التوقيع المعروف عندنا الآن (الإمضاء)، وإنما هو أقرب ما يكون إلى ما نسميه الشرح على المعاملات الواردة.

والتوقيعات تمتاز بالإيجاز أولاً، وبالبلاغة ثانياً، وإصابة الغرض بحيث تغنى عن الكلام الكثير، وتتضمن رأياً واضحاً وإن كان موجزاً في الأمر المعروض.

وقد عُنى العباسيون بفن التوقيعات وأبدعوا فيه، ولهم توقيعات مشهورة محفوظة، وقد يوقعون بآية كريمة أو حديث شريف أو بيت من الشعر متى ما كان ذلك مناسبا للغرض.

ويقال: إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من وقع في الكتب المعروضة ومنها كتاب ورد من سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه يستشيره في بناء دار له، فوقع على الكتاب بقوله: ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر.

الطبقات الأربعة

ويقسم مؤرخو الأدب الكُتّاب في العصر العباسي إلى أربع طبقات، لكل طبقة رجالها وميزاتها الفنية:

- **الطبقة الأولى:** وإمامها ابن المقفع، ومن أشهر رجالها: الحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هارون، والحسن بن وهب.

وتمتاز هذه الطبقة بتنويع العبارة، وتقطيع الجملة، وتَوَخِّي السهولة، والعناية بالمعنى، الزهد في السجع.

- **الطبقة الثانية:** وإمامها الجاحظ، ومن أشهر رجالها: الصولي، وابن قتيبة، وأبو حيان التوحيدي.

وقد تابعت الطبقة الأولى في كثير من أساليبها، لكنها تمتاز بالاستطراد، ومزج الجد بالهزل، والإكثار من الجمل الاعتراضية، وشيء من الإطناب لتحليل المعنى واستقصائه.

- **الطبقة الثالثة:** وإمامها ابن العميد، ومن أشهر رجالها: الصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمداني، والخوارزمي، والثعالبي.

ومن خصائصها السجع بجمل قصيرة، والتوسع في الخيال والتشبيهات، والإكثار من الاستشهاد وتضمين المعلومات التاريخية والطرائف الملح، والعناية بالمحسنات البديعية.

- **والطبقة الرابعة:** وإمامها القاضي الفضل، ومن أشهر رجالها: ابن الأثير، والعماد الأصبهاني الكاتب.

وهذه الطبقة سارت على نهج الطبقة الثالثة في السجع والإكثار من المحسنات البديعية، إلا أنها غلبت في ذلك وأغرقت في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة عبارة عن ألفاظ منمقة مسجوعة، لكن ذلك كان على حساب المعنى.

عبد الله بن المقفع

تاريخه

هو ابو محمد عبد الله روزبه بن داذويه المعروف بابن المقفع. ولد بقرية جور من بلاد فارس سنة 724م/106هـ، ونشأ فارسيا يسعى في تخصيل ثقافة الفرس، كما نشأ زرادشتيا يتبع مراسيم ذلك المذهب في إيمان وأمانة، وما إن شب حتى انتقل الى البصرة واحتك فيها بالعرب والثقافة العربية واذا هو فارسي صميم، كما هو عربي مقيم، واذا هنالك مزيج غريب من عقلية وعقلية عربية، ولغة فارسية ولغة وعربية، وثقافة فارسية وثقافة عربية، واذا هنالك شباب من

اناقة ورفعة وإباء، وعقل ولا كالعقول، يجول في جميع الميادين، ويتنقل على اكتاف الايام والسنين من القديم القديم الى الجديد الجديد، وقلم سيال يرافق العقل الكبير، ويكتب باسلوب عربية فارسي، ولغة سمحة، وتفكير عميق، واذا هنالك صيت يتعالى وينتشر فيستميل الانظار والقلوب. وما هي الا مدة وجيزة حتى استدعي ابن المقفع الى كرمان يكتب لعمر بن هبيرة، ثم ليزيد بن عمر بن هبيرة والى العراق من قبل مروان الأموي.

ولما كان العهد العباسي اتصل ابن المقفع يعيسى بن علي عم السفاح والمنصور، وهو وال على الاهواز، فاسلم على يده وكتب له. وقد قتل في عهد أبي جعفر المنصور سنة 759 وله من العمر خمس وثلاثون سنة.

تشيع فارسي

والجدير بالذكر ان ابن المقفع عاش في طور انتقال من عهد بن امية الى عهد بني العباس، وكان فارسي النزعة. والذي نعلمه ان نقمة المسلمين الاعاجم على العنصر العربي كانت لذلك العهد شديدة كل الشدة، وان جماعات متباينة نشأت لا يجمع فيما بينها الا نقمتها على السلطة الحاكمة، وان تلك الجماعات التفت حول الشيعة المضطهدة، فاعتنق التشيع اقوام لم يتمكن الاسلام من قلوبهم، وانتشروا في مختلف انحاء الدولة، وقد ادى ذلك الى تطور في المعتقد، وانضم الى هذه الحركة عناصر مسيحية ويهودية، وانتقلت إدارتها من العرب الى الموالي، فحل التنافر الطبقي محل التنافر العنصري، واصبح التشيع مذهب المظلومين والمحرومين الثائرين على السلطة.

ثورة عقلانية

ومن ثم يتضح لنا ان شعوبية ابن المقفع اتخذت طريق التشيع، فأظهر مع الموالي مليه الى بني العباس وإن لم يكن قلبه معهم، وكان علوي السياسة، فارسي النزعة، يدين بالاسلام ظاهرا لا باطنا، ويأخذ بالتقية في ما يعمل وفي ما يقول، ويسعى لقلب وده الحكم عن طريق العقل والفلسفة القديمة بطريقة اكلكتيكية اي تخيرية. وهذا كله من طلائع الحركة الشيعية التي اخذت منذ ذلك الحين وبعده بقليل تنقسم فرقا، وتميز بين الباطن والظاهر، وتكب على الفلسفة والعلوم لتنشئ امة جديدة ذات نظم اجتماعية وسياسية جديدة. وهكذا نفهم السبب الذي لاجله انتشرت آراء ابن المقفع في كتب رجال التشيع والاسماعيلية من مثل المتنبي، وابي العلاء المعري، وإخوان الصفاء وغيرهم، وهكذا نفهم ايضا السبب الخفي الذي لأجله اضطهد ابن المقفع وقتل شر قتله سنة 759م/142هـ.

رسالة الصحابة

وان من طالع رسالة الصحابة وقرأ ما بين سطورها لمس الروح الفارسية الشيعية مسيطرة عليها. وقد وقف فيها الكاتب موقف المصلح الذي لا تفوته شاردة ولا واردة، المصلح الذي يعلل اسباب الداء ويقدم الدواء، وذلك كله في تقية ولين تحظ، فالسلطة مريضة ولا بد لها من انتاضة، وهذه الانتفاضة لا يصرح بها، وهي في نظر وعيه الباطن دولة جديدة قائمة على العقل النير العادل، يسير بها امام عادل الى الغاية المثلى.

كليلة ودمنة

حكمة في ثوب خرافة: كتاب كليلة ودمنة ينطوي على حكايات وأقاصيص خرافية على السنة البهائم والطير. وهذه البهائم والطير تمثل الحياة البشرية في نواحيها المختلفة، وفيها من النزعات والاهواء والتيارات الفكرية ما نجده بين البشر في مختلف تلاوينه ومنعرجاته، وفيها ارباب الجدل والفقه والمنطق وعلم الاجتماع والسياسة، وفيها الاخيار والأشرار والمحسنون والمسيئون. ومن ثم فالكتاب هو حياة مصغرة، هو الميدان الوسيع في صفحات. وهذه الحياة الممثلة المصورة بطريقة خرافية، تجري موزونة بميزان الحكمة، وشرع الطبيعة المستقيمة، وحكم العقل الذي يميز بين الخير والشر، وبين الاستقامة والاعوجاج، ويسن الدساتير في هدوء علمي، وفي صرامة القضاء المسيطر على كل موجود.

فالكتاب إذن مبني على المثل الخرافي، وهو مصدر ببعض أبواب تنطوي على مقدمات عامة في أصل وضع الكتاب وشرح أحوال برزويه الطبيب وما الى ذلك مما له علاقة بترجمة كلية ودمنة وموضوعه. وهو يسير على طريقة أساسها السؤال والجواب. أما السؤال فمن ملك هندي اسمه دبشليم لا يعرف زمن وجوده، وأما الجواب فمن فيلسوف حكيم اسمه بيدبا. أما دبشليم فرجل متعطش الى معرفة الحكمة وسياسة البشر، وهو رمز لكل ملك في كل مكان وزمان، وهو يوجه الأسئلة عن طريق الاستجواب والاستعلام في كل ما يريد المؤلف أن يبسط البحث فيه. وأما بيدبا فرجل الاطلاع الواسع الهادئ الذي لا يخشى سلطانا ولا يعرف المحاباة، رجل الحقيقة التي يعرفها ويريد نشرها في لين وسياسة، وهو يجيب ابدا في رصانة وبعد نظر ومعرفة عميقة لطبائع الناس وطباع الحيوانات، ويجعل جوابه مثلا يفصله في باب كامل من أبواب الكتاب، ثم يدخل في هذا المثل الاكبر امثالا صغرى يستشهد بها أبطال القصص على صدق ما يقدمون من آراء، وهكذا تأتي الأمثال مركبة تركيبا وثيقا متداخلة تداخلا يجبر القارئ على تتبع الباب من أوله الى آخره بحيث لا تفوته حكمة. وقد تتبع بيدبا هذه الطريق تمشيا على عادات الهنود خصوصا والشرقيين عموما، ورآها الطريقة المثلى التي تصل الى غايتها في سياسة ولين وتفكيه، ولاتي لا تجرح العنيد اذا قبحت له عناده، ولا تسوء الظالم اذا كشفت له عن سوء ظلمه... قال ابن المقفع : إذا جعل الكلام مثلا كان ذلك أوضح للمنطق، وأبين في المعنى، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث.

قيمة كليلة ودمنة من الناحية الفكرية: لكليلة ودمنة قيمة كبيرة في عالم الفكر والتاريخ والادب. فالكتاب كنز من كنوز الحكمة البشرية، وفيه فلسفة اجتماعية اخلاقية واسعة النطاق، وفيه دروس تشريعية ذات قيمة، وفيه نظرات ما وراثية جليلة وإن موجزة، وفيه على كل حال عليم وعمل، وعلم موجه الى العمل ومن ثم يتضح لنا ان فلسفة الكتاب هي فلسفة الحياة العملية الشريفة، هي فلسفة موضوعية مثالية، ذات نزعة تشاؤمية يحوم عليها قدر غلاب لا يقهر. وفلسفة كليلة ودمنة موسومة بسمة المذهب العقلي الذي يجعل العقل مديرا وموجها لكل حركة. وهكذا كانت تلك الفلسفة مزيجا من أفلاطونية وأرسطوطالية وهندية شرقية. ونحن نلمس في الكتاب انفلاتات صوفية زهدية وهي من نزعات الفلسفة الهندية.

مدرسة جديدة في الكتابة

انه لمن الصعب ان نبدي رأينا في أسلوب ابن المقفع بالاستناد الى ما وصل الينا من نص كتاب كليلة ودمنة. وذلك ان المخطوطات التي بلغتنا من الكتاب ليست من القدم بحيث يستطيع الباحث ان يطمئن اليها كل الاطمئنان. اضف الى ذلك ما هنالك من اختلاف في الابوات والعبارات. وإن ما اقتبسه الكتاب من كليلة ودمنة منذ القرن الثالث للهجرة يدل على ان النص لحقه تحريف بالغ. وليس باستطاعة الباحث ان يلجأ الى الأدبين الكبير والصغير ليستخرج منهما ميزات ابن المقفع في الكتابة، لأن الأدبين مجموعتان من الآراء والحكم والدروس الاجتماعية والأخلاقية والسياسية، في جمل موجزة، مقطعة الأوصال، خالية من التأليف والبناء.

وسبيل الباحث أن يعمد الى كليلة ودمنة في اقدم مخطوطاتها، والى النصوص التي وردت في مختلف المخطوطات، ويعالجها معالجة استنتاجية، مستندا بعض الاستناد الى نص الادبين الكبير والصغير، وان قام بهذا العمل تجلت له الميزات الرئيسية التي اتسمت بها كتابة ابن المقفع.

واول ما نقوله في هذا الباب ان المجتمع لذلك العهد أخذ يبحث عن مواد جديدة وصور للتعبير جديدة تكون أكثر ملاءمة لأحواله الجديدة، ولا سيما وقد امتزجت العناصر الفارسية والآرامية وغيرها بالحياة العربية الاجتماعية والأدبية. ومما لا شك فيه ان عبد الحميد بن يحيى الكاتب كان رائد الاسلوب الجديد في النثر العربي، إلا ان ابن المقفع هو الذي اتمه واوصله الى اوجه حتى عد رأس التجديد الأسلوبي في النثر، وحتى نسب إليه الإنشاء الأدبي في اللغة العربية. قال المستشرق جب : ولو انه اقتصر فيما كتب على الادب الكبير لما كان في كتابته شيئ كثير يميزه عن سابقيه من كتاب المواعظ والوصايا المتعلقة بالآداب وحسن السلوك، أما ما كان جديدا في مؤلفاته فهو أن كتبه المترجمة قد اعربت عن هذه

المواعظ والوصايا بطريق غير مباشر في صورة تاريخ او خرافة على السنة الحيوانات. وهكذا فقد انتقلت الكتابة مع ابن المقفع من الرسائل الوعظية الى الادب الجميل او الكتابة الرقيعة التي ترفه وتفيد وتمتع في آن واحد، ودخل النثر الى حقل الترجمة بعد دخوله ديوان الرسائل، فواجه جميع الموضوعات.

وتجاه هذه المادة الفكرية الجديدة سلك ابن المقفع طريق التحرر من خصائص الكتابة الهندية قدر المستطاع، وتحرى الإفصاح عن الفكرة بأسهل ما يكون التعبير وأدقه، وهكذا تحرى السهولة في اللغة والتركيب، وباشر المعاني مباشرة قليلة التلميح والإشارة، وقلما التجأ الى القوة التخيلية والمقدرة اللغوية عند القارئ، وعدل عن أساليب التنميق والتصوير اللفظي الى العبارات المصقولة الجلية التي تسير بهدوء متهاسكة الأجزاء.

واحتفاء ابن المقفع بالمعنى يدفعه الى استخدام الاسلوب المنطقي فيقسم موضوعه الى فقرات، تنقسم الى جمل ذات فواصل يمكن الوقوف عندها، فأفكاره متسلسلة، لا يلجأ فيها الى الغلو بل يواجه الحقيقة بهدوء، ويبرهن عنها بقوة. وكذلك يحمله احتفاؤه بالمعنى على إطالة الجملة بهدوء ورصانة، فهي تمتد امتدادا ارستقراطيا من غير ما توثب ولا تقلب ولا تلون، وتذرعة بالروابط المختلفة من حروف الجر، والاسماء الموصولة، وما الى ذلك.

إلا أن إطالته هذه ليست من قبيل الإسهاب. فابن المقفع زاهد في كثرة الالفاظ وإن كان لا يكتفي بالإشارة ولا يعمد الى الحذف والتقدير، فهو يميل الى الإيجاز، ذلك الإيجاز الخاص الذي تكون فيه الالفاظ على مقدار المعاني. وهو لا يتعدى هذه الخطة إلا عندما يشعر أن معنى من معانيه قد يستغلق على فهم الرجل العادي، فتراه إذ ذاك فقط يردد ذلك المعنى في تراكيب متشابهة، واحيانا يضرب مثلا او مثلين او يقص حكاية او اكثر زيادة في تبيان الفكرة الواحدة، كما يبدو ذلك في باب عرض كتاب كليلة ودمنة.

إلا ان توخي السهولة في موضوع حافل بالصعوبة حمل ابن المقفع على شيء من العنت في الترجمة وتأدية المعاني، فوقع في بعض الغموض احيانا، ووقع في جملة بعض التداخل الى حد يستحيل معه تقسيمها الى عبارات كما في قوله: اما البطتان اللتان رأيتهما طارتا من وراء ظهرك فوقعتا بين يديك فإنك يأتيك من قبل ملك يلخ من يقوم بين يديك بفرسين ليس في الارض مثلهما.

الجاحظ

نشأته وحياته

ولد ابو عثمان عمرو الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الادب، فاكب على الدرس، وجد في التحصيل، واخذ عن جهابذة اللغة والرواية كالاصمعي وأبي عبيدة. وتخرج في علم الكلام على أبي اسحاق النظام احد المعتزلة فاخذ بمقالته، ونصر الاعتزال بكتابته، وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم واغرم بالمطالعة اغراما شديدا فلم يقع في يده كتاب الا استتم قراءته، واستوعب مادته. وكان يكتري حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حت احصى مسائل العلوم، واستبطن دخائل الفنون، واصبح في الادب منقطع القرين.

قضى اكثر عمره في مسقط راسه عاكفا علىالتاليف مرعي الجانب، مكفي الحاجة، اثيرا لدى الولاة، مكرما عند الوجوه، بما يؤلف من الرسائل ويصنف من الكتب. ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والوائق والمتوكل، وانقطع بعد ذلك الى محمد بن الملك الزيات طول وزاراته الثلاث، ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير. واصي بالفالج النصفي في عاقبة عمره. وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله اليه سنة خمس وخمسين ومائتين وقد شارف المائة.

صفاته واخلاقه

كان ابو عثمان دميم الخلقة، جهم الوجه، جاحظ العينين حتى قيل ان الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه اليه بسر من رأى ليؤدب ولده. فلما رآه استبشع منظره، وصرفه بعشرة آلاف درهم. وكان في الجاحظ دعابة ومجانة واستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضعية، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد، فكة الحاضرة، صادق المواساة.

علمه وادبه

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز ان يصف للقارئ ما لنابغة العرب ولتير الشرق من الأثر في الادب. وبحسبنا ان نقول إنه تميز من انداده بغزارة العلم، وقوة الحجة، واستقصاء البحث، وشدة العارضة وبلاغة القول، وإنه تبحر في علم اكلام وخلطه بفلسفة يونان، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسموا بالجاحظية. وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع. وهو اول عالم عربي جمع بين الجد والهزل، وتوسع في المحاضرات واكثر من التصنيف، وكتب في الحيوان والنبات والاخلاق والاجتماع.

نثره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الاسلوب والغرض، ونهج للمترسلين والمصنفين كريقة في الانشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول. وقد قال فيه البديع: ان كلامه بعيد الاشارة، قريب العبارة، قليل الاستمارة. وهذا الحكم وان كان شديدا يطابع الحق احيانا. اما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه. وقد نزع في نظمه الى الاتباع لا الى الابتداع، وهو قبيل منثور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير بن عبد الملك.

بداحين اثرى لإخوانه ▯ ففلل منهم شباة العدم

وابصر كيف انتقال الزمان ▯ فبادر بالعرف قبل الندم

وقوله:

لئن قدمت قبلي رجال فطالما ▯ مشيت على رسلي فكنت المقدما

ولكن هذا الدهر تأتي صروفه ▯ فتبرم منقوضا وتنقض مبرما

آثاره

للجاحظ آثار كثيرة في الفلسفة والدين، والسياسة والاقتصاد، والتاريخ والجغرافية والطبيعيات والرياضيات والعصبية، والادب وما الى ذلك. وهي تؤليف موسوعة علمية وادبية. واشهرها رسالة التربيع والتدوير (هي رسالة كتبها الجاحظ في هجاء احمد بن عبد الوهاب. لهذه الرسالة قيمة علمية، وقيمة ادبية فنية. تتجلى فيها سعة اطلاع الجاحظ، وهي تتضمن اهم القضايا الفلسفية والعلمية والتاريخية. وفيها تتجلى اساليب الجاحظ في السخر اللاذع: المفارقات والمتناقضات، والجدل والسفسطة والمغالطة، والتصوير الكاريكاتوري...)، وكتاب البيان والتبيين (هو كتاب في الأدب. يخلو الكتاب من ترتيب وتسلسل. تمتزج فيه علوم البلاغة والادب والتاريخ. للكتاب قيمة تاريخية وقيمة ادبية. تظهر فيه نزعة الجاحظ العربية. وهو مزيج من ثقافات مختلفة تغلب عليها الثقافة العربية. والكتاب اصل من اصول فن الأدب واركانه)، وكتاب البخلاء (هو كتاب جمع فيه الجاحظ اخبار البخلاء والمقتصدين. الفائدة التي جناها الناس من كتب أخرى للجاحظ يشبه موضوعها هذا الموضوع. يتضمن الكتاب، فضلا عن رسالة سهل بن هارون في البخل، ورسالتي ابن العاص وابن التوام، قصص البخلاء ونوادرهم، ثم كلاما على اطعمة العرب. لم تكن غاية الجاحظ الهجاء بل الإصلاح وهو ان ذم البخل لا يغفل عن تحسين الاقتصاد. وبخلاؤه احياء، واصحاب جدل ومنطق، فيهم من خفة روح الجاحظ، وعلى لسانهم من نكتته ما يحبب اخبارهم الى النفس. والكتاب يطلعنا على ناحية من نواحي المجتمع العباسي)، وكتاب الحيوان (يتضمن الكتاب وصف طبائع الحيوانات وإظهار حكمة الله فيهاز للكتاب مصادر كثيرة منها هو

عربي كآثار استذته ومنها ما هو أجنبي ككتب ارسطو واقليمون وجالينوس وكتب الفرس. ضمن الجاحظ كتابه معلومات واسعة في الحيوان وغير الحيوان، ومزج الجد بالهزل، والعلم بالادب، والفكاهة بالمجون. كتاب الحيوان خال من الوحدة التأليفية، فيه تنقل من موضوع إلى موضوع، واستطراد، ومزج الجد بالهزل، وجدل ومناظرة. وهو خزانة معلومات كثيرة عن تاريخ العرب وغير العرب. أما من الوجهة العلمية فيظهر فيه الجاحظ العرب وغير العرب. أما من الوجهة العلمية فيظهر فيه الجاحظ عالما يتناول الموضوعات العلمية ويتتبع اصول العلم في التحقيق، فيعتمد الحواس والعقل ويجعل الشك سبيلا إلا اليقين، ويضيف إلى الشك النقد العلمي. ولكن علم الجاحظ لا يخلو من ضلال، كما فات الرجل روح الترتيب، وقدرة العالم على التعميم واستنباط القوانين العامة، والتمكن من إنشاء القياس العلمية.

فن الجاحظ

الجاحظ رجل العقل والجدل يعدل عن أساليب المجاز إلى الطريقة الواقعية المحسوسة، ويراعي أبدا مقتضى الحال، فيلجأ إلى الأسلوب الطبيعي في الحديث، الذي ينزع نزعة الحياة الحرة الطليقة، ويكثر فيه الاستطراد والاستشهاد والجدل والهزل، ولا يخلو من موسيقي عذبة.

ولغة الجاحظ هي لغة طبيعة، تفصح فيها الألفاظ عن المعاني، عن طريق الحقيقة، بدقة ووضوح وسهولة وحسن وايقاع. ويظهر الجاحظ على كل حال مصورا واقعيا بارعا.

منزلة الجاحظ

الجاحظ رئس المدرسة النثرية الثانية، وقد مثل عصره بأساليبه واثاره : حرية الفكر، ونتيجة تلك الحرية (تشعب الحركة الفكرية، وانحلال الاخلاق في فئة كبيرة من الناس). وقد لقيت آثار الجاحظ رواجا كبيرا عند ابناء عصره، كما كان للجاحظ وآثاره أثر كبير في الأدب العربي.

أبو العتاهية

تاريخه

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزي بالولاء، وقد عرف بأبي العتاهية. ولد بعين التمر سنة 130هـ، ونشأ بالكوفة حيث أولع باللهو والعبث، ثم قال الشعر وإذا شعره من أرفع الشعر، فطار له في البلاد صيت، وردد أقواله الرائح والغادي، فقصد بغداد، واتصل بالخليفة المهدي فلقي لديه حظوة كبيرة، فمدحه ونال بره، وتعرف في قصره بجارية اسمها عتبة، وأخذ يشبب بها في شعره، فغضب المهدي لذلك وأمر بسجنه ثم أطلق سراحه. واتصل بالهادي ثم بهارون الرشيد. واخيرا ليس الصوف وتزهد، وقد يكون صدوفه عن الدنيا لخيبة لقيها في حبه لعتبة.

عاش أبو العتاهية الى زمن المأمون وامتدحه ثم عاد الى زهده وانقطع عن اصحابه الى ان مرض مرضه الذي توفى فيه، وكان ذلك نحو سنة 218هـ/825م

نفسيته

نشأ أبو العتاهية في عصر امتاز بالأزمات النفسية والعقلية وظهور موجة من الشك والحيرة كانت نتيجة اختلاط الأجناس والثقافات. وكان الشاعر رفيع المكانة عند الخلفاء، وفي عهد الرشيد أقلع عن الغزل وانصرف الى الزهد، فحبسه الرشيد حتى يعود الى الغزل، ولكن اتجاهه النفسي كان أقوى من أن يقاوم. واذ كانت له هذه المكانة الاجتماعية راح الكثيرون من الشعراء والادباء يعملون بعامل الحسد على الحط من شأنه، فاتهموه بالبخل والزندقة وسوء العقيدة، وكتبوا في ذلك الروايات الكثيرة. ويبدو أن أبا العتاهية كان سوداوي المزاج، كثير التردد في امر الدين، فتقلب على أطوار شتى، شأن الذين يحلون انفسهم من قيود الدين، وينظرون فيه نظر الناقد فاستقر رأي أبي العتاهية أخيرا على التمسك بالاسلام والزهد عن الدنيا. وهذا التردد الذي سيطر عليه فترة من الزمن كان ثغرة نفذ منها أعداؤه الى رميه والطعن عليه. وهكذا ترى الناس مختلفين في زهده، منهم المنكر ومنهم المصدق.

ومهما يكن من امر فقد مال أبو العتاهية الى الزهد بعد اضطراب وحيرة. قال عبد الحكيم حسان : كأن حياة ابي العتاهية يمكن ان ترسم على هيئة ذبذبات تتسع وتضيق، وهي في اتساعها تقترب من حدود اليقين او تجتازها، ولكنها تعود سيرتها الأولى من التذبذب والاضطراب حتى انتهى بها الامر أخيرا الى اجتياز الحد الى منطقة اليقين بصفة نهائية بعد ذبذبات متسعة متلاحقة. وحين اجتاز الاضطراب والحيرة الى اليقين ثبت على يقينه مخلصا فيه، وسخّر فنه في خدمة حياته الجديدة، حياته الروحية الموقتة المطمئنة، فلقي ترحيبا واعجابا من العامة والخاصة على السواء وبلغت مواعظه حيث أراد من نفوسهم، واستنزل بها الدمع من محاجرهم.

أدبه

لأبي العتاهية ديوان في الزهد جمعه في القرن الحادي عشر للميلاد أبو عمر يوسف ابن عبد الله النمري القرطبي، وله ديوان آخر جمعه الأب لويس شيخو وأضافه الى الاول وطبعه كاملا في بيروت سنة 1887. وهكذا ففي شعر أبي العتاهية قسمان: القسم الاكبر يدور على الزهد، والقسم الآخر منظومات مختلفة في كل فنون المعاني من مديح، ورثاء، وهجو، واوصاف، وحكم، وامثال. وكان أبو العتاهية في شعره الزهدي امام من نظم في هذا الباب وشعره هذا يقوم اساسا على الموعظة وما يتبعها من ذكر الدنيا، وتقلبها، وسرعة زوالها، والموت وغصصه، والآخرة وأحوالها، وهو يقوم من ناحية ثانية على الأخلاق والحكمة، وما يتبع ذلك من نظرات في الحياة والناس.

شاعر الزهد

1. **الموعظة** عند أبي العتاهية تقوم بتصوير الدنيا ووصفها، واليك خلاصة آرائه في الموضوع: الدنيا مجمع اباطيل خداعة، زائلة حافلة بالمكر والخداع، والألم والخيبة والتقلب، وقد تنفسح احيانا لشيء من المسرة والمتعة، الا انها لا تعتم ان تهوي بذلك الى القبر حيث يبلي الفناء والموت بلاء مريعا، ويكون تشنيعهما ذريعا بقدر ما يكون الانسان محظوظا في الحياة. ومن اعظم ما يمنى به الإنسان في موته النسيان الذي لا يلبث ان يمحو ذكره من قلوب اقرب الناس اليه حالما يواريه التراب. فما بال الناس يلهون عن هذه الحقائق القاسية، ويخوضون غمار العيش والمنكرات، ويسرفون في طلب المال وفي البخل، ذاهلين عن بطل ما يفعلون، كان القبر ليس خاتمة الحياة في نظرهم، وكأن ليس وراء القبر من حياة. فليرجع الناس إذن الى نفوسهم، وليبيدوا منها الأوهام والمطامع والرغيات الباطلة، وليسلكوا سبل الخير كما جلى معالمها الدين، مزدرين الحياة بما فيها من متعة ومال، قانعين بما قسم لهم من خير، مكتفين منه بالضروري اليسير، متزكين بما زاد ليشتروا به اجورا للآخرة، فالآخرة وحدها جديرة بالاعتبار، وخير ما يتزود به المرء في سبيلها الزهد والتقوى.

2. **الأخلاق والحكمة** يعرضهما ابو العتاهية في معرض ديني، فيوصي بطاعة الله وتقواه، ويحث على الصبر والصدق والرفق والقناعة. وقد تمر له خطرات يدخل فيها الى اعماق النفس البشرية ويحاول الكشف عن ميولها في بعض التحليل والنظر الثاقب.

3. **ابو العتاهية من زهده:** يتجلى لنا ابو العتاهية من زهدياته رجلا ميالا الى الزهد، عاكفا عليه بكل جوارحه. لقد عرف من الحياة حلوها ومرها، ورأي أن طيباتها لا تدوم. وقد خبر القلوب فوجدها قلوبا تتقلب مع كل حال، وتدور مع كل هوى، وخبر الناس فوجدهم اتباع منافعه ورغباتهم، فصدف عن الدنيا وترهاتها، وراح في صفوف البشر رسول خير ولسان موعظة وغبرة، بل راح فيلسوف زهد يعمل ويقول. وربما كان في قوله بعض الأثرة، ذلك أنه في عصر الفسق، وزمان الانحطاط الأخلاقي، اراد ان يكون صوتا ناشرا يلفت انظار رجال الدين واصحاب التزمت ويبني من وراء قوله قصرا من الشهرة وحسن النظر. ثم إن ابا العتاهية قد تردد احيانا بين الغزل والزهد، وكان ذا شخصية ضعيفة متذبذبة لضعف في ارادته وخور في همته. وعلى كل حال فقد نصب نفسه للهداية وكان عمله جليلا.

4. **قيمة زهده:** اظهر ابو العتاهية في زهدياته ازدراء للحياة جما، وقد لفها بغشاء كالح السواد من شأنه ان يبعث على اليأس والقنوط، الا انه على تشاؤمه، قد اسدى الى الناس نصحا ذا قيمة حقيقية، ووجه كلامه الى عقولهم مقدما لها البراهين والحجج، غير مكتف باساليب الاقدمين الاختبارية، فهو في عصر فلسفة وتفكير، وهو في عصر علم وجدل، وهو في عصر نصب فيه للعقل عرش رفيع. وقد استقى افكاره من الكتب الدينية ونظريات الفلاسفة كما استقاها من عالم التجربة والاختبار. وراح يدعو الى القناعة لان الدنيا دار فناء، والآخرة خير منها، فما يبنى يبنى للخراب، ومن يولد يولد للموت، وما يجمع يجمع للتفريق، وما يعتنى به من امر الجسد آخرته الفناء، وما يضحك لا يضحك الا ليبكي، فعلى الانسان ان يعيش كمن سيموت، يكتفي بالضروري، ويتسلح بالتقوى، وهكذا يتأهب للآخرة، ويذخر لنفسه اجرا عند الله.

5. **شاعر الغزل:** في غزل أبي العتاهية عاطفة عميقة متألمة، ولهجة يظهر فيها الضعف الانساني بجلاء، وكأني بتلك النفس قد فقدت مناعتها واصبحت اسيرة حب لا تجد منه الا الما وحرمانا.

أحمد قال لي، ولم يدر ما بي ◻ أتحب، الغداة، عتبة حقا؟

فتنفست، ثم قلت : نعم ح ◻ سبا جرى في العروق عرقا فعرقا

لو تجسين يا عتيبة قلبي ◻ لوجدت الفؤاد قرحا تفقا

قد لعمري مل الطبيب ومل ال ◻ أهل مني مما أقاسي وألقى

ليتني مت فاسترحت فإني ◻ أبدا ما حييت منها ملقى

وغزل أبي العتاهية هو مزيج من رشاقة وسلاسة وعذوبة، هو النفس الضعيفة الحساسة التي تصعد الزفرات والآهات في لوعة، وكأني بشعرها يسيل سلان الماء الصافي على حصباء نقية فيسمع له خرير هو أقرب الى المناغاة والمناجاة منه الى اي صوت مادي، وهو حفيف الضلوع مرددة نبضات قلب ناعمة، ووسوسات نفس ارق من النسيم

6. **شاعر المدح:** كان مدح ابي العتاهية للتكسب اكثر مما كان إرضاء للعاطفة، وكان تقليديا اكثر مما كان تجديديا، ولكن الشاعر أخرجه في اسلوبه السهل وعذوبته المعهودة وخرج في هذه الناحية عن عادة من سبقه، وكان مجددا حيث درج على اساليب التقليد. وشأنه في رثائه شأنه في مدحه، وليس الرثاء الا مدحا لميت واعتبارات عامة تدخل في باب الزهد.

وقد عالج ابو العتاهية غير الابواب المذكورة كالعتاب والهجاء وما الى ذلك، وكان ابدا شاعر الحكمة التي لا تنضب، وشاعر السلاسة التي لا يحدها حد، وشاعر العذوبة التي لا يجف لها معين.

أبو نواس (145-199هـ)

تاريخه

ولد الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس سنة 145هـ/ 762م في الأهزاز بخوزستان، ثم اقترنت برجل من أهل البصرة، فأصبح أبو نواس يتيم الأب والأم، وكان يعمل في حانوت عطار يبري له أعواد البخور، ثم ينتقل بعد عمله الى المسجد الجامع. أتيح له أن يلتقي بوالبة بن الحباب الأسدي، وكان شاعرا ماجنا أعجب بأبي نواس ومواهبه فاصطحبه الى الكوفة حيث حضر مجالس الشعراء والمجان. عاد إلى البصرة واتصل بخلف الاحمر الذي أمره ان يحفظ كثيرا من القصائد. وفي 795م انتقل الى بغداد يائسا قلقا فأكب على شرب الخمرة، واتصل بالبرامكة ومدحهم، وهكذا عاش أبو نواس عيشة لهو الى ان انحل جسمه أخيرا وتاب.

شخصيته

جمال وظرف وسرعة خاطر: أبو نواس من أولئك الأشخاص الذين جنى عليهم الدهر فأحسن اليهم من حيث جنى إذ فجر عبقريتهم، وارسل شعرهم عصارة من فؤاد، وخلاصة حياة، وموكب آراء ونظرات. فقد نشأ يتيما حرم عظف الأبوة كما حرم الساعد التي يستند اليها في الملمات. نشأ في كنف ام تركت طفلها العوبة في يد الاقدار، يتجاذبه الأتراب الى لهو او شراب، وكان الطفل جميل الطلعة ميالا الى الدعابة والفكاهة، وكان سريع البديهة، حاد الذكاء، سريع الخاطر، وكان له بسبب ذلك أثر عميق فيمن يعاشره.

عقد نفسية وحزن في الأعماق: والذي عقد نفسية أبي نواس، أو زادها تعقيدا، ما لقيه من جنان، وما عاناه بسبب ذلك الحفاء. ولهذا كان في قرارة نفسه دائم الحزن والهم، وقد أكثر من التلميح الى همه في وصفه الخمر التي تبدد الهموم وتكشف الغيوم. وهكذا عاني تجربة قاسية علمته أن الحياة صراع دائم بين الرغبة والخيبة، وانها ميدان شقاء لا فرار منه الا بتخبيل قوى الوعي.

شذوذ جنسي وفلسفة خاصة: وصادف ذلك من نفس أبي نواس ميلا خفيا الى الغلمان، فانقطعت كل صلة تربطه بالمرأة، ولم يعد يحس بهذا العطف الغريزي الذي يكون بين الرجل وبينها، وراح يتخوف من المرأة ويتجنبها، وقد بقي الحسن على حد قول أحمد الغزالي – طيلة حياته وهذه العقدة النفسية تصرف مشاعره، وتحدد علاقاته بالناس، وتجعل له في المرأة والحياة فلسفة خاصة.

مؤمن عاص: يتضح لنا مما سبق أن أبا نواس كان في حالة نفسية غريبة وان تلك الحالة زجته في حياة المعصية، وقادته الى فلسفة خاصة في الدين والحياة. فقد كان مرهف الحس الى حد بعيد، فتغلبت عليه نزعاته وميوله. وهذا أمر لا بد من التنبه له لفهم آرائه، كما أنه لا بد من التنبه لأمر آخر هو أن أبا نواس قال القسم الكبير من شعره الذي نثر فيه آراءه في الدين والحياة حين كان في سكرة الحمرة والطرب أو في حالة تقرب من ذلك، وكتب الأدب مليئة بأخبار سكراته ونشواته الشاعرات.

ومما لا شك فيه أن الشاعر كان مؤمنا في قرارة نفسه، أي ذلك المؤمن الذي لا يقيده قيد ديني، ولا يضبطه ضابط اخلاقي، فهو المؤمن العاصي، وما تصريحه بالكفر في بعض شعره إلا تظرف وامتداد للمعصية والانفعالات الجنسية وما الى ذلك.

ألم ترني أبحت اللهو نفسي وديني، واعتكفت على المعاصي

كسأني لا أعود الى معاد ولا أخشى هنالك من قصاص

يا ناظرا في الدين ما الأمر لا قدر صح ولا جبر

ما صح عندي، من جميع الذي تذكر، الا الموت والقبر

سخط على النفيس : هكذا أراد أبو نواس أن يهرب من حقيقة الحياة، وهكذا وجد في الخمرة لذة جنسية. وهذا التشهير بالنفس من أبي نواس هو في حقيقته اعلان عن كل سخطه على عقدته الدفينة، وبرمه بالتوائه الذي لم يستطع له إصلاحا، فهو يحول سخطه الى نفسه، ويتلذذ بالانتقام منها بأقصى انتقام يستطيعه. وإن في هذه المجاهرة بالفسوق دليلا على إصابته بهذا الداء الوبيل الذي يدفعه في حمية انفعاله العصبي الى ان يجد لذة عنيفة في فضح نفسه والتشهير بها، والحاق العار بها وهتك الستر عن علته، وعرضها على انظار الناس اجمعين.

تلك نظرة وجيزة في نفسية هذا الشاعر الذي قست عليه الحياة فاراد ان يستخلص منها فلسفة لحياته، كانت فلسفة التهتك الفاجر والصارخ، وكانت فلسفة النشوة التي تنقل صاحبها الى غير الواقع وتقدم له متعة الواقع في غير تضييق ولا اقتصاد، ولكنها متعة مبطنة بالالم وناجمة عن نظرة عميقة في تفاهة الحياة.

الشعر الخمري عند العرب ومحل أبي نواس منه

في الجاهلية: توقف الجاهليون في وصف الخمرة عند مظاهرها الخارجية وأشاروا الى مفعولها في النفس، وراجوا في تكشيف المادة التصويرية، يقلد بعضهم بعضا، ويكرر بعضهم أقوال البعض الآخر، حتى كان لدينا تراكم أصباغ وأشكال، في غير تحليل صحيح للماسي النفسية التي تنشأ عن نشوة الخمرة.

وهكذا فالشعر الخمري عندهم إلمامة سريعة، ولكن فيها نواة الشعر الذي قيل بعدهم في الموضوع، وكأنى بشعراء العهدين الأموي والعباسي قد اكتفوا بتفصيل ما أجمل الجاهليون إلا أبا نواس الذي كان صاحب مدرسة خاصة في الشعر الخمري عند العرب.

في العهد الأموي: حرم الإسلام الخمرة فتقلص ظلها في الشعر الإسلامي الأول، ثم كان عهد بني أمية، وقد انتشر الترف والغنى في بعض الأصقاع، فتهافت الناس على متع الحياة، وكان للخمرة في مجالس الحجاز والشام والعراق مكان مرموق، ولا عجب، والحالة هذه، في أن يزدهر الشعر الخمري، عهد بني أمية وفي أن يكون للخمرة أنصار وأعوان.

والجدير بالذكر أن شعراء هذا العهد لم يضيفوا الى معاني الجاهليين شيئا جديدا، بل اكتفوا بالترديد والتكرير، كما اكتفوا بالتفصيل والتجزي، والإكثار من الصفات التي لا تتعدى نطاق الظاهرة.

ومن أشهر من عالج الشعر الخمري في العهد الأموي الوليد بن يزيد الذي نشأ مستهترا يميل الى اللهو والخمر والصيد ويحب معاشرة الظرفاء ومنادمة الأدباء والخلعاء والمجان وسماع الغناء ومجاراة أهواء النفس. ومعاني شعره تعبير عن تجربة نفسه، في رقة عذبة وصدق مؤثر وسهولة شفافة.

وأشهر شعراء الخمرة على الإطلاق، في هذا العهد، الأخطل شاعر بني أمية.

في العهد العباسي وما بعد: عكف الناس على الخمرة في العهد العباسي لا تساع الحرية الفردية والجماعية في ناحية الأخلاق، ولا ندفاق الأعاجم على العنصر العربي اندفاقا عم السياسة وشتى نواحي الحياة. إلا أن المجون والشرب بقيا في مطلع العهد محصورين ضمن نطاق ضيق وفي بيئات محدودة، كان مقصورين على طائفة الخلعاء والمستهترين، يمارسونهما في مجالسهم الخاصة أو في بعض المحلات العامة في شيء كثير من التستر والاستخفاء، ذلك لأن الرأي العام في المجتمع الإسلامي حينذاك كان يستنكر المجون ويأباه، ولأن السلطان كان يطارد الماجنين وينزل بهم العقاب ما استطاع الى ذلك سبيلا، فالاحوص والعرجي والوليد وابو نواس وأضرابهم كانوا يلقون من الحكومة أذى واضطهادا ونفيا وسجنا كما كانوا يلقون من الناس نبذا واعراضا واستنكارا. ولم يكن الامر كذلك في العصور التابعة، إذ أصبح المجون شيئا مألوفا لا ينكره العرف ولا يأباه الذوق الاجتماعي، وانطلق الناس في تطلب متع الحياة انطلاقا شنيعا، وأصبحت الخمرة على موائد العامة والخاصة وعلى لسان الشعراء يتغنون بها في كل مجلس. وأكبر ممثل للشعر الخمري في العهد العباسي هو أبو نواس زعيم هذا الباب عند العرب.

Unit IV

ابو تمام

تاريخه

هو حبيب بن اوس الطائي، المعروف بأبي تمام. ولد في قرية جاسم بحوران سنة 180هـ/796م. ونشأ في دمشق يعمل عند حائك، ثم انتقل الى حمص حيث نظم قصائده الأولى وحيث صادف الشاعر ديك الجن (777-849م) وأخذ عنه بعض أساليبه، ولا سيما في ما هو من الصناعة اللفظية، ثم انتقل الى مصر حيث تردد الى حلقات الأدب والعلم ينهل منها ما شاء له الحظ ان ينهل، ثم ضاقت به الحال في مصر فانتقل الى الحجاز فارمينية وفارس وجال فيها من غير ما كبير جدوى ومن غير أن ينال بشعره ما كان يصبو إليه من سعة العيش. واخيرا سمع به المعتصم فاستقدمه وجعله شاعر بلاطه واصطحبه في حملته الموفقة على عمورية. وبعد ذلك عاد الشاعر الى الضرب في البلاد والاتصال بأرباب السلطان، فتنقل من مكان الى مكان حتى بلغ الموصل ولقي إكراما خاصا لدى الحسن بن وهب كاتب ابن الزيات، الذي أقر له مقاما في الموصل وولاء على بريدها، وقد لبث أبو تمام على ذلك سنتين توفى على اثرهما سنة 228هـ/843م.

شخصيته

يبدو لنا أبو تمام رجل الانفعالات الشديدة الذي تعصف به العاطفة فتخرجه عن نطاق الاتزان الفكري والتعبيري فينطلق في أجواء عبقريته تدفعه طبيعته القيضة، فيجوس آفاقا واسعة ورفيعة، ثم يهبط في انحدار شنيع، وهو في سورة صخبه يتنزى بنزيات عنفوان، وتنزيات اعتداد بالنفس وطموح. إنه الرجل الذي يريد من الحياة اكثر مما تريد له، والذي يطمع في العظمة والجاه أكثر مما قدر له، ويرى في نفسه من المقدرة والطاقة ما يبعث فيه الثقة بالنفس والتطاول على الغير.

وهو الى ذلك رجل العقل الذي جمع من ثقافة العصر، وحكمة اليونان والفرس، ما لم يصل إليه أكثر شعراء عصره، ورجل الخيال العنيف والجبار الذي يستطيع بشطحة قلم أن يرفع أمامك عوالم قلما يطمح إليها غيره، ورجل التفكير العميق الذي تتصادم عنده الأفكار في قوقعة مؤثرة، ورجل الانفرادية الفكرية الذي تبلغ به الانفرادية حد الشذوذ، ورجل التقليد العربي الذي لا يحول تقليده دون الافتتاحات الفلسفية او دون مباشرة الموضوع في بعض قصائده بغير مقدمات.

وهو رجل التدين ورجل القومية، ولكن عصبيته الدينية لا تحول دون تكالبه على متع الحياة والإغراق في تطلب لهوها، وعصبيته القومية لا تقف عند حد التفاخر والتباهي بل تتجاوزها الى حد التشقى القبيح البعيد عن كل انسانية.

ادبه

الديوان: لأبي تمام ديوان طبع في مصر وفي بيروت، وفي بيروت طبع مرة بإشراف شاهين عطية، ومرة بإشراف محيي الدين الخياط، وهو مقسم سبعة اقصام: المديح، الهجاء، المعاتبات، الاوصاف، الفخر، الغزل، المرائي.

ديوان الحماسة او حماسة ابي تمام: هو مختارات جمعها ابو تمام من اشعار العرب العرباء ورتبه على عشرة ابواب اهمها: الحماسة، المرائي، الادب، النسيب، الهجاء، الصفات، الملح، مذمة النساء. وقد طبع الكتاب مرارا في الهند ومصر. وللحماسة شرح مشهور وضعه الشيخ ابو زكريا التبريزي. طبع مرارا مع الديوان وتزجم الى الالمانية.

ابو تمام شاعر المدح

معظم شعر ابي تمام في المدح لانه كان من الشعراء المتكسبين، مدح في مصر عياش بن لهيعة وإذ لم يظفر منه بكبير طائل هجاه، ومدح في الشام أبا المغيث موسى الرافعي فلم يجد لديه الحظوة التي كان يبتغيها، وراح يضرب في البلاد ويمدح كل عظيم وكل ذي نفوذ، ولم تقبل عليه الدنيا إلا عندما اتصل بالمعتصم واصبح شاعر بلاطه وفيقه في غزواته. وهكذا فقد مدح ابو تمام اكثر من ستين شخصا لطمعه ي المال والشهرة، وقد تحققت آماله بعد صبر طويل وسعي عنيد.

معاني مدح أبي تمام هي المعاني اتليدية مضخمة، هي تلك التي تعود الشعراء ان ينعتوا بها الممدوحين، والتي كان الممدوحون يرتاحون إليها وتطيب نفوسهم بها، وهي التي كانت تنفذ إلى النفوس والجيوب، وتمهد للشاعر طريق الثروة والبحبوحة، أعني بها معاني الشجاعة والإقدام، وحسن التبصر والفطنة، وبعد النظر في الناس وفي الامور، والسيطرة على العدو والفتك بكل عنيد جبار، والإخلاص للدين وأبنائه، والإتيان بالجليل من الأعمال، والسمو الى كل رفيع ومتعال، وخصوصا معاني الكرم والجود:

هو البحر من أي النواحي اتيته □ فلجته المعروف والجود ساجلة

تعود بسط الكف حتى لو انه □ ثناها لقبض لم تطعه انامله

كثيرا ما يجري أبو تمام في مدحه على أسلوب الأقدمين، وقد يعدل عنه فيفتتح القصيدة بحكمة عميقة، أو بقول يتصل بعلوم عصره كما فعل في بائيته التي تكلم فيها على فتح عمورية ورأى في افتتاحها ان السيف أصدق انباء من كتب المنجمين. وقد يباشر موضوعه مباشرة احيانا في غير مقدمات ولا ممهدات. قال عندما قتل المعتصم الأفشين واحرقه لظهور خيانته ومجوسيته

بعد ان اظهر الإسلام:

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

مدح أبي تمام صخاب، هدار يركب البحور الطويلة التي تتسع للمعاني الجليلة والمواقف الملحمية، وتتدافع الابيات في زخم جياش، وتتدافع الصور يخلقها خيال جبار تستهويه الصور القوية التي تتسم بسمة الإغراب، فيركبها بعضها في بعض، ويلونها بالوان متصقبة، متباينة، متفارقة، ويزج فيها من الزخارف البيانية والبديعية كل ما يزيدها قوة وبروز خطوط، ويختار لها من القوافي ما هو كالسهام طعنا ووقعا، حتى لكأنه يكتب بنفسه وعنفوانه وجيشان عواطفه.

وأبو تمام مسرف في تعمد الجناس والطباق يجد فيهما رياضته النفسية والشعرية، ويجد فيهما صدى لما في خلقه من تطلب للغريب، وما فيه من ميل الى التعقيد والتأثير عن طريق الاصداء المتوافقة او المتفارقة، قال:

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وابو تمام مغرم كذلك بالاغراب الفكري والتعبيري، وسواء عنده فهم القارئ ام لم يفهم. يهمه ان يلبي حاجة نفسه الى الصناعة العقلية التي تسم شعره بسمة الغموض والتعقيد.

وفي مدح ابي تمام لهجة ملكية ارسطقراطية تسير في جلال ورونق، كما فيه نزعة ملحمية من جراء وصف المعارك ومواقف القتال، والتفخيم والتضخيم، والتشخيص وبث الحياة في كل شيء.

وإننا إذا ألقينا نظرة على بائية ابي تمام في مدح المعتصم وفتح عمورية وجدنا ان القصيدة مزيج من فن غنائي وفن ملحمي. اما الغنائية ففي التعبير عن شتى عواطف الشاعر من حماسة تجيش في كل سطر وكل عبارة، الى ايمان بقوة السلاح، الى نشوة الانتصار في عمورية، الى اعجاب بالخليفة، الى غير ذلك مما يتسم بسمة العصف الشديد، والحيوية التي لا تخلو من عنف. واما الملحمية ففي ذكل الاسلحة ووصفها، وفي وصف القتال واحراق عمورية، وفي سرد اخبار المعتصم الحربية، وفي المغالاة الاسطورية، والموسيقي الشديدة الوقع التي تتصاعد من وزن القصيدة وقافيتها، واخيرا في الروح القومية التي تعلي شأن العرب وتحط من قدر الروم البيزنطيين.

وفي القصيدة ترابط فكري هو ثمرة الحياة العباسية التي زخر جوها بالعلم والفلسفة، فالشاعر يفتتح قصيدته بمقارنة بين السلاح والتنجيم، ويجعل السلاح طريق الانتصار، ثم يجعل فتح عمورية برهانا على صحة نظريته فيصف ذلك الفتح، ثم ينتقل الى الخليفة الذي قام بذلك الفتح ويطرئ شجاعته وبطولته. وهكذا تلمس في القصيدة بناء متلاحم الأجزاء.

وفي القصيدة خيال عجيب المقدرة على خلق الصورة، وتركيبها تركيبا حافلا بالتعقيد، وأبو تمام شديد الاعتماد على الصور للتعبير عن معانيه، يسكب عليها من انفعاله النفسي حياة وحركة، وهو لا يرضى بالطبع معينا وحيدا لفنه وشعره، بل يعمد الى التهذيب والتثقيف ويمعن في ذلك إمعانا حتى لتحسب ان ابياته مصوغة صياغة صنعة فيها كثير من التعمل، وطلب الغريب في التصور والتخيل. ولئن اسف ابو تمام احيانا في تعمله فهو ولا شك شاعر التليق والتدويم، ولشعره قوة وشدة اسر فريدتان.

ابو تمام شاعر الرثاء

لأبي تمام نوعان من الرثاء: رثاء تفجع وألم يقوله في ذويه واصدقائه المتوفين، ورثاء مجاملة يقوله في غيرهم من الناس. اما الاول فيكشف لنا عن عاطفة صادقة وعميقة، وعن قلب رقيق، عند رجل عانق القوة، وتلح بالعنفوان، ودوى صوته عاليا في البلاط يطرئ الشجاعة والصلابة ومواقف العنف. وأما الثاني فيكشف عن روح التملق والممالأة او التكسب، وهي روح بعيدة عن الصفاء وشعرها بعي عن الفن الحقيقي والغنائية النابعة من العمق الحياتي. وفيما نرى الشاعر في هذا النوع الثاني يتخذ الصناعة اللفظية اسلوبا، والتفخيم والمغالاة مذهبا، معتمدا الآراء العامة والاعتبارات التي تنوب عن المشاركة الحقيقية في اللوعة، نراه في النوع الاول يذوب أسى ويتحول عنفه فيه الى يأس من الحياة والى انحطام مريع، ويتحول تعقيده الشعري وتصنعه الى انسكاب حافل بالسلاسة وشديد التأثير:

بني، يا واجد البنينا □ غادرتني مفردا حزينا

هون رزني بك الرزايا، □ علي، في الناس اجمعينا...

تصرّف الدهر بي صروفا □ وعاد لي شأنه شؤونا

اصاب مني صميم قلبي □ وخفت ان يقطع الوتينا

سائر فنون ابي تمام

لأبي تمام، فضلا عن المدح والرثاء، مقطوعات غزلية تختلف شديد الاختلاف عن الافتتاحيات التقليدية، وتمتاز برقة العاطفة، وصدق الانفعال، وعذوبة الكلام، وله إخوانيات عبر فيها عن اهمية الصداقة وعن الصفات التي يجب ان يتحلى بها الصديق، وعن اثر الحب الاول في نفس الانسان، وذلك في كلام لا تكاد تصدق انه لأبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى □ ما الحب الا للحبيب الاول

وله ايضا وصف يمتاز بدقة الملاحظة، وبعمق التحليل، وتتجلى فيه نزعة الشاعر الى التنميق واعتماد المحسنات البيانية والبديعية.

ابو تمام الشاعر

أوتي ابو تمام عبقرية شعرية فريدة، يرفدها خيال واسع الآفاق عجيب الشطحات، يسمو سموا بعيد المدى، ويأتي بالعجيب من الصور والالوان.

وأبو تمام رجل ثقافة وعقل ومعرفة توفر على المعاني، وراح يقتنصها من اعمق اعماقها، ويرسلها بعيدة الغور، جليلة القدر، كما يرسلها احيانا حكما للهداية ضمنها نظرات قيمة في النفس والحياة فعرف بشاعر المعاني،

وهو شاعر صناعة لفظية ومعنوية بلغ به التصنيع حد الإسراف في الزخرفة والتعقيد والإغراب، بل حد التعسف والسماجة احيانا

وهكذا كان أبو تمام رجل العبقرية الشعرية الخصبة، ورجل الشعر العالي والأدب الرفيع.

المتنبي (303-354هـ)

نشأته وحياته

ابو الطيب احمد بن الحسين المتنبي، ولد بالكوفة من ابوين فقيرين، كان ابوه سقاء بالكوفة: ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلا من البادية الى الحاضرة يسلمه الى المكاتب، ويردده في القبائل، ومخايله نواطق بفضله، ضوامن لنجحه، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر، ونال حظه من علوم اللغة والأدب، فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتسابا للمجد.

وكان المتنبي منذ نشأته كبير النفس، علي الهمة، طموحا إلى المجد: بلغ من كبر نفسه ان دعا إلى بيعته بالخلافة وهو لدن العود حديث السن. وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والى البلدة فأمر بحبسه. فكتب اليه من السجن قصيدة منها:

اما لك رقي ومن شأنه هات اللجين وعتق العبيد
دعوتك عند انقطع الرجاء والموت مني كحبل الوريد
دعوتك لما براني البلى واوهن رجلي ثقل الحديد
تعجل في وجوب الحدود وحدي قبل وجوب السجود

فاطلقه. ولكنه حب الرياسة لم يزل متمنا من قبله الى ان اخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره. وفي سنة 333 ادعى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة ادبه وسحر بيانه، ولما سئل عن النبي صلعم قال: انه بشر بمجيئي واخبر بنبوتي فقال: لا نبي بعدي، واما اسمي في السماء (لا). وصنف كلاما عارض به القرآن. فلما اشتهر امره قيض عليه لؤلؤ امير حمص نائب الاخشيدية، فأوثقه ثم اطلقه بعد ان استتابه. وتفرق عنه اصحابه. فطفق يتجشم اسفارا ابعد من آماله، ولا زاد الا صبره، ولا عدة الا باسه.

ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبي العشائر والى انطاكية من قبل سيف الدولة وامتدحه، فاكرم مثواه وقدمه الى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب فضمه الامير اليه وحسن موقعه عنده، فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسية والطراد حتى لا يفارقه في الحرب ولا في السلم.

ولم يزل معه في حال حسنة حتى حدث بينهما جفوة ففارقه إلى مصر في سنة 346هـ. ومدح كافورا الاخشيدي وابا شجاع. واقام في مصر خمس سنين يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله.

حتى اوجس كافور خيفة، لتعاليه في شعره وطموحه إلى الملك، فزوى عنه وجهه، فهجاه وقصد بغداد. ولم يمدح الوزير المهلبي لأنه كان يترفع عن مدح غير الملوك، فشق ذلك على الوزير فاشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن شعره. ولكنه لم يجبهم، وذهب قاصدا ارجان لزيارة الفضل بن العميد، فكتب اليه الوزير الصاحب بن عباد يستزيره باصبهان طامعا ان يمدحه فلم يقم له وزنا وام عضد الدولة بشيراز. فاوغر عليه قلب الصاحب واخذ يتتبع هفواته، وهو اعلم الناس بحسناته – وشن عليه هو واشياعه حربا قلمية، والفوا الكتب في نقده، ورموه بالسرقة والخروج عن الأساليب العربية، وهو لا يأبه لهم ذهابا بنفسه واعجابا بشعره.

ولما حصل عند عضد الدولة، اسبغ عليه نعمته، ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب، ثم دس عليه من يسأله: اين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له: هذا اجزل الا انه متكلف، وسيف الدولة كان يعطي طبعا. فغضب عضد الدولة من ذلك. ويقال انه جهز عليه فاتكا الاسدي في قوم من بني ضية، فعرض له بالصافية من سواد بغداد واقتتلا. فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار.

المدح

أكثر المتنبي من المدح لأن هدفه كان يقتضي الإكثار، وقد مدح العربي والفارسي والافريقي لا اعجابا بهم على انهم ن هذا الاصل او ذاك، ومدحهم جميعا بصفات وحسنات لا اعجابا بتلك الصفات والحسنات، وان كانت في بعض الاحيان ذات صلة بالحقيقة الشخصية في الممدوح، وعدد امجادا وافعالا، لا استغرابا منه لمثل تلك الامجاد والافعال. انه مدح لينال اولا، وليصل الى هدفه ثانيا، ومدح اخيرا تضخيما للممدوح، وبثا للثقة فيه على انه عظيم من العظماء، ومشهور مع المشهورين، وخالد مع الخالدين، وان كان احيانا في نظر المتنبي من احط الناس شأنا ومن ادناهم قيمة وقدرا.

والمتنبي في القصيدة متفلسف تظهر نزعته الفلسفية في استعمال القياس المنطقي، وربط الافكار بعضها ببعض، واقامة الحجج العقلية، واستعمال الالفاظ والتعبيرات التي استعملها الفلاسفة. انه افتتح قصيدته على غير عادة الشعراء السابقين، واراد تعجيز الحكماء ومدعي الحكمة في بلاط الامير، فكان كلامه مقدمة كبرى لقياس منطقي على سنة رجال المنطق، وجعل من قول الفلاسفة بان العادة طبيعة ثانية مبدأ اساسيا ترتكز عليه آراؤه التي سيدلي بها. والعادة كالطبيعة مبدأ عمل، ومصدر افعال. وهكذا فكل انسان وما تعود، والحال ان سيف الدولة دائم الطعن في الاعداء ودائم الفتك بهم، ومن ثم فقد هان عليه كل شيء، وذلت له الملوك والسلاطين، ومن جملة اولئك السلاطين ملك الروم الذي شهد حطمة كبرى في معركة الثغور... وهكذا ترى الافكار متلاحقة متماسكة الى آخر القصيدة، وترى سيف الدولة من اهل الرأي والحكمة، بل يفوق فيهما الناس اجمعين، وترى الحجج متراصة في إيجاز ودقة وعمق... وترى ان الشاعر يتعمد التفلسف تعمدا ويقصد اليه قصدا.

والمتنبي في هذه القصيدة عالم من علماء اللغة والبيان، يسيطر على اللغة والعبارة سيطرة شديدة، فتنقاد له اللفظة مهما كانت عويصة، وتصبح اداة اداء بحروفها وموسيقاها اللفظية وموقعها من غيرها، انها تفيد المعنى قبل ان يوصل اليه، وهي ابدا قوية مدوية يرسلها الشاعر صواعق في اذن السامعين والقارئين، وكاني بمجمل الالفاظ جيوش فرسان متراصة الجوانب، منقضة انقضاضا رهيبا تساندها المهارة في استعمال وجوه البيان والبديع مساندة تزيدها قوة والتحاما. اقرأ هذا البيت مثلا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مضر كوضع السيف في موضع الندى

انه من نماذج الحكمة ومن مبادئ الاجتماع والسياسة، وهو من موحيات اسم سيف الدولة وحاجة الشاعر الى الندى بل هو سيف الدولة والمتنبي في تفاعلهما وعلاقة الواحد منهما بالآخر، وهو الى ذلك مجموعة من الدالات والضادات وكأن تتابعها قرع طبول ووقع سنابك، وهو مجموعة استعارات وطباقات تتجسم فيها الصورة تجسما بعيد المدى، عميق الامتداد...

والمتنبي في القصيدة حكيم ينثر الحكم دروسا اخلاقية واجتماعية وسياسية. وحكمه ثمرة قياس تفكيري، ونتيجة نظر دقيق في احوال الناس وحقيقة طبائعهم، وفي احوال الوجود الارضي وما يكتنفه من ملابسات. وهو ان ارسل الحكم لا يرسلها عن عبث، وإنما يستخلصها من مقدماته التفكيرية ومن تجاربه الحياتية، ويرصها في ذهن سيف الدولة لتكون عنده مبدأ عمل، اي مقدمة لقياس تكون نتيجته العمل. وهكذا فالحكمة عند الشاعر شديدة الفاعلية، بعيدة الاثر، وهي في تراص الفاظها، وانضغاط تعابيرها، وروعة بيانها، من اشد عوامل التأثير وتدعيم المعاني.

الرثاء

كان لا بد للشاعر في حياته الرسمية ان يرثي طائفة من الناس ذات صلة بمن يمدح، واننا إذا استثنينا جدته لأمه التي رثاها قبل اتصاله بسيف الدولة، نرى الرثاء عنده يكاد ينحصر في أم الأمير الحمداني وأختيه الصغرى والكبرى، وأبي شجاع فاتك. والمتنبي في رثائه يقف من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسي.

وهكذا تجد المتنبي بعيدا عن الضعف العاطفي. انه ينظر الى الموت نظرة المتألم المتأمل، وقد يثور في تألمه لا على الموت الذي لا بد منه، ولكن على الدهر الذي يحارب الأحرار، وعلى الحساد الذين يعكرون صفو الحياة. وانه في رثاء جدته يطلق العنان لسخطه على الناس والوجود، ويندفع في ثورته الاسماعيلية القرمطية موعدا مهددا، ويعلن ان الحظ والعقل لا يجتمعان، وان العقل مظلوم في عالم الكون والفساد، وان الحق من ثم للقوة.

الهجاء والعتاب

قد يصد المتنبي ويطعن في امله فيهجو. ولم يكن هو من المولعين بالهجاء او الميالين إليه طبعا وسليقة، ولم يكن ليعيره اهتماما حقا، ولم يكن الناس عنده، مهما عظموا، اهلا لأن يخصهم ولو بشيء من هجاء. ولذلك ندر هذا الفن في ديوانه، فاتى غضبة عارضة يثور فيها الشاعر على كاذب، مثل كافور، لا يصدق له وعد، او يثور فيها على رجل كابن كيغلغ ابي الشاعر ان يمدحه فحاول إيذاءه. واما هجاؤه لضبّة فقد اكره نفسه عليه اكراها نزولا عند رغبة بعض الرفاق من الكوفين. وهكذا فالهجاء عند المتنبي انتقام لكرامة، واثثار من زمان خائن، واشمثزاز من دناءات، واحتقار للؤم، واستصغار لمجموعة من البشر على وجه الارض. ومن اشهر شعره الهجائي داليته في كافور، ومما جاء فيها:

عد باية حال عدت يا عيد ☐ بما مضى ام لامر فيك تجديد

اما الاحبسة فالبيداء دونهم ☐ فليت دونك بيدا دونها بيد...

الفخر

عوامل فخره: كانت حياة المتنبي نسيج آلام ممضة، فهو ابدا بين آمال رحبة، وخيبة قاتمة، تجسم له مخيلته الجبارة رغائبه، فتعظم بحكم الحال فشله، ويتناهي به طموحه وطمعه الى حدود لا تنال، فتتنكر له الاحوال ويبقى من دونها كاسفا، مقيدا، ساخطا، عاجزا عن تحقيق المآرب، وقد يتوفق الى بعض الحظ، فيحسب نفسه قد اضحى سيد الكون، وان بين يديه قوة قهارة، فريدة، لا يستطيعها

غيره، ويحسب انه فوق الجميع، وقادر على كل شيء، وان كل ما يريده طوع مشيئته، ويمضي على هذا النحو من المغالاة، مسرفا في الاعتداد بنفسه، الى ما لا يتصور عقل، لا يرجع عن غوايته واوهامه، حتى يصطدم بالحقيقة المفجعة وسرعان ما يصطدم بها، فيعود الى حاله من الالم والفجيعة، ولكنه لا يرتدع بذلك، بل يصر على غروره، ويعود الى الاعتداد بنفسه واذا هو فرد الزمان، وعنوان الحزم والعزم، ليس له في الوجود مثيل، وهو وحده رجل الفهم والعقل، وكل ما خلق الله وما لم يخلق، محتقر في همته كشعرة في مفرقه، وهو في قومه كصالح في ثمود، يسير لا مستعظما غير نفسه وهو ايضا في نظر نفسه منفرد في الشعر، هو وحده الشاعر والآخرون الصدى، بل هو رب القوافي، والى جنب هذا كله يرى ان ممدوحيه يزجونه احيانا مع رعيل سائر الشعراء، من غير ما تمييز، وفي كثير من الاهمال وقلة المبالاة، وقد يصغون الى الشعراء ويعرضون عنه ... وهو يزدري الناس لأنهم يراؤون وينافقون، ومن أقبح ما فيهم انهم ينهون عن امر ويأتون بمثله، ومن الثابت الواضح ان المعاكسة الملازمة لرغائبه، والخيبة المقيمة في آماله، وذلك الاستخفاف من قبل بعض الناس بقدره، كل ذلك مضافا الى نشأته القرمطية الاسماعيلية، والى نفسيته المعقدة، وعنجهيته التي ركبت في طبيعته، كل ذلك كان سببا مهما من اسباب الآلام التي رافقته سحابة حياته، والانفجار الفخري الذي تردد دويه في شتى مواقفه الشعرية.

شاعر الحكمة

مصادر حكمته وعواملها: اكثر ابو الطيب المتنبي من ارسال الحكم وضر الامثال في شعره. وانك كيفما قلبت ديوانه وقفت على كنوز من الحكمة التي كانت من اقوى عوامل شهرته وانتشار شعره بين العامة والخاصة. والحكمة عنده ثمرة تجربة حياتية وتفكير عميق. فهو رجل آلام واطماع، وهو رجل اسماعيلية متفلسفة وقرمطية ثائرة، وهو رج تأمل في ما انتابه من معاكسات الايام، ومنافسات الحساد ومناوآت الزمان واهليه، وهو اخيرا رجل ثقافة واطلاع، افاد من فلسفة الاغريق وفلسفة الشيعة علما واسع النطاق، وكان له من مجتمعه وما آلت اليه الأحوال من الفوضى والاضطراب دروس وعبر، كما كان له من عالمه الذاتي، وغيبى نفسيته، وقوة شخصيته، ينبوع دافق تجمعت فيه شتى العوامل وانفجرت حكما وآيات في وجيز من القول مرصوص الجوانب، مضغوط الالفاظ، محكم البناء اروع احكام، مصقول الحواشي احسن صقل، بحيث ينساب الى النفوس انسابا، ويعلق في الاذهان علوقا شديدا.

ابو العلاء المعري (363-449هـ)

هو احمد بن عبد الله سليمان التنوخي نسبة الى تنوخ احدى قبائل اليمن. ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من ابوين شريفين. فقد كان ابوه من افاضل العلماء وجده قاضيا بالمعرة. فلما بلغ الرابعة من عمره اصيب بالجدري فذهب بيسرى عينيه وابيضت اليمنى، فنشأ ضريرا لا يعرف من الالوان الا الحمرة لانهم البسوه ثوبا معصفرا وهو مريض. فكان هذا اللون اول ما عرف وآخر ما رأى، ولما ادرك سن التعلم اخذ ابوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمهاز وتتلمذ بعد ذلك لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم. ولم ير بعد ذلك فيمن حوله من سبقه الى علم، او اختص دونه بفهم، فانثنى الى بيته وقد ناهز العشرين من عمره واخذ يدرس اللغة والادب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه احد. وفي سنة 392 هـ غادر المعرة الى بعض بلاد الشام، فزاد مكتبة طرابلس، وعاج على اللذقية، وكان بها دير لرهبان فنزل به واقام بين اهله حتى درس العهدين القديم والجديد. وبعد ان طوف في بلاد الشام عزم الرحلة الى بغداد مبعث مستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية. وما احس بمقدمه البغداديون حتى تعاطروا للقائه ظمأ الى ادبه. فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والأدب، ويبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطا بعيدا. ووجد ابو العلاء في بغداد بيئة صالحة وارضا زكية لبحث المسائل وغرس المبادئ فأخذت آراؤه تظهر وتذيع. واتصلت اسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الاحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي احمد عبد السلام بن الحسن البصري اثر خلاطها في عقله وادبه، وما كادت علائقه تتوثق بالبغداديين حتى فوجئ على بعد المزار بنعي امه، وكان ابوه قد توفي قبلها، فوجد عليها وجدا شديدا، ونالت منه هذه النازلة. وكان الامراء والدهماء قد اخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في امره، فاضطربت حياته، واختلفت اطواره واعوزه المشفق والنصير. فنظر الى العالم بمنظار اسود، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا وعاد الى المعرة سنة 400 فاعتقل عن الناس الا عن تلاميذه. وسمى نفسه رهن المحبسين : العمى والمنزل، وظل عاكفا على التعليم والتاليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه، قانعا من الطعام والحلوى بالعدس والتين ومن المال بثلاثين دينارا موقوفة عليه في كل عام، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردي. وحرم على نفسه الزواج ضنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة. ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة 449، وقد اوصى ان يكتب على قبره هذه البيت:

هذا جناه ابي علي (م) وما جنيت على احد

ولما مات وقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون.

مواهبه وعقيدته

كان ابوه العلاء انسي الولادة، وحشي الغريزة كما وصف نفسه، رقيق القلب سخيا وفيا، قامعا لشهواته، سيء الظن بالناس، شديد الحذر منهم، قوي الذاكرة، سريع الحفظ، وقد رووا عنه في ذلك الأعاجيب، فزعموا انه كان يحفظ ما يفهم وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة. ولم يمنعه ذهاب بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين في العابهم، فقد كان يجيد لعب النرد والشطرنج ويدخل في كل باب من ابواب الهزل والجد.

وقد اختلف الناس في عقيدته، فمنهم من قال انه ملحد يرى رأي البراهمة. وغيرهم يقول: ان شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر. وبعضهم يقول إن هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من اعدائه. واكثر الناس يرجح انه كان شاكا، فتارة يثبت واخرى ينفي، ولذلك كثر التناقش في شعره.

شعره

ينقسم شعر أبي العلاء قسمين: شعر الشباب ويجمعه سقط الزند، وشعر الكهولة وقد وعته اللزوميات. فأما شعره في الشبيبة فكثير المبالغة، واضح التقليد بين التكلف، قلد فيه المتنبي واستمد منه اكثر معانيه، واستخف بقواعد اللغة، وجارى شعراء عصره في البديع، بيد انه استعمل الغريب واكثر في شعره من اصطلاحات العلوم، قال في اكثر اغراض الشعر الا في الخمر والمجون والصيد والهجاء، وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر.

واما شعره في الكهولة فقليل المبالغة والتكلف، قد عارض فيه المتقدمين من العرب، فآثر الفظ الجزل والاسلوب البدوي، وركب القوافي الصعبة والتزم ما لا يلزم، وتشدد في اتباع القياس، واكثر من البديع والجناس، واودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه. ولكنه حشاه بالالفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد اليها بنان ولا يتذوقها لسان. وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كمحاورة الديك والحمامة، ومناظرة الذئب والشاة: وهو احكم الناس بعد أبي الطيب. ويختص دونه بالخيال الدقيق: وتصري القول في الفلسفة والاجتماع واخلاق البشر وانظمة الحكومات والقوانين والاديان وهو واحد الشعراء في هذا السبيل.

نثره

نثر ابي العلاء كشعره، يختلف في كهولته عنه في شبيبته. فقد كان كثير المبالغة، مفعما بالغريب، متكلف السجع، كثير الاصطلاحات العلمية. ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة، وفاضت الجمل بالمعاني. ولم تخل كتابته من غموض يعني القارئ وتطويل يمله، فربما كتب الرسالة الى اصدقائه فيمعن فيها، ويستطرد حتى تكون كتابا ضخما غريب المسائل كثير الفوائد.

مؤلفاته

اكثر مؤلفاته ذهبت بها ريح الحروب الصليبية فلم يبق الا سقط الزند، واللزوميات، والدرعيات، والفصول والغايات، وديوان رسائله، ورسالة الملائكة ورسالة الغفران، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي، والفردوس المفقود لملتن لانه تخيل رجلا صعد الى السماء ووصف ما شاهده هناك، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة باسلوب روائي بديع، ثم عبث الوليدز وهو شرح ديوان البحتري وقد طبع في دمشق. وقد فقد كتاب الايك والغصون في مائدة مجلد، وهو دائرة معارف في العلم والادب، ومعجز احمد، وهو شرح ديوان المتنبي، وذكرى حبيب، وهو شرح ديوان ابي تمام، وغير ذلك كثير.

الترسل

راحت الرسالة في هذا العهد تتطور ايضا، وقد خرجت شيئا فشيئا عن كونها حديثا يهدف الى التفريج عن القلوب او التوصية او ما الى ذلك، وانزلقت في تيار الزخرفة والتصنع حتى اصبحت ميدانا لاظهار البراعة، ومصنعا من مصانع التطريز والتوشية، وبستانا زاهي الالوان يسحر النواظر ويأخذ بمجامع القلوب. وقد اشتهر في هذا الباب ابن العميد، والقاضي الفاضل. فكانا زعيمي مدرستين كبيرتين انضم اليهما عدد من الكتاب من امثال ابي بكر الخوارزمي (383هـ - 993م) وابي اسحاق الصابي (384هـ - 994م)، والصاحب بن عباد (385هـ - 995م)، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن اقتفوا إثر ابن العميد، وكانوا ائمة البلاغة العربية في ذلك العهد.

ابن العميد

نشأته وحياته

ابو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد، فارسي الاصل من اهل مدينة (قم). كان ابوه مترسلا بليغا يتولى الكتابة لنوح بن نصر الساماني ملك بخاري، فنشأه على الأدب، ودربه في الكتابة، وغذاه بالعلم، فبرع في الإنشاء والترسل، وتوسع في الفلسفة والنجوم، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني.

ولما استكملت عدته، واستحصدت قوته، غادر بخاري إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه، فتقلد الاعمال في دولتهم. وما زال يتنقل في مدارج الرقي، ويتوقل في معارج الشرف، حتى وزر لركن الدولة بن بويه سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، فاضطلع بأعباء الوزارة، وقام بشؤون الدولة، وجرى على منهاج بني برمك في الجود، فانتجعه الشعراء. وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر، فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبي روحا لنهضة العلم وقطبا لدائرة الأدب في ذلك العصر. وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتهيبه، ولد فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي


مطلعها:

باد هواك صبرت أم لم تصبرا □ وبكاك إن لم يجر معك أو جرى

ويقول فيها:

من مبلغ الاعراب اني بعدها □ شاهدت رسطاليس والاسكندرا

ومللت نحر عشارها فاضافني □ من ينحر البدر النضار لمن قرى

وسمعت بطليموس دارس كتبه □ متملكا متبديا متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما □ رد الإله نفوسهم والاعصرا

ولكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية، الحت عليه الأوصاب، وتناوبه القوالنج والنقرس، ومات سنة ستين وثلاثمائة.

نثره وشعره

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف، وعهد خيال وشعر، فهداه طبعه إلى استحداث اسلوب جديد، متناسب الفقر، أنيق الديباجة، بديع الوشي، طبع على غراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر، ولمكانة الوزير من الفضل. إلا أنه كان أرق معاصريه طبعا، وأقلهم سجعا، وأكثرهم نثرا للشعر وتلميحا للأمثال، وتضمينا للحكم، ولا يضارعه في اكثر ذلك على ما أرى إلا البديع. وكان ابن العميد متفننا في فنون الكتابة، متفوقا في ضروب الرسائل، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. أما شعره فيغلب فيه الحسن، ويرويه ماء الطبع، إلا أنه على الجملة أخف وزنا من نثره.

القاضي الفاضل

نشأته وحياته

ولد ابو علي عبد الرحيم البيساني بمدينة عقلان من بلاد فلسطين، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين علي قاضي عقلان. ثم ورد مصر في أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة في الديوان، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيها. وما لبث ان ظهر فضله ودل عليه نبوغه، فقدم القاهرة وكتب في ديوان الظافر. ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة. ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل وتوفي سنة 695 بالقاهرة.

منزلته في الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضي الفاضل أن يخالط الكتاب في الأصقاع المختلفة، ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة في الشام والعراق ومصر. فجرته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد، ومازها بالإغراق في التورية والجناس، حتى أصبحت الكتابة في عهده كما ذكرنا من قبل طلاء خداعا من زخرف اللفظ على هيكل بال من المعنى السقيم. بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون الكليلة والقرائح الناضبة. فاقتفاها عباد الصنعة من أشباه الكتاب، وورطوا انفسهم فيما لا غناء فيه ولا رجع منه. وظل هذا المذهب غاشيا على العيون، رائنا على القلوب، حتى عصرنا الحديث فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية.

الأدب القصصي

شيوع الفن القصصي

القصة من أدق الفنون الادبية بناء واصعبها تركيبا، وهي الى ذلك من أكثرها شيوعا وانتشارا، لما انطوت عليه مما يستميل القلوب ويمتع النفوس. حفلت بها الآداب العالمية منذ أقدم العصور، وانصرف إليها العرب منذ جاهليتهم فتركوا لنا فيها مجلدات ضخمة لفتت نظر النقاد والباحثين الذين انشطروا في شأنها شطرين متباينين، يرافق احدهما الإعجاب الكبيرن ويميل بالآخر التنكر والتنقص، وما ذلك إلا لاعتماد كل فئة على ناحية من النواحي.

القصة في الأدب العربي

في الجاهلية: وإن من استقرأ الأدب العربي منذ فجره الى اليوم وجد أن القصة نشأت فيه نشوءا طبيعيا، وكانت في بدء أمرها أسمارا وأخبارا يرويها الخلف للسلف في حلقهم وتحت قباب خيامهم، ويظمنونها مآثر الآباء والأجداد في حقول الشجاعة والفروسية والغرام، كما ينسجونها حول الاساطير التي نبتت في ربوع الخيال وعبرت عن آمال النفوس وتنفسات القلوب.

فهنالك الأيام التي اهتز لها كل عربي منذ حداثة سنه وراح يروي أخبارها على الرواحل وفي منعطفات الأودية، ويردد فيها ذكرى المغاوير الذين كانوا مثال البأس والإقدام. وهنالك الى جنب الأيام مثل أخبار عنترة وعبلة اللذين ردد احاديثهما الركبان، وأخبار الجن يوم كانوا يبنون المنازل ويشيدون الدور والقصور، ويبرءون المرضى، ويخاطبون الناس، ويهتفون بهم بأصوات مفهومة تتكلم الحميرية والعربية، ويخدمون الملوك إذ كانوا يأتونهم بفواكه الهند طرية.

ولئن وصلتنا أقاصيص الجاهلية نتفا وأجزاء، فقد كانت في أسلوبها وبيانها مرآة صافية لأحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم، وكانت نقطة انطلاق لكثير من القصص الإسلامية والعباسية التي وجدت فيها موضوعات وأبطالا حاول الخيال ان ينسج حولها ما استطاع النسج ويبنى ما استطاع البناء.

في العهد الإسلامي: وكان العهد الإسلامي فواصلت القصة سيرها في اتساع نطاق وتشعب فروع، وقد اشتهر منها القصص الديني الذي دار حول الدين والرسل والانبياء روايات وحكايات واحاديث ووقائع ينشرها بين الناس جماعة من الناس وهبوا مقدرة على الكلام وزلاقة في اللسان، فراحوا يبثون هذه الاحاديث تارة في سبيل الوعظ والارشاد، وطورا للتهديد والترغيب. وقد اشتهر من القصاص تميم الداري، وهو اول قاص في الاسلام، والقاضي سليم بن عتر التجيبي.

أما مصادر القصص الديني فالتوراة والانجيل والقرآن ثم ما جاء على السنة الرواة والمحدثين من اخبار الاولين واساطير الأقدمين، تناولها القصاص بيد التركيب والتخييل، ومزجوا الحقيقة بالخيال، والتاريخ بالأسطورة، لا يهمهم من ذلك إلا الاطالة والعبرة.

وهكذا يتجلى لنا ان القصص الديني لذلك العهد هو قصص تاريخي اسطوري يهدف الى غاية ارشادية وعظية، بعيد عن التحليل النفساني والتساوق المنطقي، لا ينظر صاحبه فيه الى كل يعالجه، بل الى أجزاء متعثرة يضم بعضها الى بعض وان تباعدت عناصرها، ويغرق كل ذلك في بحر من الحجارة الكريمة، ويطيب كل ذلك بمختلف الأطياب في غير تنوع ولا انطلاق خيالي حقيقي.

في العهد العباسي: ولم تتبدل الحال في العهد العباسي تبدل جذريا على ما ازدهر فيه من ثقافة وانتشر فيه من فنون. فقد واصل القصص سيرة في تضخم واستطالة، وذلك لشيوع الترف والرخاء، وانصراف الناس الى هذا اللون من التسلية. ولسنا نعرض هنا للقصص الفلسفي كقصة حي بن يقظان لابن طفيل، ولا للقصص اللغوي كمقامات الهمذاني والحريري، ولا لحكايات كليلة ودمنة الأخلاقية وأمثالهان وإنما نتوجه الى الروايات الشعبية ولا سيما سيرة عنترة بن شداد، والف ليلة وليلة. ومن الجدير بالذكر ان القصص لذلك العهد نوعان: موضوع ومنقول، والمنقول هو ما أخذه العرب عن الفرس او الهنود وأضافوا إليه من عندهم ما جادت به القرائح وما اوحت به البيئة. والروايات الشعبية قسمان، قسم بطولي وقسم آخر إخباري. اما البطولي فهو ما دار حول الأبطال الذين خلدوا اسمهم في ميادين القتال، وما تغنى بالشجاعة والفروسنية، وعظم من شأن

الرجولة العربية كسيرة عنترة، وقصة بكر وتغلب، وقصة البراق لعمر بن شبة، وقصة الملك سيف بن ذي يزن، وسيرة بني هلال وغيرهان واما الإخباري فهو ما دار حول الحب والغناء ومجالس الطرب واللهو، وحول عجائب الاسفار وغرائب الأخبار وما الى ذلك كحكايات الف ليلة وليلة وغيرها. وان من اجال النظر في كتب القصص العباسي شهد ظهور الروايات الطويلة، ووجد ان القصص القصيرة تنوعت، وانها نزعت، طويلة وقصيرة، نزعة شعبية لصدوف ذوي السلطان عن أصحابها الى الرواة والندمان. ولما كان الأمر كذلك تناول القصاص عملهم عن أقرب سبيل، وراحوا يرضون الذوق الشعبي بالمغاليات والمفاجات والمستحيلان. وبالاسلوب الرقيق البعيد عن المتانة التعبيرية وعن الوحدة التأليفية، فارضوه ولكنهم لم يرضوا الفن ولم يراعوا قوانين الكتابة القصصية.

والى جنب القصص الشعري نجد في الادب العباسي وفي مؤلفات كبار الأدباء من مثل الجاحظ والأصفهاني وغيرهما كمية ضخمة من الحكايات والاقاصيص التي جمع بعضها حسن السرد الى جمال الاسلوب.

كمية وكيفية: وهكذا يتجلى لنا بوضوح ان القصص في الادب العربي كمية اكثر مما هو كيفية، كمية تتجلى في تراثنا القصصي الضخم الذي زخرت به المجاميع والمجلدات الكبرى من مثل العقد الفريد، والأغاني، وعرائس المجالس، والمستطرف من كل فن مستظرف، وغيرها، كمية تدل بوضوح على أن العربي ميال الى هذا اللون من الكتابة، وانه نجح في الاقصوصة لأنها قائمة على مجرد السرد الخفيف الفكه، وفي الحكاية لأنها أقصمصة مكملة وخالية من التعقيد والتركيب لا تقتضى من كاتبها التأمل.

Unit V

المقامات

المقامة في اللغة كالمقام موضع القيام كمكانة ومكان، استعملت في المجلس ثم في الجماعة الجالسين، ث سميت الاحدوثة من الكلام مقامة كانها تذكر في مجلس واحد تجتمع فيه الجماعة لسماعها. قال الشريشي: والمقامات المجالس، واحدها معامة، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلسا، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى. قال الأعلم: المقامة المجلس يقوم يه الخطيب يحض على فعل الخير. والمقامة في الجاهلية مجتمع القبيلة، وهي في العهد الأموي احاديث زهدية تروي في مجالس الخلفاء. جاء في الرسالة العذراء، لابن المدبر ان اهل القرن الثالث الهجري كانوا يعرفون نوعا من المحاورات الادبية يسمى المقامات، وهو يوصي المتأدب ويقول: وانظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ويريد بالمقامات الخطب او المواعظ التي كانت تلقى في حضرة الخليفة. ثم انتقل بعد ذلك معنى المقامة الى كلام الكدية والاستجداء بلغة مختارة، وتناول بديع الزمان الهمداي اللفظة مع ما التصق بها من معنى التسول الأنيق، وأنشأ مقاماته التي سنرجع إليها في الصفحات التالية.

نشأتها

المقامة ثمرة بيارين في الادب العربي: تيار ادب الحرمان والتسول الذي انتشر في القرن الرابع للهجرة، وتيار أدب الصنعة الذي بلغ به المترسلون مبلغا بعيدا من التأنق والتعقيد. أما الحرمان فقد كان نصيب الكثرة الكثيرة من الناس في القرن الرابع، تلك الكثيرة التي كانت تعيش عيشة فقر وبؤس وإملاق تحت ظل المحن والخطوب، وبين برائن الجوع والمرض والموت. قال بديع الزمان الهمذاني يصف ما أصاب إحدى المدن: ولكني أخبره بما عرض لها ولهم ... فيهم فشت الأمراض الحادة فخبطت عشواء وافنت رجالا، ثم جد الغلاء، وفقد الطعام، ووقع الموت العام، فمن الناس من لم يطعم اسبوعا حتى هلك جوعا، ومنهم من تبلغ بالميتة الى يومنا هذا وهو ينتظر نحبه، ليلحق صحبه، ومنهم من لا يجد القوت والدرهم على كفه حتى يموت والباقون احياء كأنهم اموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق، وإن هول السلطان اعظم وأطم، وأمر المطالبات أكبر وأهم.

وحياة كهذه كان لا بد ان تتمثل في الادب، فتمثلت من جهة بالتسول والكدية، ومن جهة أخرى بالشكوى والتألم. وكان أدب التسول صورة لطائفة كبيرة من الناس تنكرت لها الأيام فلجأت الى الوان من الحيل لكسب العيش. والكدية قديمة عند العرب، عرض لها الجاحظ ثم بسط موضوعها البيهقي في اوائل القرن الرابع ووصف المكدين، وذكر طبقاتهم وأعمالهم ونوادرهم وشاع التكدي في القرن الرابع شيوعا شديدا، واشتهر فيه جماعة عرفوا بالساسانية، فكانوا يضربون في الآفاق من بلد الى بلد، مبدأهم الغاية تبرز الوسيلة، يدورون بالليالي كما تدور، لأن الزمان مشؤوم غشوم و الحمق فيه مليح والعقل عيب ولؤم. وكان في الساسانية طائفة من رجال الشعر القصص، ورجال النظر في الحياة وما آل إليه المجتمع من سوء، فكانوا يتصرفون تصرفهم عن عقيدة، ويزالون مهنتهم في طمأنينة، وفي رأيهم ان البيئة تطلب هذا التصرف وهذه المزاولة، فالفساد متفش، والحكم في فوضي ، والدهر في ادلهمام، والعيش في ضيقة تنخر العظام.

اما ادب الصنعة والتنميق فقد بلغ أوجه في هذا العصر مع ابن العميد وابي بكر الخوارزمي وابي اسحاق الصابي والصاحب بن عباد حتى ان التزويق اصبح غابة، وحتى ان الكتابة اصبحت مزيجا من زخرف أنيق وموسيقي لفظية غنية، وحتى اصبحت تطريزا تصويريا موسيقيا. وشاعت صناعة التضمين، كما نزع الأدباء الى تضمين الأدب الوانا من المعارف، والى جعل الأدب مطية لتلك المعارف، كما نزع الأدب الى اللفظية والحرفية التي اغرقت المعنى الضئيل في بحر زاخر من الاسجاع والاستعارات وشتى ضروب البديع.

الا ترى في هذين التيارين مصدرا طبيعيا لظهور فن المقامة، اي القصة القصيرة التي يودعها صاحبها ما يشاء من فكرة ادبية او فلسفية، او خطرة وجدانية، او لمحة من لمحات الدعابة والمجون، في اسلوب الزخرفة والتأنق والتصنيع؟

واضعها

نستطيع أن نقول إن المقامات بمعناها الاصطلاحي او بشكلها الفني المعروف لم تتحقق إلا على يد بديع الزمان الهمذاني، كما تستطيع ان نقول إن البديع هذا لم يكن متأثرا حين أنشأ هذه المقامات بأحد من الكتاب الذين سبقوه، وإنما كان متأثرا بواقع الحياة العامة: بالبؤس والحرمان والإملاق، تلك الظواهر الاجتماعية التي حملت كثيرا من الناس على التكدي والتسول بمختلف الوسائل والحيل فكان منهم الغزاة المتصنعون والاعراب المنتجعون، والزهاد وأبناء السبيل، والحواة والقرادة والسحرة والمشعوذة والقصاص، والنائحون، وغير ذلك ممن تألفت منهم تلك الطائفة الكبيرة التي كانوا يسمون بالساسانية او بني ساسان.

هدفها

هدف تعليمي: وجدت المعامة، اول ما وجدت، لهدف تعليمي، وعندما وضعها الهمذاني كان معلما في نيسابور يلقي دروس اللغة والبيان على الطلاب ويدربهم على الأسلوب الجميل في الكتابة. والهمداني من أشد الناس حدة ذكاء، ومن اصدقهم تفهما لطبائع الناس ولتطور العقل البشري، وقد قادته رسالته التعليمية الى تقديم المعارف باسلوب يعلق في الأذهان، فكان الأسلوب أسلوب العلم في إطار القصة وجو الفكاهة، وكانت الطريقة طريقة النثر في موسيقي الشعر وتضمين الأبيات الشعرية. ثم امتد نطاق التعليم، وامتد نظر المؤلف الى الناس اجمعين، فراح يعالج هذا الفن معالجة الأديب، وراح من بعده المؤلفون والعلماء، يجولون جولاتهم الواسعة، وقد خططت الطريق، ويذهبون بالمقامة كل مذهب. وهكذا كانت المقامة في النثر أشبه شيء بتلك المنظومات الشعرية التي نظمت قديما وحديثا في موضوعات العلوم اللسانية والمنطقية وغيرها، تسهيلا للحفظ، وتيسيرا للمعرفة. وهكذا كانت، شيئا فشيئا، ميدانا للتدليل بالمقدرة، ومضمارا واسعا لإظهار البراعة والمباهاة بالمحصول العلمي عامة، واللفظي منه خاصة.

بديع الزمان الهمذاني

نشأته وحياته

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمذان ونشأ بها. وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية، ولم يترك أديبا في همذان إلا استنفد ما عنده. ثم غادرها إلى الصاحب بن عباد فازداد من معارفه وعوارفه. وقصد جرجان فأقام في اكناف الإسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور. وفي سمة 382 يمم نيسابور فتجلت فيها عبقريته، وذاعت بين الناس شهرته، وأملى بها أربعمائة مقامة. ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي. وكان أسن منه وأشهر. وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات. وغلب هذا قوم وذاك آخرون. وساعد البديع شبابه ولسانه وحاجته إلى الظهور، فظهر على الخوارزمي ظهورا أطار ذكره، ورفع قدره عند الملوك والرؤساء، وأجاب قرنه داعي ربه، فخلا له الجو، وابتسم له الدهر، وتنقل في حواضر فارس منتجعا أمراءها، حتى ألقى عصاه بهرات، وصاهر احد وجهائها وعلمائها، وعاش بها رخي البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة 398.

واختلف في موته فقيل مات مسموما، وقيل مات بالسكتة، وعجل بدفنه، فأفاق في جدثه، وسمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضا على لحيته من هول القبر.

أخلاقه ومواهبه

كان البديع مقبول الصورة، خفيف الروح، ناصع الظرف، ذكي القلب، قوي الحافظة. حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفا. وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها. وربما ابتدأ بأخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متسق. وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع.

نثره وشعره

نثر البديع يستهوي القلوب ويملك الشعور، وكله من قبيل الشعر المنشور. وللصناعة تأثير فيه، إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع، لم يفسده تكلف، ولم يبهمه تعمق. وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ، ورشاقة المعنى، وجمال العبارة، ودقة التخيل. وقد تصرف هذا الكاتب في فنون الترسل، وتفنن في ضروب الرسائل حتى كان بحق فارس الطريقة العميدية وابن بجدتها. وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد.

مقاماته

المقامات حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستفرق غالبا اكثر من مقامة وتنتهي بعظة أو ملحة. ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها المحل الأول. والبديع أول من أجاد هذا النوع. والمظنون أنه حاكي بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفي سنة 310. وقد كتب اربعمائة مقامة في الكدية وغيرها، تحلها ابو الفتح الإسكندري على لسان عيسى بن هشام. ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده. أسلوبها طلي شهي، إلا أن قصر حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال وللبديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلاهما مطبوع.

الحريري (446-516هـ)

نشأته وحياته

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام. ولد بقرية يقال لها المشان، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلاتها. وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فلقب بالحريري. وصرفه عن ذلك شغفة بالعلم وولوعه بالأدب، فجد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم، فقربه الأمراء، وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه.

صفاته وأخلاقه

كان الحريري دميما قصيرا بخيلا قذر الثوب مولعا بنتف لحيته عند التفكير. فعاضه الله من ذلك برائع ادبه، ورقيق ملحه، وسعة صدره وتعترافه بالحق لأهله. ولذلك كان الحديث عنه خيرا من النظر إليه. سمع بشهرته رجل غريب فجاءه يتلقى عنه الأدب، فلما رآه استزرى شكله، وفهم الحريري منه ذلك. فلما التمس أن يملي عليه قال له اكتب:

ما انت اول سار غره قمر ورائد اعجبته خضرة الدمن

فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل وانصرف.

نثره وشعره

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبديع. وهو من ساقة اتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البديع، والمبالغة في الصنعة، والإفراط في تدبيج اللفظ، والتفريط في جانب المعنى، حتى تراءت معانيه من خلال الفاظه عليلة ضئيلة كالعروس المسلولة جملوها بالأصباغ واثقلوها بالغلائل والحلي. وشعره كنثره في الكلف بالبديع والعناية باللفظ. وضع منه كثيرا في ثنايا المقامات وجمع في ديوان خاص.

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب (درة الغواص في أوهام الخواص)، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب. وكتاب ملحة الإعراب في النحو، وديوان رسائل، ثم المقامات وهي أجود آثاره.

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها ابو زيد السروجي على لسان الحارث بن همام ونسجها على منوال البديع. جمع فيها من اللغة والأمثال والاحاجي ما لا غاية بعده. فهي ديوان ممتع للالفاظ العربية، والنوادر اللغوية، والصناعة اللفظية، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم. فقد ترجمها اكثر من عشرين مستشرقا من الفرنسين والألمان والإنجليز. وطبعت بالإنجليزية في لندن سنة 1850، وباللاينية في هبسرج سنة 1832، ونقلت إلى الفارسية سنة 1263، ثم الى التركية وطبعت بالآستانة. ولا تزال تدرس في بعض جامعات اوربا بالشرح الذي وضعه لها رأس امستشرقين سلفستر دساسي سنة 1822.

عيوبها

يأخذ البعض به عليها قصرها، ووحدة مغزاها، وأن المؤلف لم يعن فيها بتصوير الأشخاص على نحو ما الفه اليونان والرومان قديما، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه، وهي بعد ذلك تكاد تخرج عن خيال متكرر في صور مختلفة، وإن في إنشائها تكلفا لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه.

سبب وضعها

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالسا بمسجد بني حرام بالبصرة، فدخل المسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر، رث الحال، فصيح المقال. فسأله الحاضرون: من أين الشيخ؟ فقال: من سروج. فاستخبروه عن كنيته، فقال أبو زيد. فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريدا نفسه. أخذا بالحديث المأثور: كلكم حارث وكلكم همام، واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها أمثالها فأتمها خمسين.

التصنيف في الأدب والنقد

أصبح الأدب في هذا العهد شاملا لجميع المعارف التي يتحلى بها الإنسان، وأصبح الأديب خزانة للعلم والثقافة، ولهذا اتجه التأليف شطر المجاميع الشعرية والنثرية، والنظريات في الفنون والعلوم، والأبحاث في الكتابة والنقد والتاريخ وما الى ذلك. وقد اصطبغت تلك المؤلفات بصبغة الشمول والتنوع في الموضوع.

النقد الأدبي

النقد فن من فنون الأدب يتناول الآثار الأدبية ويحللها، ثم يقومها، ويحكم عليها بالقبح او بالجودة. والنقد بمعناه العام هو كل ادب كتب عن الأدب سواء اكان تحليلا او تفسيرا او تقويما، او كل هذه الاشياء مجتمعة. واذا كان كل ادب موضوعا للنقد وإذ كان النقد نفسه أدبا. كان النقد ايضا من موضوع النقد. وإذا كان الأدب تفسيرا للحياة في صور أدبية مختلفة، كان النقد تفسيرا للتفسير، وإيضاحا للصورة الفنية التي خرج فيها الأدب.

العرب والنقد

في الجاهلية: النقد قديم عند العرب يقدم الأدب، وكان في الجاهلية فطريا يعتمد على الإحساس والذوق البسيط. اما ظهوره في صفوف الشعراء يعمد الواحد منهم الى شعره فيراعي فيه أذواق أبناء زمانه، وينظم القصيدة على مألوف العادة ويجعل أقسامها ومضمونها موافقة للقواعد المرعية، ويغرب في وصف الوحوش وسائر الحيوانات حسب متطلبات المكان والزمان، وقد يكب على قصيدته حولا ينقحها ويهذبها كما فعل زهير تجنبا لنقد الشعراء ولوم اللائمين. وكانت الاسواق وميادين المنافرات مجالا للنقد يقوم فيها الحكم مقوما، وكم كان لأحكامه من أصداء بين القبائل وفي مجالس القوم، وكم كان لكل ذلك من أثر في ترقيق الألفاظ، وتدقيق المعاني، وترقية النقد.

روي ان بعض شعراء تميم اجتمعوا في مجلس شراب، وكان بينهم الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطيب وعمر بن الأهدم، وتذاكروا في الشعر والشعراء، فأدعى كل منهم الاسقية في الشعر، وتحاكموا فقال الحكم: اما عمرو فشعره برود يمنية تطوى وتنشر، واما الزبرقان فكأنه رجل أبى جزورا قد يحرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره، وأما المخبل فشعره شهب من الله يلقيها على من يشاء من عباده، وأما عبدة فشعره كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيئ...

وهكذا ترى ان النقد في الجاهلية احكام قائمة على ذوق ساذج، ولم يكن مبنيا على قواعد فنية، ولا على ذوق منظم ناضج، إنما هو لمحة الخاطر والبديهة الحاضرة.

في العهد الاسلامي: وفي الفترة التي تمتد بين صدر الإسلام والعهد العباسي، ولا سيما في العهد الأموي، ازدهر النقد في الحجاز والعراق والشام. اما في الحجاز فقد زخرت الحياة بالترف والغناء واللهو، وانتشر الأدب الرقيق يرافقه النقد في نزعة تجديدية قائمة على ذوق رققته الحضارة الجديدة. وقد اشتهر في تلك البيئة المترفة عدد كبير من النقاد كابن عتيق الذي تعقب الشعراء ونقدهم نقدا ظريفا، ومن ذلك انه كان يفضل ابن ابي ربيعة على معاصريه ويقول: لشعر عمر نوطة بالقلب، وعلوق بالنفس، ودرك للحاجة ليست لشعر غيره. وما عصي الله عز وجل

بشعر اكثر مما عصي بشعر ابن ابي ربيعة، فخذ عني ما اصف لك، اشعر قريش من دق معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، ومتن حشوه، وتعطفت حواشيه، وأثارت معانيه، وأعراب عن حاجته. وأما في العراق والشام فقد سادت النزعة القديمة في الشعر، وانبعثت العصبية القبلية بين الشعراء فعادوا ال المفاخرات والمنافرات، وكان المربد قرب البصرة كسوق عكاظ في الجاهلية، وسمج الشعر معنى ومبنى، وكان النقد تفضيلا بين الشعراء واحكاما اشبه ما تكون الخطرات السريعة، وأقوالا بعيدة عن التحليل والتعليل. وهكذا يقي النقد في هذه الفترة شديد الصلة بالنقد الجاهلي، لا يعدو ملاحظات جزئية، ولا يقوم على مبادئ ومقاييس جمالية فنية. ولئن ظهرت فكرة الموازنة بين شاعر وشاعر، فما ذلك إلا إجابة لميول شخصية وعصبية قبلية.

في العهد العباسي: ارتقت الحياة في العهد العباسي وامتزج العرب بشتى الشعوب، واحتك العقل العربي بثقافة فارس والهند واليونان، وارتقت حاسة النقد بانتقال الحياة من صعيد الفطرة الى صعيد المعرفة والفلسفة، وراح العلاء يضعون قواعد اللغة والنحو والعروض، كما راحوا يعالجون قضايا البيان والبلاغة والاسلوب، وانتشرت عادة الجدل والنقاش في شتى الموضوعات تذكيها المنافسة بين الفرق والمذاهب، وقام العقل إماما يرتكز على مبادئ المنطق، وحفل العصر بالباحثين والمنقبين، فانتقل النقد بطبيعة الحال من احكام فطرية الى علم بقواعد واصول، وراح يعالج الأدب، ويحلل ويعلل، ويقيس العناصر الجمالية بمقاييسها، وكان هنالك ثلاث مدارس رئيسية نزعت في النقد منازع متباينة: مدرسة اللغويين، ومدرسة المتكلمين، ومدرسة الفلاسفة.

اما اللغويون، وقد تعلقوا في كل عصر بالحرف دون الروح، فجعلوا القدم قاعدة حكمهم، وفضلوا القديم على الجديد، وتصدوا لكل مجدد، وعدوه مجترئا على تقاليد العرب ومفهومهم للالفاظ والاساليب، وراحوا من ثم يتعقبون الشعراء والكتاب آخذين عليهم سقطاتهم اللغوية، وتعبيراتهم المستحدثة، وكان همهم في اللفظة او البيت او العبارة يعتمدون عليها في ترتيب الشعراء والموازنة فيما بينهم. وهكذا كان نقدهم جزئيا حافلا بالجمود والادعاء والتحيز. قال عمرو بن العلاء في الشعراء المحدثين: ان قالوا حسنا فقد سبقوا إليه، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم. وقد اشتهر من هذه الفئة أحمد بن سلام (846) صاحب طبقات الشعراء الذي رتب الشعراء طبقات بعضها فوق بعض، مراعيا في ذلك عوامل البيئة المكانية والزمانية، ومعتمدا في ترتيبه وتقديم هذا على ذاك، كثرة الشعر، ووفرة الفنون، والجودة الفنية، ومما يذكر له انه نبه على المنحول من الشعر الجاهلي، وتحرى الدقة والصحة في النقل، وسبق النقاد الحديثين في بحثه عن صحة نسبة الآثار الى اصحابها.

اما المتكلمون فكانوا اوسع آفاقا، واعمق ثقافة، تمرسوا على النقاش المذهبي والفلسفي، فخرجوا من الجمود العقلي الذي سيطر على فئة اللغويين، وانطلقوا في ميادين الحياة يخطبون ويعلمون، وكان همهم الاول في علمي البيان والبلاغة فذهبوا فيهما مذاهب، ووضعوا لهما القواعد والأصول، متأثرين بما وصل اليهم من آراء اليونان، كما يتضح لنا ذلك من قراءة كتب الجاحظ، ولا سيما البيان والتبيين. وهكذا كان نشاط المتكلمين واسعا، تحدثوا في الشعر كما تحدثوا في النثر، وعنوا باللفظ وتحبيره كما عنوا بالمعنى، واختلطت عندهم مسائل النقد بمسائل البلاغة، ولعلهم كانوا السبب في ان النقد العربي لم يتميز من البلاغة تميزا تامان بل ظل دائما ممتزجا بها، وحتى في النقد المقارن عند الآمدي (981) وأمثاله كان النقاد يناقشون الشعراء ويوازنون بينهم على اسس بلاغية. وبذلك استمر العرب على مر العصور لا يفرقون بين النقد والبلاغة، حتى طلع عليهم العصر الحديث.

واما الفلاسفة فقد عملوا على اخضاع النقد للقواعد اليونانية التي اخذوها من كتب ارسطو وغيرها. ولئن نجحوا في التقنين، ووضع المقاييس والمعايير فقد اخفقوا عندما ارادوا ان يخضعوا الشعر والنثر العربيين لتلك القواعد التي وضعت لبيئة غير بيئتهم ولنفسية غير نفسيتهم. ومن أعلام هذه الفئة قدامة بن جعفر (984) صاحب نقد الشعر الذي امتاز بالدقة العجيبة، وامنطق السديد، واللمحات المفيدة، والآراء التي القت اضواء كثيرة على عملية النقد العميق والرصين.

والى جنب هؤلاء جميعا قام عدد من النقاد في عهد بني العباس يعالجون النقد المقارن لما رأوه من انقسام الناس في شأن بعض الشعراء ومن ذلك انه نشبت حصومة عنيفة بين الادباء حول أبي تمام ممثل المجددين والتحتري ممثل المحافظين في الشعر، وقامت مدرسة تفضل أبا تمام لغزارة معانيه، ومدرسة تفضل البحتري لصفاء شعره وسيره على خطة امرئ القيس وغيره من قدامي الشعراء، وانتصر الصولي (946) للاول، وفضع اخبار ابي تمام وانتصر الآمدي للثاني، فوضع كتابه الموازنة الذي ضمته نظرات نقدية فيها اعتدال، وذوق ادبي رفيع، ومعرفة بالنفس البشرية. ولما ظهر المتنبي وشغل الناس وانقسموا له وعليه وضع عبد العزيز الجرجاني (1078) كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ومما اوضحه في كتابه نظرية تأثير البيئة على الأديب التي قال بها تين في العصور الحديثة.

وهكذا تشعبت المدارس النقدية تشعبا غريبا الى ان كان ابن الاثير (1239) صاحب المثل السائر فكان خاتمة المطاف في العهد العباسي، وخاتمة التفكير النقدي البلاغي الرصين.

أبو الفرج الأصفهاني

تاريخه

ولد أبو الفرج بأصبهان ونشأ ببغداد في عصر النضوج العلمي، فحذق العربية وحصل العلوم الواسعة وحفظ الكثير من فنون الادب واللغة، ووعى من الاشعار والأغاني والآثار ما لا حد له، واكب على العلوم بمختلف فروعها ينهل من ينابيعها، حتى أصبح خزانة علم ودائرة معارف. قال القاضي التنوخي وهو أحد معاصري الأصبهاني: ومن الرواة المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني، فإنه كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم ار قط من يحفظ مثله، وكان شديد الاختصاص بهذه الأشياء، ويحفظ دون ما يحفظ منها علوما أخرىن منها: اللغة، والنحو، والخرافات، والسير، والمغازي، ومن آلة المنادمة شيئا كثيرا، مثل علم الجوارح والسيطرةن ونتف من الطب والأشربة وغير ذلك. ولما نسبه ذظره اتصل بالخلفاء والامراء والوزراء، فكان نديما لمعز الدولة، كما انقطع الى الوزير المهلبي.

وكان شأن أبي الفرج الأصبهاني، على علو مرتبته العلميةن شأن أكثر الشعراء والأدباء في معاقرة الخمر والعبث ووصف النساء. وقد توفي نحو سنة 356هـ بعد حياة مليئة بجليل الآثار.

أدبه

لأبي الفرج الأصبهاني مؤلفات كثيرة ذكر منها المؤرخون نحو ثمانية عشر مؤلفا أشهرها كتاب الأغاني. هو أشهر الكتب الموضوعة في أخبار الشعراء والمغنين والأدباء. طبع في مصر في عشرين مجلدا وقام المستشرق رودولف برونو بطبع المجلد الحادي والعشرين منه في ليدن عام 1305هـ. وفي سنة 1895 وضع له المستشرق الإيطالي غويدي فهرسا أبجديا عاما. وفي السنوات الأخيرة اهتمت دار الكتب المصرية للكتاب فطبعته طبعة أنيقة، وأكبت عدة دور نشر في لبنان على طبعه. منها: دار الثقافة التي أخرجته في 25 مجلدا وضمنت المجلدين الأخيرين منه فهارس في شتى محتوياته.

صدر المؤلف كتابه بمئة صوت كان هارون الرشيد قد أمر مغنيه ابراهيم الموصلي وبعض مشاهير المغين ان يختاروها له، فعول الأصبهاني عليها وعلى ما اختاره إسحاق بن إبراهيم للوائق، وما اختاره غيره من أهل العلم بصناعة الغناء. وأهمية الكتاب قائمة على ما حواه من أخبار وأشعار لأن المؤلف – على حد قوم جرجي زيدان – إذا ذكر أبياتا على لحن وعين نغمها ومن غناها، استطرد الى ذكر ناظمها وترجمته، والأحوال التي قيلت فيها من حرب أو حب في الجاهلية او الاسلام، ومن غناها ومن شهد ذلك وأسبابه وأحواله، فيورد تفاصيل ذلك بالدقة والإسناد. فاحتوى الكتاب على أخبار

مئات من الشعراء والأدباء والمغنين والعشاق والخلفاء والقواد، وأكثر أيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابه ووقائعهم وغزواتهم ومياههم، وفيه خبر أشعار الجاهلية والإسلام ولاسيما ما كانوا يغنون به، وآداب القوم في طعامهم وشرابهم واجتماعهم وحروبهم وزواجهم وطلاقهم وسائر احوالهم. وهكذا فالكتاب موسوعة ادبية وتاريخية ومصدر هام من مصادر الأدب والتاريخ.

والذي يروى أن الأصبهاني جمع كتابه في خمسين سنة، وحمله الى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه، وحكي عن الصاحب بن عباد انه كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب ثلاثين جملا تحمل له الكتب، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى به عنها، ومما يروي أيضا ان الصاحب بن عباد قال عندما عرف بالمكافأة التي قابل بها سيف الدولة كتاب الأغاني: لقد قصر سيف الدولة وإنه ليستحق أضعافها إذ كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة، والفقر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة، وللعالم مادة وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رحلة وشجاعة، وللمتظرف رياضة وصناعة، وللملك طيبة ولذاذة.

قيمة كتاب الأغاني

لقد كان كتاب الأغاني ولا يزال مرجعا هاما من مراجع التاريخ. فقد صور وتتبع حركة الغناء والموسيقي في صدر الإسلام وفي العهدين الأموي والعباسي، وترجم لأكثر المغنين المعروفين في تلك المدة، وجمع الأغاني العربية قديمها وحديثها، وانفرد بذكر الغناء العربي وقواعده وآلات الطرب والموسيقي التي كانت مستعملة وشائعة في أزهى العصور الإسلامية. ومما ذكر من هذا القبيل صفات المغني قال – والكلام على لسان ابن سريج – المصيب المحسن من المغنين هو الذي يشبع الالحان، ويملأ الانفاس، ويعدل الاوزان، ويفخم الالفاظ، ويعرف الصواب، ويقيم الإعراب، ويستوفي النغم الطوال، ويحسن مقاطيع النغم القصار، ويصيب اجناس الإيقاع، ويختلس مواقع النبرات، ويستوفي ما يشاكلها في الضرب من النقرات.

قيمة النقدية

ومما لا ريب فيه ان كتاب الأغاني من اهم مراجع تاريخ الادب وقد ترجم مؤلفه لأكثر الشعراء الأقدمين، وهو اجمع كتاب للأدب العربي، ولولاه لضاع معظم الشعر العربي. وقد اهتم ابو الفرج للنقد الادبي التاريخي اهتماما خاص، فتراه يحاول التتبع والتحري في عناية وإخلاص، فلا يكتفي بالاسناد الى الرواة، بل ينتقد ويبين اوجه الخطأ او التناقض بين الروايات، ومن ذلك انه اورد الابيات التالية لداود بن سلم، وهو من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية.

قيمة الفنية

لكتاب الأغاني قيمة فنية كبرى وقد حفل بالنوادر والفكاهات والاقاصيص التاريخية المليئة بالحياة، في أسلوب شديد الروعة، يتوثب انطلاقا، ويتقلب مع نبضات الحياة، خفيفا، سريعا، شديد التلون، شديد الواقعية، شديد المراعاة لمقتضى الحال، ينطق بلسان كل إنسان، في نزعاته المختلفة، وعقليته الخاصة، ولهجته الخاصة.

ولأبي الفرج مقدرة عجيبة في خلق اللون المحلي وفي تمثيل الاحداث، وإظهار نفسية الأشخاص، وفي إيراد الأحاديث نابضة بالحيوية، والحوار خافقا بالحركة، وله مقدرة عجيبة في إقحام الجمل المعترضة في الكلام، وإذا هي ظرف وتنويع وإحياء للمشاهد، وله مقدرة عجيبة في تركيب الكلام الوجيز، وفي الحذف والذكر، والتقديم والتأثير، وما الى ذلك مما يجعل عباراته أشخاصا طروبة لعوبة، تزخر بالمعاني والأحداث والتمثيل. هذا شيء وجيز عن كتاب الأغاني الذي يعد بحق موسوعة في الأدب والتاريخ، وكنزا ضخما من كنوز المعرفة وبستانا رائعا من بساتين الظرف والحياة المشرقة.

ابن قتيبة

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي الملقب بالدينوري نسبة الى دينور التي ولي قضاءها. ولد في بغداد وسكن الكوفة وكان إماما من أئمة الأدب، وفقيها ومحدثا ومؤرخا. قصد البصرة واتصل بالجاحظ ثم انتقل الى بغداد وتوفي فيها سنة 276هـ/889م. كان صادقا في ما يرويه، عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف.

لابن قتيبة آثار كثيرة قيل إنها ثلاث مئة كتاب في شتى الموضوعات، منها: كتاب معاني الشعر الكبير، وكتاب عيون الشعر، وكتاب عيون الأخبار، وكتاب المعارف، وكتاب ادب الكاتب، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب الخيل وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الأشربة...

أما أدب الكاتب فقيل ان ابن قتيبة صنفه لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد على الله بن المتوكل. وقد شرحه أبو محمد بن السيد البطليوسي شرحا مستوفي، ونبه على مواضع الغلط منه، وفيه دلالة على كثرة اطلاع الرجل.

واما كتاب الشعر والشعراء فهو كتاب تناول يه ابن قتيبة المشهورين من الشعراء فأورد اخبارهم وما يستجاد من شعرهم وما اخذته عليهم العلماء من الغلط والخطأ في الفاظهم او معانيهم... وقد نشر اكتاب المستشرق دي غوية سنة 1902 معتمدا في طبعته هذه على خمس مخطوطات قديمة. وفي سنة 1964 اعادت دار الثقافة ببيروت طبع هذا الكتاب معتمدة طبعة دي غويه اساسا لعملها، ومستعينة بعدة علماء للتدقيق والتعليق والتحقيق.

أبو العباس المبرد

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي، نسبة الى ثمالة قبيلة من الأزد. ويعرف بالمبرد، ولد سنة 210هـ في البصرة، وانتقل الى بغداد، وكان شيخ أهل النحو والعربية. وإليه انتهى علمهما بعد طبقة عمر الجرمي وأبي عثمان المازني. وأخذ النحو عنهما وعن غيرهما.

وكان قوي الذاكرة كثير الحفظ معاصرا لثعلب المتقدم ذكره، وجرت بينهما منازعات ومعارضات. وبهما ختم تاريخ الأدباء. وكان المبرد يحب الاجتماع بثعلب، وهذا يكره ذلك لأن المبرد كان حسن العبارة فصيح اللسان. وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حكم للمبرد. وكان المبرد كثير الأمالي يملي علمه على الكلبة أو على من يدونه. وقد ذكر له صاحب الفهرست 44 مؤلفا في الأدب واللغة والنحو والغروض والبلاغة والقرآن وغير ذلك، وهاك ما وصلنا منها:

1. الكامل : هو كتاب في الأدب وصفه المبرد بقوله: هذا كتاب الفناه يجمع ضروبا من الآداب بين منثور ومنظوم وشعر ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار خطبة شريفة ورسالة بليغة. والنية أن يفسر كل ما يقطع فيه من كلام غريب أو معنى مغلق، فهو يعد من كتب اللغة الممهدة للمعاجم. وفيه كثير من الفوائد التاريخية، أهمها فصل في الخوارج يحوي حقائق هامة من تاريخ بني أمية. وقد طبع الكامل في ليبسك سنة 1864م، وفي الآستانة سنة 1286هـ، وفي مصر سنة 1308هـ.
2. كتاب المقتضب: عليه شرح لسعد الله الفارقي المتوفي سنة 391هـ، منه نسخة خطية في مكتبة الاسكوريال.
3. كتاب التعازي والمرائي: منه نسخة خطية في الاسكوريان
4. رسالة في الجواب على سؤال وجهه اليه الواثق بشأن الشعر والنثر، منه نسخة خطية في مكتبة ميونيخ وأخرى في برلين.

ضياء الدين بن الأثير

تاريخه

هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير. ولد سنة 1163م في جزيرة ابن عمر ونشأ فيها ثم انتقل مع والده الى الموصل حيث سعى في تحصيل العلوم. ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي في مصر، فوصله القاضي الفاضل رئيس ديوانه بالعمل

عنده. ثم طلبه الملط الأفضل نور الدين بن صلاح الدين وولي عهده بدمشق، فخيره صلاح الدين، بين البقاء والذهاب، فاختار الذهاب، فاستوزره نور الدين وحسنت حاله عنده. ولما توفي صلاح الدين انتقل ابنه الافضل الى صرخد فتبعه ضياء الدين هربا من أهل دمشق الذين أساء معاملتهم وهموا بقتله. واستدعي الملك الأفضل الى مصر للنيابة عن ابن أخيه الملك منصور فصحبه ابن الأثير. ولما اضطربت احوال الملك وخرج من مصر خرج ابن الاثير ايضا مستترا، ثم عام فالتحق به في سميساط على الفرات ومكث عنده مدة من الزمن. ثم الجاته الاحوال الى الضرب في البلاد حتى بلغ الموصل وكتب لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين. وتوفي ابن الأثير سنة 637هـ/ 1239م في بغداد، وكان قد توجه إليها رسولا من قبل صاحب الموصل.

ادبه

لابن الأثير من التصانيف: المثل السائل في أدب الكاتب والشاعر. طبع في مصر سنة 1939 بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ثم سنة 1959 بتحقيق الدكتورين أحمد الحوفي وبدوي طبانة، الوشي المرقوم في حل المنظوم. طبع في بيروت سنة 1289هـ، المرصع في الادبيات. طبع في الآستانة عام 1304، وفي المانية عام 1896

ابن سلام الجمحي

أبو عبد الله، محمد بن سلاَّم بن عبيد الله بن سالم الجمحي عالم بالأدب وأخبار العرب، وراوٍ معروف. إلا أن حياته ليست غنية بالمعلومات، فهي تنقسم إلى جانب شخصي وآخر علمي. أما الجانب الشخصي فلا يُعرف في نسبه فوق ولائه لبني جُمَح من قريش، وكان ولاؤه لقدامة بن مَظْعون الجمحي، إضافة إلى أنه ولد في البصرة.

وأما الجانب العلمي فإنه إخباري وراوية، وعالم بالشعر عند القدماء، وأديب بارع، ومحدث روى عن حمَّاد بن سَلَمة، ومبارك بن فضالة، وزائدة بن أبي الرقاد، وأبي عَوانة.

وحدَّث عنه: أحمد بن زهير، وثعلب، وأحمد بن علي الأبَّار، وعبد الله بن أحمد، أبوخليفة الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب الجمحي، ومما رواه أن لحية ابن سلام ابيضت، وكذلك رأسه، وله سبع وعشرون سنة. وكان ابن سلاّم صدوقاً على ما حكاه الذهبي في سير أعلام النبلاء ، وروى محمد بن أبي خيثمة عن أبيه أنه قال: لا يكتب عن محمد بن سلام الحديث رجل يُرْمَى بالقدر، إنما يكتب عنه الشعر فأما الحديث فلا فالخلاف في توثيقه كالخلاف في غيره، تُحْمَل روايته للحديث على الحذر.

وقد اعتّل ابن سلام في بغداد علة شديدة، فأهدى إليه الأمراء أطباءهم، وكان منهم ابن ماسويه الطبيب، فلما رآه قال: ما أرى من العلة ما أراه من الجزع!! فقال ابن سلام: والله ما ذاك لحرص على الدنيا مع اثنتين وثمانين سنة (ولعلها: وسبعين، فوهِم الراوي، وهو أنسب) ولكن الإنسان في غفلة حين يوقظ بعلمه، فقال له الطبيب: لا تجزع، وبشّره بعشر سنين، أخَر، فوافق كلامُه قدراً، فمات في بغداد، وقيل في البصرة.

ولابن سلام مؤلفات ذكر منها العلماء: طبقات الشعراء الجاهليين ، و طبقات الشعراء الإسلاميين ، وكتاب غريب القرآن ، وكتاب الحلاب ، وكتاب أجر الخيل .

أما كتابه طبقات فحول الشعراء مبني على مقدمة نقدية تتحدث عن نظرية الاختيار، ومذاهب الشعراء في الطبع والصنعة، ومسألة الانتحال أو ما يسمى النقد التوثيقي وما يلحق به من دراسة أسباب الانتحال قبل مرجليوث وطه حسين بقرون، ومن غير تعميم يفقد الحقيقة العلمية معناها، وتحدث عن منهجه في اختيار الشعراء وطريقته العامة في بناء الطبقات، منهجه الخاص ببناء الطبقة الأولى، وما يتبع طبقات شعراء البادية العشر، من طبقات تخضع لمؤثرات أخر كالمكان مثل شعراء القرى (المدينة، ومكة، والطائف، والبحرين) أو تخضع لغلبة الموضوع وضرب له مثلاً شعر المراثي، وثمة طبقة شعراء يهود لم يوجد في أشعارهم التي وصلت ما يؤيد قوله، وجعل للرجاز طبقة.

وجعل شعراء الإسلام في عشر طبقات، وقد وضع في كل طبقة من طبقات الجاهليين والإسلاميين أربعة شعراء فقط. قام العلامة محمود شاكر بتحقيق الكتاب حيث جمع فيه الشعراء الجاهليين والإسلاميين.

وأما كتبه الباقية فمازالت مطوية في خزائن الزمان على أمل أن تخرج في قابل الأيام. ولو وصلت كتبه الأخرى لأفاد علماً في أبواب اللغة والقرآن.

موقفه من الشعر الموضوع

يصور كتاب ابن سلام " طبقات فحول الشعر" جماع المراحل السابقة لما قبل في فجر الإسلام عن الشعراء الجاهلين، والإسلاميين. من حيث تصنيفهم إلى طبقات، في عيار الجودة، ومن حيث تذوق أشعارهم من لدن الأقدمين. وكان ابن سلام في هذا التدوين غير هياب من أن يبدي قولا، أو يعلل حكما، أو يحدد قيمة، ولكن في حدود جد ضيقة، يكلأها أولا وأخيرا غلبة الرأي العام على الإبداع الشخصي، فيما يعرضه أو يبديه من آراء حول الشعر والشعراء.

وفي ذلك ما فيه من الأهمية لدينا نحن المتأخرين بالقياس إلى ما كان يروج يومئذ عن الشعر والشعراء الجاهليين، والإسلاميين، على حد سواء. حسب ابن سلام أنه كان من المصادر الأساسية لمن كتبوا في الموضوع بعده، مثل أبي الفرج الأصفهاني في " الأغاني " وأبي عبد المرزباني في "الموشح" و أبي علي الحاتمي في " حلية المحاضرة".

وقد زرع ابن سلام شعراء مصنفه إلى طبقات بحسب ما كان يراهم فيها ذواقوا الشعر في الجاهلية وفي الإسلام، فهو لم يوزعهم بحسب اجتهاده المحض، قسم أربعين شاعرا جاهليا مختارين، فحولا، إلى عشر طبقات، أربعة في كل طبقة. وفعل مثل ذلك بشعراء إسلاميين ووضع من مختاري شعراء القرى خمسة منهم، يمثلون المدينة، وتسعة يمثلون مكة، وخمسة، يمثلون الطائف وثلاثة يمثلون البحرين.

ومما يلاحظ باهتمام في هذا التوزيع، أنه راعى :

أولا : تصنيف الشعراء بحسب بيئاتهم. فمنهم شعراء المدن، ومنهم شعراء القرى. مما يدل على أن المقارنة حين التوزيع لم تتم من يفترقون عن بعضهم في المكان أو الزمان.

ثانيا : أن العرف في بيئته كان يهتم بالجودة أولا قبل الكثرة، و أن الكثرة إنما تحظى بالأسبقية على القلة، إذا كانت كلها جيدة، فالمجيد المكثر أسبق إلى طبقات الفحول.

ثالثا : أن الأسبق بين الفحول إلى أرقى الطبقات من جودة شعره وكثرته تشمل أغراضا متعددة. وقد قال ابن سلام عن خطته "ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فأنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء ..فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين". وكرر ابن سلام الإعلان عن خطته في الفقرة (47) آخر مقدمته" ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم إلى رهط أربعة، على أنهم أشهر العرب طبقة ثم اختلفوا فيهم بعد. وسنسوق في اختلافهم واتفاقهم ونسمي الأربعة. ونذكر الحجة لكل واحد منهم، وليس تبدئتنا واحدا في الكتاب نحكم له، ولا بد من مبتدأ، ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى".

لقد كانت بيئة ابن سلام (أواخر القرن الثاني والقرن الثالث) تواجه شعرا كثيرا ينسب لأصحابه أو لغير أصحابه، مما شغل ابن سلام :

1- فعني بتحقيق النص تاريخيا من حيث نسبته إلى قائله، أو هو حاول ذلك على أقل تقدير، بيد أنه بالقطع قد شغله أمر الوضع في الشعر، وتهيب الشهادة بالعزو دون استخدام احتمالات الشك.

2- وعني بتأثير الزمان الذي قيل فيه الشعر لما لظروفه من ضوء يساعد على تبين الواقع من صحة الغزو.

3- كما عني بالمكان الذي تواجد الشعر فيه، لما للمكان من طابع يترك بصماته على الأثر فيكون ذلك مساعدا على تقييم النص وتقويمه.

4- كذلك اهتم ابن سلام بالمناسبة التي دعت إلى قول الشعر وذلك لما لها من أهمية في الشهادة على الثبوت والبطلان.

وأغلب الظن أن فائدة هذه المعايير التي تنبه إليها ابن سلام كانت جلية فيما أفضت به إليه من طرح الشك في نسبة ما بين يديه من شعر إلى المعزو إليهم، الأمر الذي ساعده على لفت الاهتمام إلى ما هو موضوع من الشعر.

ومن الحق لابن سلام وهو من استخدم احتمالات الشك تاريخيا في النصوص، أن نتساءل عن مدى صحة نسبة هذا الكتاب إليه ؟ كتاب " طبقات فحول الشعراء".

من المعلوم أن الكتاب أول ما طبع في فجر هذا القرن طبع بليدن سنة 1916، نشره يوسف هل بمقدمة ألمانية اللغة تحت اسم " طبقات الشعراء" ثم أعيد طبعه بعد ذلك بنحو أربع سنوات بنفس المحتوى في مصر سنة 1920، وتشكل كل من الطبعتين ثلث ما نرى الكتاب عليه اليوم بتحقيق محمود شاكر الذي سمى إنجازه ب " طبقات فحول الشعراء" أخرجه بهذا الاسم سنة 1952 معتمدا على نسخة خطية مجهولة الأصول، وعلى ما سبق أن نقله في الموضوع الأصفهاني والمرزباني بسنديهما عن ابن سلام وفي التصدير الذي كتبه المحقق للطبعة الجديدة أفاض في شرح سبب التسمية الجديدة وفي صحة نسبة الكتاب بصورته الحالية إلى ابن سلام ولم يخف حاجة البحث العلمي إلى الأمل في العثور على نسخة خطية أخرى لمصنف ابن سلام.

إن الكتاب بصورته الجديدة الحالية يضم تصنيف أربعة عشر ومائة شاعر، أربعون منهم في طبقات الجاهليين وأربعون في طبقات الإسلاميين، وأربعة في طبقة أصحاب المراثي وعشرون في طبقة القرى وثمانية في طبقة شعراء يهود.

لقد كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب لدى ابن سلام ذوقية أدبية تقويمية مما جعل عمله بداية لمنهج ستحقق قواعده على عهد الآمدي في الموازنة والجرجاني في الوساطة. فقد أثار ابن سلام بعمله قضايا أدبية من صميم النقد لما يحققها عمل الجاحظ في البيان، ذلك أن الجاحظ بما طرحه من اهتمام بالنثر العربي وموضوعاته كان قد شغله بيئته يومئذ من الصراع بين الموالي والعرب.

ولذلك كان كتابه " البيان والتبيين" موسوعة أدبية أن تثير الانتباه لمسائل نقدية ولكنها لم تكن قضية الجاحظ الأولى في كتابه، خلاف ما طرحه ابن سلام في كتابه عن الشعر والشعراء الجاهليين والإسلاميين، فقد كان ابن سلام يستقطب وجهات نظر النقدية في طبقات الشعراء وفي النصوص المعزوة إليهم من خلال ما انتهى إليه الرأي لدى إجماع المثقفين العرب. وفي هذا النطاق من تمحيض الذوق الأدبي للصفوة المثقفة التي كان عقبا لها، فإنه راح في مصنفة يثير الشكوك، وهو يقف أمام النصوص حول أصالة النسبة بين الشعر والشاعر الذي يعزى إليه. وهي إثارة للشك مفتتح من جاء بعد ابن سلام من النقاد. مهدت لهم، لأن يوغلوا في تفاصيلها وأسبابها ومذاهبها، ويبنوا عليها، كثيرا من اليقين. أو يكتنفوا بترداد منهجها من غير أن يتوصلوا إلى وسيلة لتفاديها. حاشا رجال تدوين الحديث الشريف.

لقد دخل ابن سلام إلى موضوعه بتفصيل قال كلمته بجهير القول كانت الأولى في عرض خطته بسبيل تصنيف الشعراء وفق ما قره علماء بيئته. وكان ذلك موضوع الجزء الأول. أما القضية الأخرى فهي الإبانة عن رأيه فيما هو قبله من شعر، هو مدعو إلى نسبته لذويه، الأمر الذي يحمل على اعتبار ابن سلام صاحب موقف واضح بخصوص عزو الشعر. أعلن عنه غير وجل خمس مرات وهو يدخل إلى طرح طبقاته. استخدم في إحداها لغة التقرير بوجود شعر موضوع ثم أعلن، بلسان من يقرر ويتهم، عن هذا الموقف في مرتين اثنتين وقبل ذلك حاجج بما يدفع به عن موقفه بعد أن قرر واتهم وحاجج دفعة واحدة في فقرة سابقة. فمما قرره قوله : "وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيته. ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي.

وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا لعيه، فليس لأحد أن يخرج منه".

ثم قرر واتهم بقوله : "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم، وأشعارهم وأرادوا أن تلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم. ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار

التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال. وقال ابن سلام كذلك : "وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية. وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره. ويزيد في الأشعار". ويحاجج ابن سلام في الفقرة التاسعة بما يشبه ما تنتهي به هذه الفقرة، فيقول : "أخبرني أبو عبيد عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بال بن أبي بردة (وهو وال عليها) فقال : ما أطرفني شيئا، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطئية مديح أبي موسى فقال : ويحك ! عدم الحطيئة أبا موسى، ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطئية ولكن دعها تذهب في الناس".

وفي فقرة أخرى يقرر ابن سلام ما يراه من وضع الشعر ويتهم ويحاجج في دفعة واحدة فيقول : "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار ...وكان من علماء الناس بالسير... فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف". ومضى ابن سلام في اتهام ابن اسحاق بالغفلة فيقول عنه : "أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : { فقطع دابر القوم الذين ظلموا}. أي لا بقية لهم. وقال أيضا : { وأنه أهلك عاد الأولى ، ثمودا فما أبقى} وقال في عاد { فهل ترى لهم من باقية} وقال : { قرونا بين ذلك كثيرا} وقال { ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله}

إن هذه الشكوك التي أعلن عنها ابن سلام في صحة بعض الشعر الذي قبله، تعد من الهمام الأساسية التي واجهت النقاد الأوائل للأدب. والإعلان عنها من ناقد أول يشير إلى مدى استخدام عقله وفطنته إلى ما هو بصدد نقده فإلى أي مدى تمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته على ممارسته للنقد في أوائل الأعمال النقدية بالأدب العربي.

قبل مناقشة هذا الموضوع فإن من الضروري الحديث عن أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين لما في ذلك من محاولة الإحاطة بالبواعث العملية والحوافز المجتمعية التي أهابت با بن سلام أن يستخدم احتمالات الشك فيما هو بصدد غزوه لذويه.

إن الإجابة عما أمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته (أو عدم تطبقها) على ممارسته النقدية في كتابه إنما يشفى فيها عمله النقدي في صلب الكتاب ولكن من الضروري قبل ذلك التعرف على أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين، لأن فيها محاولة الإحاطة بالبواعث العلمية والحوافز التي أهابت بابن سلام أن يستخدم احتمالات الشك - إن صح أنه استخدمها - فيما هو بصدد عزوه لذويه.

1- إن الغاية من العناية بالشعر لدى الرواة لم تكن مجرد الجانب الفني منه فذلك جانب قيم من جوانب أخرى متعددة كانت سببا في الوضع العمد، والنحل والانتحال، لقد كان الشعر ديوان العرب - كما لا نحتاج إلى القول - سجل مفاخرها بذكر أيامها وأنسابها وأحسابها، ولذلك كان هدف الوضاعين ولا سيما بعد العصر الجاهلي.

وربما كان تأويل ذلك يتمثل في أن القبائل العربية في ظلال الإسلام قد شغلها عن الاحتفال بحفظ الشعر الجاهلي ثورة الإسلام الجديدة بما فيها من نتائج الحرب ومشاغل العراك، وبما قد فرضته تعاليمها من قيم جديدة. ولئن لم يطل البعد بين ما كان يحتفل به العربي في الجاهلية القبيلية وبين ما يحتفل به في عصر الأحزاب السياسية في صدر الإسلام فإن ذلك جملة ما دفع بالرواة إلى الوضع والنحل والانتحال. وفي قريش بالذات بدأ الوضع في الشعر فإنها كانت أولى القبائل العربية عرضة للتفاخر والتناصر بين بعضها لبعض، واجهة التفاخر والتخاذل فيما بينها وبين قريناتها القبائل العربية الأخر. وذلك كله بسبب ثورة الإسلام وعلاقة قريش بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

2- كما كانت كلمات الشعر وبناؤه اللغوي فيما بعد صدر الإسلام الغاية من الوضع حيث كان عصر التدوين لعلوم اللغة العربية وآدابها في القرن الثاني من أسبابه، فعرف رواة محترفون لهذه الغاية من بينهم محمد بن عبد الملك الفقسعي رواية بني آسد. مثلا للرواة الوضاعين داود بن متمم بن نويرة مثلا للشعراء المتزيدين في أشعار الآباء.

وحفز على ذلك الجدل بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة للاستشهاد على الرأي ولم يلت من تقبل الوضع والاستناد إليه الكسائي ولا سبويه.

3- كما كانت الخلافات المذهبية بين علماء الكلام وبين مفسري القرآن سببا آخر على الوضع، أو تقبل المنحول. وقد كان المدونون يبحثون عن الشاهد من الشعر للقناعة المشتركة لدى الجميع بأن العلم أو الخبر الذي لا شاهد له من شعر الأول لا عبرة به ولا أساس له من الصحة.

لذلك كانت الغاية أحيانا تبرر الوسيلة. وقد تورط في إخباريون ، على رأسهم محمد بن إسحاق بن يسار الذي حاسبه ابن سلام حسابا عسيرا في مقدمة " طبقاته" وكان الشاعر سهل بن أبي غالب الخزرجي يزعم بأنه يروي أشعار الجن وينشدها في مجالس هارون الرشيد، وقد علق الرشيد على ما يسمعه مرة : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا، وإن كنت لم تره فقد وضعت أدبا.

4- كما كان الإدعاء وجب الاستئثار بالعلم سببا حمل عددا من الرواة على التزيد في الأشعار ونحل الشعر لغير صاحبه. وقد عرف من الكوفة حماد الرواية (155 هـ) بذلك كثيرا فقال فيه المفضل الضبي "سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يصلح أبدا. فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان ذلك ؟ فإن أهل العلم يردون من أخطأ عن الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارهم ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويجمل ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟"

5- كذلك كان الملق للحاكم من أسباب الوضع كالذي يرويه ابن سلام عما فعله حماد هذا من تخرص عل بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الاشعري والي البصرة حينما نحل الحطيئة شعرا في مديح جد بلال.

6- كما كان الزهو والخيلاء سببا للوضع أو لإقراره في مثل جواب بلال لحماد " ولكن دعها تذهب في الناس" . مع أنه قال قبل ذلك على رواية الحاتمي: "ويحك يمدح أبي الحطيئة ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطيئة كله".

7- كما عرف خلف الأحمر (180م) في البصرة يضع الشعر وينحله الفحول من المشهورين . فقد وضع القصيدة المعروفة بلامية العرب.

أقيموا بني أمية صدور مطيكم □ فإني إلى قـــوم سواكــم لأميـــل

وعزاهم إلى الشنفرى . ووضع شعرا ونحله لتأبط شرا زعم أنه رثى به خاله الشنفرى وقد قال الأصمعي : سمعت خلفا يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التي فيها

خيل صيام وخيل غير صائمة □ تحت العجاج وأخــرى تعلك اللجما

وينسب أبو عبيدة إلى أبي عمرو بن العلاء الزيادة في شعر الحارث بن حلزة، كما ينسب الأصمعي إلى ابن دأب عيسى بن يزيد وضع الشعر في المدينة.

8- وقد دأب المحدثون على الوضع ونسبة ما يضعونه من شعر إلى المشتهرين مثل خلف.

9- ومن ذلك ما يقرضه الشاعر، ثم يتهيب عرضه قبل أن يعرف رأي النقاد فيه، فإذا ما عرفه، لم يعد ذلك يملك وحده التصرف في صحة عزو ما قاله.

10- ومن أسباب الوضع أيضا : الحسد والعبث والتلبيس وذلك للكيد أو للإساءة أو للتشويه. ومن ذلك عزو شعر للبحتري في صفة الذئب لبعض العرب، أو نسبة كلام فج لثعلب.

11- ومما يدخل المنحول وليس بذلك اختلاف الروايات الذي ينشأ عن عادة النطق وفطرة التلفظ، ففي بيت للهذلي أن ذؤيب رواية أبي عمرو بن العلاء :

دعاني إليها القلب إني لأمره □ مطيع فما أدري أرشد طلابها

بينما يرويه الأصمعي : عصاني إليها القلب .... الخ

وربما أدى إلى الإختلاف في الرواية الاعتماد على الحفظ وحده، وقد يحفظ الشاعر كلمات يحرص على وزنها فيبعث ألفاظا أخرى مقومة للوزن، وإن لم تكن محافظة على أصل المعنى من مراد الشاعر.

12- وقد يكون السبب في انتحال الاسم تعدد الرواة أو نسيانهم ، أو اختلافهم. وإن القصيدة الواحدة قد تستجمع هذا كما في بائية كعب بن سعد الغنوسي التي يرثي بها أخاه أبا المغوار فقد روى أبو علي القالي في أماليه بأن بعض الناس يروي هذه القصيدة لكعب بن سعد الغنوي، وبعضهم يرويها بأسرها لسهم الغنوي وهو من قومه وليس بأخيهن وبعضهم يروي شيئا منها لسهم والمرثى بهذه القصيدة أبا المغوار، واسمه هرم وبعضهم يقول اسمه شبيب ...وهؤلاء كانوا يختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرهم وزيادة الأبيات ونقصانها. وفي تغيير الحروف في متن البيت وعجزه وصدره.

تتناول هذه الحلقة موقف ابن سلام الجمحي من إبداع امرئ القيس،مما يوجب الإشارة إلى ترجمة خاطفة لحياته و العودة إلى موقفه.أما حياته فهو أبو عبد الله محمد بن سلّام الجمحي،مولاهم البصري،يعد من أعيان أهل الأدب،و له من الكتب كتاب طبقات الشعراء الجاهليين،وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين،وغريب القرآن،و كان له علم بالشعر والأخبار،و كان يقول بالقدر، و مات الرجل سنة اثنتين وثلاثين و مائتين للهجرة (- 232هـ) بعد حياة دامت اثنتين و ثمانين سنة.

و أما موقفه من إبداع امرئ القيس فقد جاء موقفاً ضمنياً من غير تصريح تارة، و كان مصراً على إغفال موقفه من تقديم أي شاعر من شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، و هم:امرؤ القيس، و النابغة الذبياني، و زهير بن أبي سُلمى،و الأعشى ميمون بن قيس.

و مما ينبغي التنبيه إليه هو أن ابن سلام جعل امرأ القيس في الطبقة الأولى، وهذا تقديم ضمني لشعراء الطبقة الأولى كلهم على سائر الشعراء،من غير تقديم لواحد منهم على الآخر،و قد أقام تصنيفه على أساس اختيار أربعين شاعراً ممن غلب على أشعارهم طابع البداوة،و ضم من تشابهت أشعارهم بعضهم إلى بعض فوجد نفسه أمام عشر طبقات من الشعراء،و رأى في كل طبقة أربعة شعراء،و كشف عن أسس الاختيار في الطبقات العشر عامة،و الطبقة الأولى خاصة،و كانت مبنية على الشهرة، والفحولة،و الاعتدال،و التكافؤ،و رأى أنه لا يقدم شاعراً في الطبقة الأولى على شاعر،و أنه لا حجة في تقديمه شاعراً في الترتيب أو الذكر على أترابه في الطبقة الأولى،و هذا القانون يسري على الطبقات الأخر ما لم يصرح بخلاف القاعدة الأصلية التي بني عليها منهج التأليف.و لا تكسر القاعدة الأحوال الخاصة الموجبة للخروج على الأصل لعلة عارضة.

و بنية الكتاب في شروطه تقوم على عقل رياضي، ذلك أن ابن سلام من أصحاب الاعتزال و علم الكلام،و التماسك العقلي عنده عميق و قوي العرى.

المهم أنه جعل امرأ القيس في الطبقة الأولى و تحامى تقديمه على أقرانه لقوة فكرة التكافؤ في نفسه بين شعراء الطبقة الأولى،و اختلاف العلماء في الدولة العربية في أمر تقديم أي واحد من هؤلاء على أترابه،و اكتفى بعرض آراء من يقدمون هذا الشاعر، وعرض حججهم،و لم يتعقبهم بتعليق يدل عليه،اقتضاء لشروطه في مقدمة كتابه.

ذكر ابن سلام أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس،و أن علماء الكوفة كانوا يقدمون الأعشى،و أن علماء الحجاز و أهل البادية كانوا يقدمون زهيراً و النابغة. واحتج كل فريق لتقديم شاعره بحجج لم يناقشها ابن سلام،و لم يتحيز إلى أي فريق من المتخاصمين في تقديم شاعر على آخر.

صحيح أن ابن سلام ذكر أن علماء البصرة يقدمون امرأ القيس،بيد أنه لم يغفل عن حججهم في التقديم ليكشف لنا أن مسألة التقديم ليست قائمة على انفعال خالص بإبداع هؤلاء الشعراء بل هي راسخة في تحليل أشعارهم،و تحري وسائلهم الشعرية في الأداء الفني،و ذلك عندما قال:

"فاحتج لامرئ القيس مَن يقدمه قال: ما قال ما لم يقولوا،و لكنه سبق إلى أشياء ابتدعها،و استحسنتها العرب،و اتبعته فيها الشعراء:استيقاف صحبه،و التَّبكاء في الديار،و رقة النسيب،و قرب المأخذ،و شبه النساء بالظباء و البيض،و شبه الخيل بالعقبان و العصي،و قيد الأوابد،و أجاد في التشبيه،و فصل بين النسيب و بين المعنى**"**.

فامرؤ القيس لم يقل كلاماً بغير العربية التي يقول بها الشعراء أشعارهم،و لم يركب بحراً من بحور الشعر لم يركبه شعراء العرب من قبله،و لم يبتدع في فن القافية جهة لم تكن مطروقة من قبله، فهو من هذه الجهة التي تعد شرطاً من شروط شعرية الشعر المسكوت عنها عندهم لم يحدث بدعة في فن الموسيقى و الإيقاع بل تعدى ذلك إلى نسج الشعر الداخلي فسبق إلى أشياء كانت قبل أن يسبق الشعراءَ إليها كالأرض الموات،أو الكنز المخبوء، فأعاد صياغتها،و افتن في طرائق عرضها حتى بدت جديدة،وكانت حركته الفنية تحمل إبداعاً لقي استحسان الجمهور العربي،و من ثمَّ استحسان الشعراء الذين أخذوا من قوله كالقبس الروحي لأشعارهم،و اتبعوا طرائقه في الإبداع فكان فاتحاً لأبواب الشعر من جديد بعد أن أغلقت أبوابه دهراً طويلاً بالجمود و التقليد.مما يقدم فائدة للباحثين اليوم من الشعراء عن مواضع التجديد و طرائقه و شروط نجاح تجاربه،فليس نافعاً ما يتعمده بعض الناس من محاولات لا يستحسنها العامة من أبناء التذوق الفني و الأدبي،ولا تجد ترحيباً من الشعراء المتبعين،ولا عبرة في موارد التخريب التي يسميها أصحابها تجديداً،و لا بتصفيق الوهم القادم من رحم الغيب الآتي،فإذا مات الشعر في زمن إبداعه فلن يعود إلى الحياة بعد شلله و موته بمولده،آية ذلك لفظ الحياة له،و ما تلفظه الحياة لا تنعشه الأوامر،و لا تحييه الأماني و الأوهام،و لن يكون حبر طباعته سوى غُسل الموت،و لن تكون صحائف طباعته للناس سوى الكفن،و لن يكون إعراض الناس عنه سوى علامة من علامات تفسخ جثته.

و لا أريد أن أمضي في تحليل هذه الحجج لضيق المكان،و لحاجة كل عنصر من العناصر إلى أكثر من زاوية في هذا الحيز،و سأدع ذلك إلى وقت آخر ندرس هذه البنى النقدية الدالة على مواضع الإبداع في نظر القدماء.

مما تقدم يبدو أن ابن سلام جعل امرأ القيس في الطبقة الأولى،و حار في أمر التقديم لتكافؤ الشعراء في الطاقة الإبداعية عنده،و تكافؤ أدلة المحتجين من العلماء الذين احتج كل فريق منهم لشاعره،و ربما لم يشأ أن يغضب أحداً من العلماء في أمر يتصل في بعض جهاته بالذوق الجمالي،و صعوبة التفاضل بين الأشياء الجميلة معهودة،و القدرة على تعيين درجات الجمال ماتزال مجهولة،و قد وفَّى بشروط تكوين كتابه في حديثه عن الطبقة الأولى،بهذا التجرد ،و هذا الحياد العلمي.

Unit VI

حركة النقل

الترجمة في عهد الأمويين

لم يغفل الأمويون عن الاهتمام بالترجمة، رغم انشغالهم بالفتوحات وبتوطيد أركان الدولة. ومع ذلك فقد خطت الترجمة خلال حكمهم الخطوات الأولى، فقد انصرفت إلى الطب والفلك والكيمياء وفن العمار للحاجة إليها في تلبية مستلزمات الحروب والفتوحات الوافدة التي تتطلبها الفتوحات والسكان في البلاد الجديدة- أما الذي دعا إلى ترجمة هذه الكتب هو الأمير الأموي- خالد بن يزيد بن معاوية الذي أخفق في نيل الخلافة فانصرف إلى العلم والاهتمام بالترجمة، وفي ذلك يقول ابن النديم: (وكان خالداً يُسّمى حكيم آل مروان وكان رجلاً فاضلاً وله ميل ونشاط نحو العلوم. ولتحقيق هذه الرغبة أمر جماعة من فلاسفة اليونان الذين كانوا يقيمون في مصر ويجيدون العربية. فأمرهم بترجمة العديد من الكتب من اللغة اليونانية والقبطية إلى العربية، وكان هذا أول ترجمة في الإسلام من لغة إلى لغة.

كانت الكتب التي ترجمت لخالد بن يزيد المذكور تتعلق غالبيتها بالكيمياء. لأن خالداً كان يسعى لتحويل المعادن إلى ذهب. يذكر الأستاذ محمد كرد عليرئيس مجمع العلمي في دمشق سابقاً، إن خالداً استخدم أحد علماء مدرسة الاسكندرية -ايستوفن- في ترجمة بعض الكتب اليونانية الطبية إلى العربية أما المستشرق الإيطالي "نيللينو" يروي أن أول كتاب ترجم من اليونانية إلى العربية كان كتاب "أحكام النجوم" المنسوب إلى الحكيم" هرمس." ويذكر القفطي أنه في زمن مروان بن الحكم- 64-65- نقل أول كتاب طبي إلى العربية، من قبل كناش اهرن القس بن اعين، وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها- ماسر جويه- الطبيب البصري من السريانية إلى العربية. وكان اهرن من الأطباء الذين عاشوا في الاسكندرية في زمن هرقل (610-641م) وألّف كتاباً طبيباً باليونانية، ثم نقله إلى السريانية، حيث قام – ماسرجويه – بنقله إلى العربية.

ويروي ابن جلجل أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز-99-101-هـ وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب بالشام. فأمر بإخراجه ووضعه في مصلاّه. استمر النقل والترجمة في زمن الخلفاء الأمويين ولكن بالقدر القليل كما ذكرنا، ويذكر أحمد أمين أن من أشهر المترجمين في العصر الأموي كان -يعقوب الرهاوي الذي ترجم الكثير من الكتب الالهيات اليونانية إلى العربية. أما كتب الدواوين في زمن الدولة الأموية قد نقلت من اليونانية إلى العربية، أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، في سورية. وفي العراق من الفارسية إلى العربية على يد الحجاج والي عبد الملك.

أما الكتب القبطية في مصر فقد تُرجمت إلى العربية على يد عبد العزيز بن عبد الملك والي مصر حينذاك، وقد كان لهذه الترجمة والدواوين أثر كبير في دعم أسس الدولة العربية وأصبحت أيضاً اللغة العربية لغة الإدارة الرسمية في أرجاء البلاد، كما أن هذه الترجمات عزّزت وأظهرت فوائد الترجمة فأبرزت فوائدها لنشاط الحركة هذه التي لم تضعف بل زادت نشاطاً في العصر العباسي .

وقد روى ابن النديم أنه في زمن بني أمية نُقل الديوان في العراق من الفارسية إلى العربية بأمر من الحجاج. والمترجم هو صالح بن عبد الرحمن مولّى بني تميم وأصله من سجستان. وقد بذلت له الفرس مائة ألف درهم مقابل أن يظهر العجز في ترجمته ولكنه أبى ذلك. وفي عهد عبد الملك نقل الديوان في الشام من الرومية إلى العربية عن يد أبو ثابت سليمان بن سعد.

الترجمة في عهد العباسيين

ازدهرت الترجمة في العهد العباسي ازدهاراً عظيماً، كان العرب قبل العهد العباسي منشغلين بالفتوحات كما ذكرنا وبتوطيد دعائم الحكم، وما إن استقرت الأمور حتى جدّوا وراء العلم لبناء ونشر الحضارة العربية والإسلامية على المستوى الذي يتمشى مع اتساع البلدان المفتتحة ودائرة الخلافة. وهنا لابد من التوجه إلى تنشيط النقل والترجمة بالإضافة إلى العلوم الأخرى. فما أن انقضى عصر التابعين واستتد المسلمون في ثبات ويقين إلى كتاب الله ورسوله، حتى جهدوا إلى تحصيل المعارف في شغف ونهم، فكان العصر الأموي يمثل المرحلة المبدئية، ثم انطلق المسلمون في العصر العباسي سعياً وراء العلم اعتباراً من ولاية الخليفة العباسي، أبو جعفر المنصور الذي كان بارعاً في الفقه متقدماً في علم الفلسفة والفلك وبما يتصل بمعرفة أحوال النجوم، ومشجعاً للعلم والعلماء ولاينكر فضل سابقه- خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يلقب) بحكيم آل مروان كما ذكر سابقاً.

لقد كثر الجدل في عصر بني العباس بين أصحاب الفرق من المسلمين وبين أصحاب الأديان الأخرى، وكان المسلمون في هذا الوقت على علم بالمنطق اليوناني الذي ابتكره أرسطو ممّا حدا بهم إلى ترجمة الفلسفة اليونانية بعامة ومنطق أرسطو بخاصة، لإيجاد وسيلة راسخة لدعم الرأي، وإسناد الحجة. كما أن اتصال المسلمين خلال هذا الزمن بالمعارف اليونانية أدى إلى تطور أساليب الكلام بحيث توفر المسند على تفنيد حجج الخصم بالأدلة القياسية مما مكّن المسلمين من الرد على المعارضين ودحض ادعاءاتهم.

ولهذا كانت الضرورة ملحة في استمرار نقل وترجمة علم الكلام عن أرسطو إضافة إلى اتقان الجدل والمحاورات لمجابهة فرق: 1-المجوس 2- والثنوية 3-والمجبرة 4-والحشوية 5-والسمنية 6-والمانوية.

كما لقيت حركة الترجمة في هذا العصر التشجيع المناسب من الخلفاء والوزراء وخاصة، في عهد الرشيد والمأمون- كما جرت الترجمة عن لغات عديدة تولاها لبنانيون ومصريون وسوريون ومسلمون أو غير مسلمين ممن كانوا يتقنون لغة أجنبية إلى جانب العربية وكانت الترجمات ركيكة خضعت لمدة غير قصيرة لكثير من التصحيح والتدقيق والمراجعة غير أن مالفت أنظار الخبراء الأجانب هو سرعة استيعاب الفلاسفة والعلماء العرب وحتى الأفراد المثقفين منهم جميع المعارف المترجمة، فقد تمكنوا من تصحيح مافيها من أخطاء عن طريق العقل السليم والمدارك الواسعة والتجربة العملية.

لقد تساءل بعض الباحثين والمثقفين فيما بعد عن مصادر اتصال المسلمين بالتراث اليوناني والجواب تضمّن الاحتمالات التالية:

عن طريق الفرق غير الإسلامية من مجوس- ومجبرة وغيرهم مما ذكر. حيث كان بعض رجال تلك الفرق على علم كامل بالفكر اليوناني وخاصة، المنطق والفلسفة، وقد ثبت تعمقهم بهذه العلوم فيما دار بينهم وبين رجال الإسلام من مناظرات، غير أن المسلمين استطاعوا التفوق عليهم بالاعتماد على (علم الكلام) بالإضافة إلى علم المنطق والفلسفة والإلهيات.

مادار من مناقشات شفوية بين رجال الكنيسة وأصحاب التوحيد، فقد كان رجال الكنيسة على اتصال بالمعارف الخارجية عن طريق المدارس التبشيرية التي كانت ملحقة بالكنائس والأديرة، وقد تبين أن أشخاصها كانوا على دراية بالفلسفة اليونانية وبالطقوس الدينية فيها.

اتصال المسلمين بالحركة (الغنوصية) التي تحمل في أعماق فلسفتها الكثير من عناصر الفلسفة اليونانية.

هذا وقد انقسم عهد الترجمة في العهد العباسي إلى دورين رئيسين : يمتد من قيام الدولة العباسية إلى بداية عهد المأمون (132هـ،750م- 198هـ،814م) والثاني يبدأ بتوالي المأمون الحكم ويمتد طيلة عهده. (198هـ،814م-هـ833،218م.(في عام 145هـ أسس أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية مدينة بغداد، وجعلها عاصمة الدولة الإسلامية بدلاً من دمشق. فسرعان ما ازدهرت وطغى نورها الفكري على نور البصرة والكوفة، كما تقدمت على دمشق. ولم يعد يباريها إلاّ القسطنطينية. فكانت قصور المنصور خلال الفترة 136- 158 - والرشيد 170-193- والمأمون 198هـ،814م-218هـ،833م وغيرهم في بغداد، ملتقى العلماء والشعراء بعناية الدولة، فكان للخليفة أبو جعفر المنصور شغف بالطب والهندسة والفلك والنجوم. وهو أول من راسل ملك الروم طالباً منه كتب -الحكمة- فبعث إليه كتاب أقليدس وبعض الكتب الأخرى فجمع حوله صفوة

من العلماء الذين يتقنون اللغات الأجنبية، وشجعهم على ترجمة الكتب العلمية المنتقاة، وفي سبيل ذلك أشاد ديواناً للترجمة. فنقل جورجيوس بن جبرائيل بن بختيشوع للخليفة المنصور كتباً كثيرة من كتب، اليونانية، وكان قد استقدمه من مدرسة جنديسابور حيث كان رئيساً للأطباء فيها، فجعله طبيبه الخاص.

واهتم الخليفة هارون الرشيد (170-193)، بترجمة الكتب الأجنبية، ووسع ديوان الترجمة الذي أنشأه المنصور لنقل العلوم. وبعد احتلال عمورية طلب من البيزنطيين تسليمه المخطوطات اليونانية القديمة. ومن أشهر الكتب التي ترجمت في عهد الرشيد كان كتاب المجسطي لبطليموس الذي معناه "الترتيب الكبير في علم الفلك". كما أمر الرشيد بتعريب الكتب التي وجدها في أنقرة وعمورية أثناء غزواته (الصوائف) وعهد بها إلى يوحنا بن ماسويه، لأن هذا كان كبير المترجمين في عصره. ويقول صاحب الفهرست حول ذلك كان يوحنا بن ماسويه مسيحّي المذهب سريانياً عيّنه الرشيد أميناً على الترجمة وعهد إليه ترجمة الكتب القديمة مما عثر عليها في بلاد الروم حين سباها المسلمون.

وحسب رأي محمد عاطف البرقوقي وأبي الفتوح محمد التوانسي أن يوحنا هو الذي نصح الرشيد بإنشاء دار كبيرة ومتسعة للكتب وهي التي أنشئت فيما بعد وأصبحت تدعى دار الحكمة

ومن المترجمين الذين خدموا الرشيد وابنه من بعده الحجاج بن يوسف بن مطر الذي نقل كتاب- إقليدس (أصول الهندسة) على مرتين، المرة الأولى في زمن الرشيد وقد عرف بالنقل الهاروني، والمرة الثانية في زمن المأمون وعرف بالنقل المأموني، وكان عليه المعّول لأنه الأصح.

وكذلك عهد الرشيد إلى الفضل بن نوبخت الذي كان يتقن الفارسية بشؤون كتب دار الحكمة، كأمين لها، فكان ينقل ويترجم من الفارسية إلى العربية ما يتوفر له من هذه الكتب.

الدور الثاني ويشمل عهد المأمون ومابعده: كان الخليفة عبد الله المأمون قد لبث في سدة الحكم عشرين سنة (198-218هـ) وكان رجلاً ذا أفق واسع مستنير حّر التفكير- محباً للعلم والحكمة، شغوفاً بالدرس والتدقيق والبحث والمناظرة، حيث كان يجمع العلماء ورجال الفكر المستنيرين ليتناظروا أمامه باشتراكه معهم.

تمثل الظاهرة القرآنية سبباً جوهرياً للتوجه نحو العلم، فقد دعا القرآن الكريم العرب، بوصفهم المنطلق في الدعوة الإسلامية إلى أمرين:

1 -الأخذ بأسباب العلم والمعرفة وتيقظ العقل -2- تبليغ الدعوة الدينية فقد اعتمد المأمون هاتين الغايتين جاهداً لإنشاء بناء بشكل معرفي جديد ترتكز انطلاقته إلى المبادئ الدينية الإسلامية بعد أن وجد في المعارف الحاصلة في الأمم المحيطة بالجزيرة فائدة في توسيع الدعوة- فلابد لذلك من تعزيز النقل والترجمة التي برزت كعامل أساسي في العلاقة الجديدة، وكغاية عقدية تدعو إلى طلب العلم ولو كان في الصين. وأضحت الترجمة واجباً دينياً يخدم بها المسلم عقيدته. مرت الترجمة في الفترة الإسلامية السابقة بمراحل أولية لا بأس بها فقد بدأت أولاها بعصر عمر بن الخطاب الخليفة الثاني محدودة، حيث حظر الترجمة في المستوى المعرفي والفكري التجريدي وأباح الترجمة في المستوى العملي، على مبدأ اجتهادي، أن القرآن والسنة هما أصلان جاهزان لا بديل لهما في تأسيس الأفكار والمواقف عند المسلمين. لذلك كان سبب المنظور من الترجمة أو أوجه التلاقح بين العرب والفرس أو الروم أو اليونان أو اليهود عقدياً محضاً. أما العامل الأساسي الذي أباح الترجمة فيما بعد هو الحاجة الجديدة للدولة الإسلامية للاضطلاع بوظيفتها كما تفرضه هذه الحاجة، وسط تلاقح حضاري مفروض مقابل جهاز حكومي متطور عند فارس أو عند الروم، فتوسعت الترجمة فيما يتعلق بالإدارة ومتطلباتها. حتى جاء دور الخلفاء (أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد) اللذان بالتتابع فتحا باب التعامل مع سكان البلاد التي أسلمت أو أناس احتفظوا بدينهم. فأصبحت الجزيرة ثمّ الشام والعراق موطن الاحتكاك والتوالد الفكري، واحتفظت العواصم العربية بتقاليد معرفية موروثة ومختلفة من سريانية وهندية ويونانية وفارسية وحبشية وقبطية الخ... فأصبحت الترجمة حقيقة حضارية وواقعية، فقد بدأت فردية ثم أصبحت رسمية انطلاقاً من عهد خالد بن معاوية الأموي، ثمّ مزدهرة وموسعة في عهد المأمون. أما فيما يتعلق باستنارة عقل المأمون وحكمته فلنستمع إلى المؤرخ القاضي" -صاعد الأندلسي الذي يصف لنا المأمون في كتابه (طبقات الأمم) حيث يقول": لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع منهم، عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور تمّم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه، من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة، فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الثمينة وسألهم بما لديهم من كتب الفلاسفة. فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب- أفلاطون وأرسطوطاليس وأبوقراط وجالينوس وإقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة. فاستحضر لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها، ثمّ حض الناس على قراءتها ورغبّهم في تعلمها. فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس أولي النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها .فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم، فينالون عنده المنازل الرفيعة

والمراتب السنية. وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والإخبار والمعرفة بالشعر والنسب. فأتقن جماعة من ذوي الفنون والتعليم في زمانه كثيراً من أجزاء الفلسفة. وسنّوا لمن بعدهم مناهج الطلب ومهدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها".

وأيضاً يقول ديورانت إن أحد شروط الصلح بين المأمون والامبراطور البيزنطي ميخائيل الثالث أن يتنازل هذا للمأمون عن إحدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية وكان من بين ذخائرها كتاب بطليموس في الفلك، فأمر المأمون بنقله فوراً إلى العربية.

أنشأ المأمون في بغداد -بيت الحكمة- الذي كان يحوي المجمع العلمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة أقام فيها طائفة من المترجمين الذين أغدق عليهم الأرزاق من بيت المال.

وكذلك أرسل المأمون البعثات إلى بلاد الروم للحصول على الكتب، وحسب قول صاحب الفهرست: أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات عديدة وقد كتب إليه حول إرسال من يختار من العلوم القديمة وغيرها المخزونة لديه، فأجابه ملك الروم بعد تردد، فأرسل المأمون لذلك جماعة، منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلمان صاحب بيت الحكمة فأخذوا مما وجدوا وما اختاروه، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل..

وعلى مايبدو أن المأمون أرسل أكثر من بعثة إلى القسطنطينية وبلاد الروم للحصول على كتب بحاجة إليها حيث يستفاد من أخبار حنين بن اسحق أيضاً أن المأمون قد أرسله للبحث عن الكتب النادرة في بلاد الروم.

إن مايميز حركة الترجمة في عصر المأمون أن هذا الخليفة أحسن تنظيمها وجعلها مرجعاً ومنشطاً رسميين في الدولة، وأنفق من أجلها الأموال الطائلة. وقد ساهم في هذا النشاط حنين بن اسحق الذي نال ثقة وإعجاب المأمون وجعله يعطيه من الذهب، كما يروي، زنةماينقله ويترجمه من هذه الكتب إلى العربية مثلاً بمثل. وقد بقي قسم كبير من هذه الكتب إلى زمن أبي أصيبعة (القرن السابع الهجري) التي رآها بنفسه وحدثنا عنها.

أما بيت الحكمة فكان بمثابة كلية علمية، قُسمتْ إلى أقسام متعددة منها: -قسم الترجمة ويتألف من أقسام أصغر حسب اللغات الأجنبية السائدة حينذاك: اليونانية - والفارسية- والسريانية- والهندية. -قسم التأليف. -قسم للبحث الفلكي والمرصد.

وقد وضع هذا البيت بجميع أقسامه وفعالياته تحت إشراف عالم أو عالمين مع معاونين لهم، وممن تولى الإشراف على أقسام هذا البيت سهل بن هارون، الذي كان بالوقت نفسه أميناً لخزانة كتب المأمون الخاصة. وسعيد بن هارون الكاتب .ومن المنجمين في أيام المأمون حبش الحاسب المرزوي الأصل البغدادي الإقامة وله ثلاثة أزياج أولها المؤلف على مذهب السند- الهند. والثاني الممتحن وهو أشهرها وقد ألفه بعد أن رجع إلى متابعة الرصد، والثالث الزيج الصغير المعروف بالشاة، وأيضاً كتب غيرها.

ومنهم أحمد بن كثير الفرغاني صاحب المدخل إلى علم هيئة الأفلاك يحتوي على جوامع كتاب بطليموس.

ومنهم عبد الله بن سهيل بن نوبخت بليغ القدرة في علم النجوم .ومنهم محمد بن موسى الخوارزمي. ومنهم- اليهودي الذي كان في زمن المنصور وعاش إلى أيام المأمون وكان له خطٌ قويٌ في سهم الغيب.ومنهم يحيى بن أبي المنصور الذي كان أيضاً رجلاً فاضلاً كبير القدر. ومن الأطباء سهل بن سابور ويعرف بالكوسج وقد تقدم في الطب في أيام المأمون وأيضاً جبرائيل الكحال.

وقد رتب بيت الحكمة على مثال مكتبة الاسكندرية الشهيرة من حيث الوسائل وطرق العمل والغاية والهدف، وقد استمر هذا البيت في العمل بعد المأمون، وإن كان قد فقد الكثير من نشاطه حتى زمن ابن النديم صاحب الفهرست، في منتصف القرن الرابع للهجرة، علماً بأن ابن النديم ألفّ كتابه الفهرست عام 377هـ وهذا يدل على أن عمل هذا البيت استمر طوال عهد العباسيين، غير أن هولاكو دمره سنة 656هـ عند احتلاله لبغداد.

وقد اقتدى بالمأمون في ذلك العهد وبعده كثيرون من رجال الدولة وأهلها الميسورون فازدهر سوق الترجمة وتوافد على بلاد العباسيين من كل حدب وصوب، من أنحاء الجزيرة والعراق وبلاد الشام وفارس وفيهم من السريان والصابئة والنساطرة واليعاقبة والروم يترجمون الكتب من اليونانية والسريانية والفهلوية والسنسكريتية والنبطية إلى العربية.

وحسب قول أحد الرواة الثقات: ممن اهتم بإخراج الكتب من بلاد الروم مثل :محمد وأحمد والحسن بنوا موسى بن شاكر المنجم، حيث لبوا كل رغبة، وانفذوا حنين بن اسحق وغيره من المثقفين إلى بلاد الروم ليجيئوا بطرائف الكتب والمصنفات في الهندسة والفلسفة والطب والموسيقى والحساب وكانوا يمنحون جماعة الترجمة مثل حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن

وثابت بن قرة وغيرهم نحو خمسمائة دينار في الشهر للترجمة واللازمة. وجاء أيضاً في كتاب -شمس العرب تسطع على الغرب- لمؤلفته الألمانية سيغريد هونكه، مايلي: (إن أبناء موسى بن شاكر قاموا بإيفاد الرسل على نفقتهم الخاصة إلى بلاد الروم بحثاً عن المخطوطات الفلسفية والفلكية والرياضية والطبية القديمة. وكانوا يدفعون المبالغ الطائلة لشراء الآثار العلمية اليونانية وحملها إلى دارهم قرب باب التاج وهي الدار التي قدمها لهم المتوكل على مقربة من قصره في سامراء. وقد اتخذ المتوكل فيما بعد نفس طريقة المأمون فيما يتعلق بتجميع المترجمين وإرسال البعثات لتحصيل الكتب الواجب نقلها.

لم ينفرد ولدا موسى بن شاكر لوحدهم في هذا العمل، بل أصبح اقتناء المخطوطات وترجمتها إلى العربية هواية الأمراء والوزراء وميسوري القوم، فكانوا أثناء الترحال أو التجارة لا يتوانون في جلب مايروق لهم من هذه الكتب. ومن أشهرهم، الفتح بن خاقان- وعبد الملك بن الزيات الزير في بلاط بني العباس.

ولا يمكن نسيان الأندلس التي كانت موطناً للنقل والترجمة العلمية أو الثقافية إلى العربية بعد بغداد قبل أن تصبح موطن الكشف والإبداع في ميادين الآداب والعلوم والفنون .

فقد رعى حكام الأندلس حركة الترجمة وشجعوا عليها وعملوا على اقتناء الكتب ونقلها إلى العربية.

يحدثنا ابن أبي أصيبعة في حديثه عن ابن جلجل، أن أرميانوس ملك القسطنطينية) 293-348هـ، 905-959م) عندما أراد أن يرسل هدية إلى الناصر عبد الرحمن بن محمد في قرطبة جعل من ضمن هديته- كتاب أدسقوريدس الذي يحتوي على وصف العقاقير النباتية باللغة الإغريقية فقدر الناصر هذه الهدية حق قدرها. ولما لم يكن في دولته من يحسن ترجمة هذا الكتاب من اليونانية القديمة إلى العربية، فقط طلب من أرميانوس الامبراطور نفسه أن يبعث إليه بمن ينقلها، فأرسل هذا الأخير إليه الراهب نقولا الذي وصل قرطبة عام 340هـ وقام بترجمة هذا الكتاب إلى العربية ولاسيما ما فيه من أسماء العقاقير.

الدور الثالث لحركة الترجمة -أشهر المترجمين- اشتمل هذا الدور على الطبقة الثالثة من المترجمين ويبدأ من نهاية عام ثلاثمائة للهجرة. ومن بين المترجمين فيه.

-ابن يونس: ويروي القفطي أنه كان ببغداد في خلافة الراضي بعد سنة 932م-320هـ.
حسان بن ثابت بن قره المتوفي عام 932م-360هـ. -يحيى بن عدي المتوفي عام 974م-364هـ.
-أبو علي بن زرعة المتوفي عام 1008م-398هـ.

وكان أكثر ما يترجم من كتب هذا الدور، الكتب الطبيعية وكتب المنطق لأرسطو وأيضاً تفسير هذه الكتب التي قام بها الاسكندر الأفروديسي، بالإضافة إلى بعض الكتب الهندسية والعلمية.

وماهو جدير بالذكر، أن ما حصله العرب خلال تلك الأدوار من التراث اليوناني الثقافي وغيره، لم يصل إلى أوروبا إلا بعد حوالي أربعة قرون، أي بعد انحلال الدولة الإسلامية حيث بنى الغرب حضارته عليها وبعد أن أضاف العرب والمسلمون إلى هذا التراث ما ابتكروه ودققوه. ويثبت ذلك ما نجده حالياً مسجلاً للعرب والمسلمين في الكثير من دوائر المعارف العالمية كشاهد لفضلهم

وقد برز في هذا العصر، ابن سيناء الفيلسوف والطبيب والطبري الطبيب المشهور وأيضاً تلميذه محمد بن زكريا الرازي. وفي تاريخ القفطي من الروايات ما يحقق شغف العرب والمسلمين بالعلم والمعرفة. منها:

حكى يحيى بن عدي قال: عرض عليّ شرح الاسكندر الافرودسي على كتاب: سمع البيان، وكتاب البرهان بمائة دينار وعشرين دينار فمضيت لإحضار الدنانير، ثم عدت، فأصبت القوم ووجدتهم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل خراساني بثلاثة آلاف دينار.

وحكى يحيى بن عدي أيضاً قال: ألتمست من إبراهيم بن عبد الله الناقد النصراني نصوص: - سوفسطيقا، والخطابة – والشعراء - بنقل حنين بخمسين دينار، فلم يبعها، فأحرقوها وقت مماته.

ويعلق القفطي على ذلك قائلاً: انظر مدى همة الناس في تحصيل العلوم، والاجتهاد في حفظها. وكان ذلك في منتصف القرن السابع الهجري، حيث كانت الحركة العلمية فتية ومزدهرة، رغم ما أصابها من تمزق وتدهور سياسي.

وعن ابن سيناء قيل: أنه لما قدم بخارى لعلاج السلطان نوح بن منصور قال :سألتُه الإذن في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة مافيها، فأذن لي، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة، وفي كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض .وجدت في بيت: الكتب العربية وكتب الشعر، وفي بيت آخر وجدت كتب الفقه. وهكذا في كل بيت كانت الكتب المفردة. وبجانبها طالعت فهرست كتب الأوائل.

العلوم اللسانية

علم اللغة

نريد بعلم اللغة الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها، وهو ينتهي بتأليف المعاجم اللغوية، ولم يتم نضجها إلا في العصر العباسي الثالث. لكن السبيل تمهدت لها في هذا العصر وما يليه بما الفه الأدباء من الكتب في الفاظ الموضوعات الخاصة. وقد جاء ذكر بعضها في مؤلفات الاصمعي وغيرها من كتب الأدب، ككتاب الخيل وأسماء الوحوش وكتب الشاء وخلق الإنسان. وقد يتبادر إلى الأذهان من قراءة أسمائها أنها كتب في علم الحيوان أو التشريح، ولكنها كتب لغوية يحوي كل منها أسماء الحيوانات واعضائها، ومن الإنسان أسماء أعضائه وأحواله. وكانت للعرب همة عالية في استقصاء ذلك في صدر دولتهم يتبارون في التنقيب عنه من اماكنه، إما بالسفر إلى البادية أو بالسؤال ممن يفد على البصرة والكوفة من فصحاء العرب كما تقدم.

وكان الأمويون يستحثون الأدباء على ذلك بمناقشات يثيرونها بين أيديهم في هذه الموضوعات كما فعل عبد الملك في مجلس من مجالسه ضم جماعة من خاصته ومسامريه فقال : أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه وله علي ما يتمنها، فقام إليه سويد بن غفلة فقال: انا له يا أمير المؤمنين، فقال : ما عندك؟ قال : أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خد. دماغ. ذكر. رقبة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غببة. فم. قفا. كتف. لسان. منخر. هامة. وجه. يد. فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين.

فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا امير المؤمنين أنا أقولها في جسد الإنسان مرتين، فضحك عبد الملك وقال: أما سمعت ما قال؟ قال: نعم أنا أقولها ثلاثا، فقال له: لك ما تتمنى، فقال: انف. اسنان. أذن. بطن. بصر. بز. ترقوة. تمرة. تينة. ثغر. ثنايا. ثدي. جمجمة. جنب. جبهة. حلق. حنك. حاجب. خد. خصر. خاصرة. دبر. دماغ. دردر. ذكر. ذقن. ذراع. رقبة. رأس. ركبة. زند. زردمة. زغب. ساق. سرة. سبابة. شفة. شعر. شارب. صدر. صدغ. صلعة. ضعل. ضفير. ضرس. طحال. طرة. طرف. ظهر. ظفر. ظلم. عين. عنق. عاتق. غببة. غلصمة. غنة. فم. فك. فؤاد. قلب. قدم. قفا. كف. كتف. كعب. كسان. لحية. لوح. مرفق. منكب.منخر. نغنوغ. ناب. نن. هامة. هيف. هيئة. وجة. وجنة. ورك. يمين. يسار. يافوخ. ثم نثض مسرعا وقبل الأرض بين يدي عبد الملك. فقال: والله ما نزيد عليها أعطوه ما تمنى، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

فهذا وأمثاله بعث الناس على العناية بحفظ ألفاظ اللغة، وحمل الآخرين على التأليف فيها بشكل مجاميع كل مجموع في موضوع. فكتاب النخل والكرم مثلا لا يبحث في طبائع النخل والكرم ومعالجتهما أو زراعتهما، وانما هو يبحث في اسماء انواعهما وأغصانهما وما يتعلق بهما من اسم أو فعل. وهاك قطعة من أول هذا الكتاب على سبيل المثال:

من صغار النخل الجثيث وهو أول ما يطلع من أمه، وهو الودي والهراء والفسيل، وإذا كانت الفسيلة في الجذع ولم تكن مستأرضة فيه فهو من خسيس النخل والعرب تسميها الراكب. فإذا قلعت الودية من أمها بكربها قبل ودية منعلة. فإذا غرسها حفر لها بثرا فغرسها ثم كبس حولها بترنوق المسيل والدمن، فتلك البئر هي الفقير يقال: فقرنا للودية تفقيرا، والأشاء من صغار النخل.

ومن نعوت سعفها وكربها وقلبها يقال للفسيلة إذا اخرجت قلبها قد انسغت. ويقال للسعفات اللواتي يلين القلبة العواهن في لغة اهل الحجاز. أما أهل نجد فيسمونها الخوافي واصول السعف الغلاظ الكرانيف الواحدة الكرنافة. والعريضة التي تيبس فتصير مثل الكتف هي الكربة وشحمة النخلة هي الجمار. فإذا صار للفسيلة جذع قيل قد قعدت وفي أرض بني فلان من القاعد كذا وكذا. والسعف هو الجريد عند أهل الحجاز واحدته جريدة وهو الخرص وجمعه خرصان والخلب الليف واحدته خلبة.

وقس على ذلك خلق الإنسان والإبل وغيرها. فكل منها يشتمل على أسماء وأفعال تجمعها صفة مشتركة بينها في المعنى. فهي من قبيل المعاجم المعنوية التي تجمع مفردات اللغة فيها حسب معانيها تمييزا لها عن المعجمات المعنوية فقه اللغة الألفاظ بحسب هجائها على ترتيب الأبجدية. وأشهر المعجمات المعنوية فقه اللغة للثعالبي، والمخصص لابن سيده، وهي أتم مما فعله الأصمعي وأترابه ولكن تشبهها من حيث المراد بها وسيأتي ذكرها في مكانها. وعلى كتب الخيل والشاء والإبل والشجر والكرم وخلق الإنسان وأشباهها من كتب النوادر والأمثال والأضداد واللغات والفروق وغريب القرآن وكتب المياه والجبال، ونحوها، عول واضعو المعجمات في ضبط الألفاظ ومعانيها فضلا عن تحريهم للمفردات عن فصحاء الأعراب.

النحو

النحو باعتبار ما تقدم فرع من الأدب، لكنه ولد قبله لاحتياج المسلمين إلى ضبط القراءة. فوضعه أبو الأسود الدولي كما تقدم في العصر الأموي، وقد نضج وصار علما في أيام العباسيين على أيدي أدباء البصرة والكوفة. وأهل البصرة أسبق إلى ذلك وهم الذين ضبطوا النحو والفوا فيه. ومنهم أبو الأسود واضعه، وابن أبي اسحاق الحضرمي أول من علله، وعيسى بن عمر الثقفي أول من ألف فيه،

وهارون بن موسى أول من ضبطه، وسيبويه أول من أجاد في تأليفه. ثم قلدهم الكوفيون، وخالفهم في بعض قوانينه، وقامت المناظرة بين البلدين، وصار لكل منهم مذهب في النحو كما هو مشهور. وأهل البصرة ارسخ قدما واوسع علما واولى بالثقة. ولكن السياسة اقتضت ظهور الكوفيين بعد قيام الدولة العباسية، فقدمهم خلفاؤها لأنهم كانوا من انصارهم. فكانوا نقربونهم ويفضلونهم على نحويي البصرة ويختارون منهم أساتذة لأولادهم، فالكسائي والفراء والمفضل الضبي والشرقي بن القطامي كلهم من أهل الكوفة وقد علموا ابناء الخلفاء، ولولا الغرض السياسي ما كان لهم ذكر. وتحامل الأمين على سيبويه في المناظرة التي عقدها بينه وبين الكسائي بشأن النحلة والزنبور، وهي أشهر من أن تذكر.

فالبصريون أصحاب الفضل في وضع النحو وترقيته وتنسيقه، بدأ بذلك أبو الأسود فوضع بعض قواعده وأخذ يلقيها ويعلمها لمن شاء من الأدباء أو القراء.. فكان أبرع تلامذته عنبسة بن معدان المهري، فأقبل الناس يطلبون النحو على يده، فتفقه عليه جماعة كان أبرعهم ميمون الأقرن، فجعل الناس يأخذون النحو عنه تلقينا بلا تعليل ولا ضبط. ويقال إن أول من علله، أي ذكر أسباب إعرابه، عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي المتوفي سنة 117هـ، والغالب في اعتقادنا أن تعليل الإعراب لم ينضج إلا بعد نقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية في العصر العباسي الذي نحن بصدده.

العروض

نظم شعراء الجاهلية وصدر الإسلام القصائد المتنوعة والبحور والأوزان، سليقة وتقليدا، ولكن اول من دون قواعد النظم كان الخليل، فحصر اوزان الشعر في خمسة عشر وزنا سماها بحورا وقد زاد عليها الأخفش بحرا دعي المتدارك.

البلاغة

بعد ان فرغ العرب من جمع شتات الفاظهم وضبطها في المعاجم، راحوا يعنون ببلاغتها وحسن تأديتها للمعاني، فتكون من ذلك علم البيان والمعاني والبديع. واول من الف في البيان ابو عبيدة صاحب مجاز القرآن وتناول الجاحظ في كتابه اعجاز القرآن بعض اغراض عمل المعاني. ولكن واضع قواعد هذين العلمين هو بلا مراء الجرجاني مؤلف اسرار البلاغة في البيان، ودلائل الاعجاز في المعاني. وجاء بعده السكاكي صاحب مفتاح العلوم، فميز بينهما فاصبحا مستقلين. وتكلم ابن الاثير على هذين العلمين في المثل السائر والبرهان في علم البيان. اما البديع فإن ابن المعتز هو أول من صنف فيه، فجمع من انواعه سبعة عشر نوعا، زاد عليها الأدباء بعده حتى بلغت المئة والأربعين في خزانة الأدب لابن حجة.

خليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي، سيد أهل الأدب في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله. وكان من تلامذة أبي عمرو بن العلاء، وعنه أخذ سيبويه. وعامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل، وكلما قال سيبويه سألته أو قال من غير أن يذكر القائل فهو يعني الخليل. وأخذ عنه أيضا النضر بن شميل، ومؤرخ السدوسي، وعلي بن نصر، وغيرهم.

وقد علمت أنه أول من ضبط اللغة، وهو أيضا أول من استخرج علم العروض إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر يستخرج منها 15 بحرا. ثم زاد فيه الأخفش بحرا سماه الخبب. وقد ضبط أوزان الشعر ووقعها على المقاطع والحركات، واستغرق في درس ذلك حتى كان يقضي الساعات في حجرته وهو يوقع بأصابعه ويحركها.. رووا ان ابنه دخل عليه مرة وهو في هذه الحال فظن أنه أصيب بالجنون فقال له الخليل:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت انك جاهل فعذرتكا

وكان الخليل في فاقة وزهد لا يبالي بالدنيا، وذكروا أن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزا يابسا وقال: كل، فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان، فقال الرسول: فما أبلغه، فقال:

أبلغ سليمان أني في سعة وفي غني غير أني لست ذا مال

سخى بنفسي أني لا أرى أحدا يموت هزلا ولا يبقى على حال

والفقر في النفس لا في المال تعرفه ومثل ذلك الغنى في النفس والمال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

وأهم مؤلفاته كتاب العين. الخليل أسبق العرب إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم قبل الأصمعي وسيبويه وسواهما من الأدباء والنحاة. فله فيها كتاب سماء كتاب العين جمع فيه ما كان معروفا في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها وشروطها ورتب ذلك على حروف الهجاء. لكنه رتب الحروف حسب مخارجها من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين، وبدأ بحرف العين وجعل حروف العلة في الآخر. فكان الخليل حذا بذلك حذو الهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية، فإنهم يدؤون بأحرف الحلق وينتهون بالأحرف الشفوية.

وكان من عادة العرب أن يسموا الكتاب بأول لفظ من ألفاظه، ككتاب الجيم للهروي وهو كتاب رتبه على حروف المعجم بدأ به يحرف الجيم، وكتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، ومثلهما كتاب الغين، وكتاب الميم، ويستفاد من ترتيب الحروف في كتاب العين أن الجيم كانت تلفظ كالكاف الفارسية.

سيبويه

نشأته وحياته

ولد إمام البصريين ابو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة. وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة، فأملى عليه قول النبي صلعم: ليس من أصحابي أحد الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابا الدرداء، فقال سيبويه: ليس ابو الدرداء، فصاح بن حماد: لحنت يا يسبويه، إنما هذا استثناء، فقال: لا جرم لاطلبن علما لا يلحنني معه احد، فطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمرن حتى حذق هذه الصناعة واحاط باصولها وفروعها ووقف على شاذها ومقيسها. ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصرين ناسبا إلى كل منهم قوله. فجاء كتابه فريدا في فنه، سديدا في منهجه، ليس وراءه مذهب لطالب ولا مراع لمستفيد. وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف ان اقتصروا في تسميته على الكتاب فإذا أطلق هذا اللفظ عند النحاة لا ينصرف إلا إليه. وكان المبرد أراد مريدا أن يقرأه عليه يقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيما له واستصعابا لما فيه. وقال أبو عثمان المازني: من أراد أن يعمل كتابا كبيرا في النحو بعد سيبويه فليستح ولو لا هذا الكتاب لخمل ذكل صاحبه.

ولما آنس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وقد إلى بغداد، وقصد البرامكة والكساني يومئذ بها يعلم الأمين بن الرشيد. فجمع بين الرجلين يحيى بن خالد فتناظرا في مجلس أعد لذلك. فكان من أسئلة الكسائي لسيبويه قوله: ما تقول في قول العرب كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو إياها فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب، فقال الكساني بل العرب ترفع ذلك وتنصبه، فلما اشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى اعرابي خالص اللهجة، فصوب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لانه معله ولانه كوفي – وضلع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء – فاراد الاعرابي على ان يقول بمقالة الكسائي. فلما احس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصدهم بالسوء اليه غادر بغداد وارتد مغموما الى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي سنة 177هـ بالغا من العمر اربعين سنة ونيفا.

الكسائي

نشأته وحياته

هو إمام الكوفيين ابو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي نشأ بالكوفة وأخذ القراءة عن حمزة الزيات، وتميز بقراءة خاصة فعد من القراء السبعة. ولم يكن له يد في الشعر، حتى قيل ليس في علماء العربية اجهل من الكسائي بالشعر، وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئا، فاقبل ذات يوم على بعض إخوانه من طلاب العربية وقال متأوها من مشي طويل: لقد عييت، فقالوا له تجالسنا وانت تلحن، فقال كيف لحنت؟ فقالوا له: إن كنت أردت من التعب فقل أعييت. وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عييت فأنف من ذلك التجبيه ولازم معاذا الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندهما.

وزاره الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله: أنى لك هذا العلم؟ فقال الخليل: من بوادي الحجاز ونجد تهامة. فخرج الكسائي إلى البادية فطاف أحياءها، وسمع فصحاءها، حتى استكمل حظه من الرواية، واستوف قسطه من اللغة. ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه. ثم أقامه الرشيد مؤدبا لولده الأمين. وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرته وبأمرهما الا ينزعجا بقيامه ومجيئه. ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وهما بصحبته، فماتا في يوم واحد برنبويه على مقربة من الري فبكاهما الرشيد وقال: دفنت الفقه والعربية بالري.

مؤلفاته

انتهت إلى الكسائي الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبغداد وألف فيهما نحوا من عشرين كتابا. منها كتاب معاني القرآن. وكتاب النحو، وكتاب النوادر، وكتاب الهجاء ورسالة لحن العامة.

Unit VII

العلوم الدينية

التفسير

أما التفسير فنشط التأليف فيه، وظهر جماعة كبيرة من المفسرين بعد الطبري المتقدم ذكره في العصر الماضي. ومنهم في هذا العصر النقاش الموصلي المتوفي سنة 351 صاحب كتاب شفاء الصدور، ومنه قطعة في دار الكتب المصرية. والحوفي المصري المتوفي سنة 430 هـ صاحب كتاب البرهان في تفسير القرآن منه نسخة خطية في دار الكتب المصرية. وابن أبي طالب القيسي المتوفي سنة 437 في قرطبة، له مؤلفات كثيرة ضاعت، وغيرهم.

وأما الحديث فاستقرت قواعده في الكتب الستة المتقدم ذكرها، لكن العلماء ظلوا يشتغلون فيه بين أخذ ورد. وأشهر من نبغ فيه من المؤلفين في هذا العصر الحاكم النيسابوري المتوفي سنة 405، وأبو الفتح سليم بن أيوب الرازي المتوفي سنة 447، والآخري المتوفي سنة 360، والبيهقي المتوفي سنة 458 وغيرهم.

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز اول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه. فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعا بين الحديث والفقه. ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعا في الفقه، وتذرعا إلى الفضل، فراجت بضاعته، وانتشرت روايته، وقضى الله ان يندس بين رجاله كثيرا من أتباع الضلالة وأشياع الفرق فتقولوا على الرسول وادخلوا زور الحديث على اغفال الرواة فكثرت المفتريات وعمي على الناس الحق. فشمر الأئمة للحديث بالنقد والتمحيص، وللرواة بالجرح والتعديل. وكان أسبقهم إلى ذلك إسحق بن راهويه المتوفي سنة 238 فماز الحديث من الفقه. وتلاه شيخ الحديث البخاري، وإمام السنة مسلم، فجمعا صحاح الأحاديث في كتابيهما. ثم ظهر بعدهما أربعة كتب في عصر واحد تمت بها كتب السنة الصحاح. وهي كتاب ابي عيسى الترمذي 279، وكتاب أبي داود السجستاني 275، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي، وكتاب أبي عبد الله بن ماجه 273. وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشغلوا بها ما بين جمع وشرح وتلخيص. وكل كتاب بعدها كل عليها وراجع إليها.

علم الفقه

في صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم، وفي عصر بني العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه. وكانت المدينة حينئذ عش الفقهاء، ومقر المحدثين، وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث. فلما استقر ملك العباسيين في العراق انتشر الفقه بين اهله، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سليل الحجازيين في التشريع. ففقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم في الحديث بنوا احكامهم على النصوص، فلا يرجعون إلى القياس الجلي او الخفي ما وجدوا خبرا او اثرا. وهم اهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس. وفقهاء العراق لتشددهم في الرواية، وقلة بضاعتهم من السنة، وتأثير الجنسية الآرية فيهم، عمدوا إلى القياس في استنباط الفقه. وهم اصحاب الرأي وزعيمهم ابو حنيفة النعمانز واقتضت سياسة المنصور ان يظهر العراق على الحجاز، وبغداد على المدينة، والفرس على العرب، فاستقدم ابا حنيفة إلى بغداد، واكرمه وعزز مذهبه، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك: واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والاندلس، ثم جاء محمد بن إدريس الشافعي وهو احد اتباع مالك، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبي حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذهبين وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه، فوضعه وضعا جديدا ونشره بها ثم يبغ من بعده أحمد بن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية، واختص بمذهب آخر انتشر في بلاد نجد والبحرين تقيد فيه بالسنة وتشدد في الفروع. وهذه هي المذاهب الاربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائل الامصار.

علم الكلام

هو حادث بعد الفقه، وسبب وضعه أنه ورد في القرآن وصف الإله بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل. وقد فسرها صاحب الشريعة الإسلامية والصحابة والتابعون على ظاهرها. وورد في القرآن أيضا آيات أخرى توهم التشبيه مرة في الذات ومرة في الصفات، ورأى الأولون ذلك الخلاف، فغلب في معتقدهم تفضيل التنزيه لكثرة أدلته ووضوح دلالتها وتابعهم الأكثرون. غير أن جماعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه في الذات، فاعتقدوا في الله صفات الآدميين كاليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت في بعض الآيات، فوقعوا في التجسيم الصريح وخالفوا التنزيه المطلق. وأخذوا يكتبون ويقولون أقوال كثيرة مخالفة لرأي الجمهور... فنهض أهل السنة وهم التابعون لأقوال الصحابة وجاؤوا بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعا لتلك البدع، وهو علم الكلام أو التوحيد. وفي أثناء ذلك نقلت كتب اليونان إلى العربية، فأحبها المسلمون وعكفوا على مطالعتها...

فانتشرت فلسفة اليونان في الإسلام وأقبلت المعتزلة والقدرية والجهمية وغيرهم عليها، وأكثروا من النظر فيها فتوسعوا فيما أرادوا منها من تقوية الحجة والجدل فيما كانوا فيه. فازداد كل منهم تمسكا بمذهبه وعظمت الفتنة بسبب ذلك، وانتشرت تلك المذاهب بين المسلمين انتشارا عظيما وهي في ذلك العهد: مذاهب القدرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، والخوارج، والرافضة، والباطنة.

وما زالت الحال كذلك الى أن ظهر أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، فلك طريقا وسطا بين مذهب الاعتزال ومذهب أهل السنة، فمال غليه جماعة وعولوا على رأيه لما فيه من التسوية بين سائر الآراء، ووافقه جماعة كبيرة من نخبة علماء تلك العصور وهم الأشعرية مما يطول بنا الكلام فيه.

علماء الكلام

1. الإمام أبو حنيفة: أقدم من ألف في علم الكلام، فإن كتابه الفقه الأكبر يعد من هذا القبيل. وقد تقدم ذكره في كلامنا عن مؤلفاته في الفقه.
2. أبو حذيفة واصل بن عطاء الغزال المتوفي سنة 131 هـ: كان من الأئمة البلغاء المتكلمين وكان يلثغ في الراء، لكنه كان لبراعته واقتداره يخلص كلامه من الراء فلا يفطن لذلك أحد. ترجمته في ابن خلكان 127 ج2.
3. أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف المتوفي سنة 232هـ : كان شيخ البصريين في الاعتزال، وكان حسن الجدال قوي الحجة كثير الاستعمال للأدلة. ومما يروي عنه من هذا القبيل أنه لقي صالح بن عبد القدوس، وقد مات له ولد وهو شديد الجزع عليه، فقال له أب الهذيل: لا أعرف لجزعك عليه وجها، إذا كان الإنسان عندك كالزرع، قال صالح: يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، فقال له: كتاب الشكوك ما هو يا صالح؟، قال: هو كتاب قد وضعته من قرأه يشك فيما كان يتوهم أنه لم يكن ويشك فيما لم يكن حتى يتوهم أنه قد كان، فقال له أبو الهذيل: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن كان قد مات، وشك أيضا في قراءته كتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه. ترجمته في ابن خلكان 480ج1.
4. أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفي سنة 303هـ كان إمام المتكلمين في عصره، أخذ علم الكلام عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة، وله مقالات في مذاهب العلماء. ترجمته في ابن خلكان 480ج1.

5. أبو الحسن الأشعري المتوفي ببغداد سنة 333هـ: سمع زكريا الساجي وأبا خليفة الجمحي وسهل بن نوح ومحمد بن يعقوب المقرىء وعبد الرحمن بن خلف الضبي المصري. وروى عنهم في تفسيره كثيرا، وتتلمذ لزوج أمه أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي واقتدى برأيه في الاعتزال عدة سنين حتى صار من أئمة المعتزلة. ثم رجع عن القول بخلق القرآن وغير من آراء المعتزلة، وصعد كرسيا يوم الجمعة بجامع البصرة ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أعرفه بنفسي، أنا فلان ابن فلان كنت أقول بخلق القرآن وإن الله لا يرى بالأبصار وإن أفعال البشر هم يفعلونها، وأنا تائب مقلع، معتمد الرد على المعتزلة مبين لفضائحهم ومعايبهم. وأخذ منذ ذلك الحين الرد عليهم، وسلك بعض طريق أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن كلاب القطان، وبنى على قواعده وصنف خمسة وخمسين تصنيفا... منها كتاب اللمع، وكتاب الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين على أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل، وكتاب الإبانة، وكتاب تفسير القرآن... يقال إنه في سبعين مجلدا، وغيرها، وأكثرها ضاع. وكانت غلته من ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة على عقبه، وكانت نفقته في السنة سبعة عشر درهما. وكانت فيه دعابة ومزح كثير. قال مسعود بن شيبة في كتاب التعليم: كان حنفي المذهب معتزلي الكلام لأنه كان ربيب أبي علي الجبائي، وهو الذي رباه وعلمه الكلام. وذكر الخطيب أنه كان يجلس أيام الجمعة في حلقة أبي إسحاق المروزي الفقه في جامع المنصور، وقال أبو بكر الصيرفي: كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله تعالى الأشعري فحجزهم في أقماع السماسم.

التصوف

هو من العلوم التي نشأت ونضجت في هذا العصر وخلاصة تاريخه أنه من العلوم الشرعية المستحدثة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيها من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة.

وقد اختلف علماء الإسلام في أصل كلمة التصوف أو الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء او الصفة، وقال آخرون غير ذلك. ويرى ابن خلدون أن استقاقها من الصوف أقرب إلى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف. وعندنا أنها مشتقة من لفظة يونانية الأصل هي (صوفيا) ومعناها الحكمة ويتركب منها ومن (فيلوس) محب (فيلوصوفيا) أي محب الحكمة وهي بالعربية الفلسفة. فيكون الصوفية قد لقبوا به نسبة إلى الحكمة، لأنهم كانوا يبحثون فيما يقولونه أو يكتبونه بحثا فلسفيا. ويؤيد ذلك أنهم لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة، إلا بعد ترجمة كتب

اليونان ودخول لفظ الفلسفة فيها. ومدار طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال، ولهم آداب خاصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقي من ذوق إلى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم، فلما دونت العلوم في الإسلام كتب الصوفية في طريقتهم على ذلك المنهج، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النس على الاقتداء في الأخذ والترك، ومنهم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي سنة 465 هـ، وكان عالما في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة فضلا عن التصوف. وقد ألف فيه كتابه المعروف بالرسالة القشيرية، وهي مطبوعة بمصر سنة 1284 هـ وسنة 1304، وبهامشها تقريرات من شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري عليها. وأبو حفص عمر بن محمد الملقب شهاب الدين السهروردي المتوفي سنة 632 هـ ببغداد، ألف في ذلك كتاب عوارف المعارف. وقد جمع حجة الإسلام الغزالي بين الأمرين في كتاب الأحياء، فدون فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وسنأتي على ترجمة حاله ومؤلفاته. وصار علم التصوف علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط.

التاريخ

بدأ التاريخ يتكون في العصر الأموي كما تقدم، لكنهم لم يشتغلوا إلا فيما دعتهم إليه دولتهم وأغراضها من الإطراء بمشاهيرهم أو تحقيق الأنساب لأجل العطاء ونحوه، ولم يصل إلينا منه شيء لذهاب ذلك أثناء الفتن أو لتعمد العباسيين محو آثار الأمويين أو لإهمال الناس تلك الكتب مراعاة لرأي العباسيين.

على أن التاريخ بمعناه الحقيقي لم يتم تكونه حتى في العصر العباسي الأول الذي نحن بصدده. إنما تمهد فيه السبيل لتأليف التواريخ العامة أو الخاصة. ثم ظهر التاريخ في العصر الذي يليه بعد نقل العلم والأدب عن غير العرب واستقرار الأحوال السياسية والاجتماعية. فأهل المائة الأولى من العصر العباسي كان اشتغالهم على سبيل التمهيد مثل اشتغالهم في الأدب والتفسير والحديث. وفي كتب الأدب كثير من مواد التاريخ عن العرب وبلادهم.

على أنهم لما أخذوا في جمع القرآن وتفسيره وجمع الأحاديث احتاجوا إلى تحقيق الأماكن التي نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك. ولما اشتغل المسلمون بشؤون الخراج اختلفوا في البلاد هل فتحت عنوة أو صلحا أو أمانا، فاضطروا إلى تحقيق ذلك وتدوين أخبار الفتوح.

قد رأيت في كلامنا عن التاريخ في العصر الماضي ان الحاجة دعت يومئذ الى وضع السيرة النبوية والأنساب وأخبار الفتوح والطبقات. ويمتاز هذا العصر بكتابة التاريخ العام الشامل لأخبار القدماء والمحدثين مما لم يتعرض له أهل العصر الماضي. وإنما عمد أهل هذا العصر إلى التأليف فيه بعد أن اطلعوا على ما نقل من نوعه إلى العربية من كتب الفرس وبعد اتساع معارف القوم على أثر ترجمة كتب العلم القديمة عن أهل الأمم. وقد تقررت أحكام الشرع، فلم تبق حاجة إلى الخوض في الفتوح وأسبابها. فاقتصروا على تلخيص أخبارها وتبويبها وتحقيقها وضبطها. وضعفت العصبية العربية لتسلط الاتراك وغيرهم واستقرت الأنساب. فلم تبق حاجة الى الخوض في النسب وعلومه. وشاعت عصبية الوطن بعد ذهاب عصبية النسب على أثر المنافسات بين البصرة والكوفة وبغداد والشام، فاتجهت الافكار إلى تأليف الكتب الخاصة في أحوال المدن وأحوال الأمم.

وهناك ضرب من التاريخ تخلف عن علم الأدب أو تفرع عنه، نعني أخبار العرب وأيامهم وأشعارهم وشعراءهم وسائر أحوالهم. فهذه كانت داخلة في علم الأدب لعلاقتها باللغة والشعر، فلما اتسعت معارف الناس وتولدت العلوم اللسانية بالتفرع عن الأدب كما تقدم... كان من جملة فروعه ما تخلف عن الأخبار التي كانوا يأتون بها لإثبات معنى كلمة أو تعبير أو شعر أو نحو ذلك. وتوسعوا فيه، فصار تاريخا، لكنه مقصور على اخبار العرب وبلادهم. وكتاب هذا التاريخ يجوز إدخالهم في جملة علماء الأدب كالأصمعي وأبي عبيدة، وإنما جعلناهم في جملة المؤرخين لبيان عمل ناموس الارتقاء في التفرع والتنوع.

فالمؤرخون في هذا العصر ينقسمون إلى أربعة أقسام: مؤرخو الفتوح، مؤرخو أخبار العر وأحوالهم وشعرائهم والأنساب والطبقات وغيره، مؤرخو البلدان والأمم أي تاريخ كل بلد أو أمة على حدة... أو التاريخ الخاص، مؤرخو التاريخ العام.

اتخذ التاريخ في هذا العصر وجها آخر، فتكاثرت فيه التواريخ الخاصة للمدن الإسلامية أو الأمم أو والأشخاص. وذلك طبيعي بعد استبحار العمران وظهور الدول المتنافسة في الشهرة والسيادة وفي ترقية المملكة الإسلامية. وأكثرهم يقربون الكتاب ويغرونهم على تدوين محامدهم. كما فعل عضد الدولة بأبي إسحاق الصابي المتقدم ذكره، وكما فعل محمود الغزنوي بالعتبي الآتي ذكره.

وقد دعا إلى تدوين تواريخ الدول المستقلة ما حدث في ذلك العصر من الانقلابات السياسية. وتاريخ الأمة أو الدولة يدون غالبا في أواخر أيامها أو بعد انقضائها. وأما تراجم الأفراد، فيغلب تدوينها في حياة أصحابها بإيعاز منهم. ونظرا لتوالي التقلبات على مصر في القرنين الثالث والرابع بتنقلها من العباسين إلى الطولونيين فالإخشيديين فالفاطميين، ظهر فيها عدة كتب في التواريخ الخاصة ضاع أكثرها.

الجغرافية

نشأ علم الجغرافية في هذا العصر بعد نقل علوم القدماء إلى العربية، وفي جملتها كتاب بطليموس، وعليه معولهم في تقويم البلدان. على أن المسلمين بدؤوا في وضع الجغرافية قبل اطلاعهم على ذلك الكتاب لأسباب غير التي دعت اليونان إلى وضعها وهي:

أولا: كان المسلمون على اختلاف بلاده يحجون إلى مكة، والحج فريضة على كل مسلم. والقدوم إلى مكة يفتقر إلى معرفة الطرق والمنازل.

ثانيا: كان المسلمون يرحلون في طلب العلم إلى سائر الأمصار الإسلامية، والرحلة تستلزم معرفة الأماكن والمناطق.

ثالثا: أبحاثهم في تحقيق أسباب الفتح لضرب الخراج والجزية واجتناء المقاطعات، وهذه أيضا تفتقر إلى تعرف البلاد وطرقها... فاضطر العرب إلى التأليف في البلدان قبل هذا العصر. وأول من فعل ذلك رواة الأدب وأصحاب الأخبار.

فلما ترجمت الجغرافية إلى العربية واطلع العرب عليها، أخذوا في تأليف الكتب على مثالها وتوسعوا في ذلك وزادوا عليه ما عرفوه من قبل. ولم يكتفوا بالنقل والسماع، ولكنهم ركبوا البحار وجابوا الأقطار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وكتبوا ما شاهدوه أو تحققوا منه وصححوا كثيرا من أخطاء بطليموس. على أن علم الجغرافية عند العرب لم ينضج إلا في القرن الرابع للهجرة، فتهافت الناس على التأليف فيه.

ولكن علماء القرن الثالث الذي نحن في صدده، مهدوا السبيل للتأليف فيه من عند أنفسهم لكثرة أسفارهم في سبيل الرحلة أو لاشتغالهم في إحصاء خراج المملكة وفي تعيين طرق البريد، مما يقتضي معرفة الأماكن وأبعادها وجهاتها، وبعد ذلك من قبيل الجغرافية. وبين ما ألفوه في هذا الموضوع ما هو عام شامل للملكة الاسلامية وغيرها، ونسميه الجغرافية العامة. ومنه ما يختص ببقعة من الأرض وندعوه الجغرافية الخاصة.

ما زال الجغرافيون في هذا العصر يبنون كتبهم في الجغرافية على الرحلات، ولم ينضج على الجغرافية فيه نضجا تاما. ومع ذلك فإنه أبان فضل العرب في اكتشاف أماكن دخولها وبلاد ومسالك لم يسبقهم أحد إلى ما وصفها على أثر الفتوح أو الأسفار التجارية في أواسط آسيا وإفريقيا وفي البحر الهندي وبحر فارس وغيرها... فاكتشفوا كثيرا من جزائر المحيط وجزائر الأتلانتيك، وعرفوا أصقاع الأرض أكثر من سائر الأمم التي تقدمتهم. وتقسم الجغرافية في هذا العصر كما يقسم التاريخ إلى الجغرافية العامة والجغرافية الخاصة. وقبل التقدم إلى ذكر أخبار الجغرافيين من العرب، نذكر اشتغالهم برسم الخرائط.

الخرائط عند العرب

رسم الخرائط من الفنون القديمة، فقد وجدوا أمثلة منها في أنقاض بابل وأشور ومصر. أما العرب فبدؤوا برسم الخرائط في صدر الدولة العباسية بعد ترجمة كتب الفلك والجغرافية. وكانوا يجعلون أساس رسومهم قياس العرض والطول. وأول من رسم منهم خريطة الأرض على هذا الأساس محمد بن موسى المعروف بالخوارزمي في زمن المأمون... فإنه عين مواقع المدن والبحور بالدرجات الجغرافية المبنية على علم الفلك، كما فعل بطليموس القلوذي. فلما أخذوا في الرحلة أغضوا عن تلك المقاييس، وصاروا يرسمون الخرائط بلا قياس كما فعل أبو زيد البلخي في أوائل القرن الرابع للهجرة وابن حوقل والإصطخري والمقدسي في أواسطه... فإنهم كانوا يرون مشقة في تعيين الأماكن بالمقاييس، فاكتفوا بتعيين مواقع البلاد بالنظر إلى الجهات الأربع بدون تقدير الأبعاد بينها. ولم تكن عندهم قاعدة لتعيين الجهات المذكورة في الخارطة كما يفعلون اليوم، فإن الخرائط عندنا مقيدة في تعيين جهاتها بأن يكون دائما أعلاها شمالا وأسفلها جنوبا ويمينها شرقا وشمالها غربا. أما هم فالغالب عندهم أن يجعلوا الجهات في زوايا الخارطة، فالزاوية بين الأعلى واليمين مثلا قد تكون شمالا، والزاوية المقابلة لها من أعلى غريبا، أو أن تكون الزاوية بين الأعلى واليمين غربا وتكون المقابلة لها في الأعلى جنوبا، أو غير ذلك على أن العرب أخذوا بعد ذلك العصر في تعيين الأبعاد بين الأماكن، وأقدم من عينها منهم الشريف الإدريسي. وهاك تراجم أصحاب الجغرافية العامة.

علم الفلسفة

كانت حرية الفكر في الاسلام سببا في تعدد الفرق وظهور المعتزلة. وهم يذهبون الى تطبيع النصوص الدينية على الاحكام العقلية. وبنو العباس كما علمت اميل للقياس والرأي.

فاستفاض فيهم هذا المذهب. وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن. وضرم نار الجدل بين السنة والاعتزال، وزين له ان يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه، فهت بترجمة الفلسفة وامضى الركائب في طلبها، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها. فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية.

اجل إن الفلسفة العربية طور من اطوار الفكر الإسلامي، وحادث من تاريخ التمدن العربي، فكان عدد الفلاسفة قليلا، واثرهم في الشرق ضئيلا، ولكنهم كانوا خلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومنارا لاوربا العامهة يومئذ في غياهب الجهالة، التائهة في مجاهل القرون الوسطى، هداها إلى هذه الحضارة العظمى وتلك الحياة الراقية.

اتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحا يقارعون به أهل السنة، وأنحى هؤلاء بالطعن عليهم وعليها، وحذروا الناس منهم ومنها، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والفيلسوف غرضا للمقت والسخرية. وكان ذلك سرا في عهد المأمون والمعتصم والوائق نصراء الفلسفة وظهراء الحكمة، وجهرا في عهد المتوكل وأخلافه محيي السنة ومميتي البدعة فإنهم خفضوا من إشراف الفلاسفة وشدوا من شكائمهم والجؤوهم إلى التستر، وعقد المجامع خفية: فكان من ذلك جماعة وهي أشبه بجماعة الماسون في رسومها ورموزها. تألفت بالبصرة في أواسط القرن الرابع للبحث في ضروب الفلسفة، والعمل على نشرها، فكتبوا خمسين رسالة غفلا ضمنوها جملة الفلسفة العربية، وزيدة الحكمة اليونانية وقد بعثت في الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيوع. ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد وهو شيعيون، ونصرتهم في خذلان السنين، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدثور.

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق. انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسل (238هـ) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه. فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرافهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرماني سنة 458 فتبغ منهم الفلاسفة وكثر فيهم الحكماء. ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، وزرايتهم عليهم كانت أشد، فاستبد الملوك بهم مسايرة للشعب، وتحببا إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه. وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدي بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتحريق كتبهم.

وهكذا ظل ولاة الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم الأئذة بجيرانهم الفرنجة. ولا بدع فللعلوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول.

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن اسحق الكندي المتوفي سنة (236) وكان معاصرا للمأمون بارعا في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان. وألف في تلك العلوم واحدا وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو. وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية. ويليه أبو نصر الفارابي المتوفي سنة (239) الملقب بالمعلم الثاني صاحب كتاب السياسة المدنية، ومخترع القانون في الموسيقي. ثم أبو علي بن سينا وأبو حامد الغزالي. وأما الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر باجه المتوفي سنة (532) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفي سنة (587) صاحب رسالة حي بن يقظان وبحسبنا أن نترجم ثلاثة من أعلامهم.

العلوم الطبيعية

تقدم العرب شوطا بعيدا في الكيمياء، فاكتشفوا كثيرا من المركبات ووصفوا التقطير والترشح والتصعيد والتبلور والتذويب. ودرسوا خصائص النبات وأنواعه واستخرجوا العقاقير والأدوية، وخطوا خطوة واسعة في الصيدلة والطب. ومن مشاهير اصحاب هذه العلوم فضلا عن الذين ورد ذكرهم بين النقلة:

ابن ماسويه (857م / 243هـ) : وله نوادر الطب، والحميات. ابن سهل (869م /255هـ) : وله كتاب الاقراباذين، وقوي الأطعمة ومضارها ومنافعها والقول في النوم واليقظة. أبو بكر الرازي (864-925م /250-313هـ) : ولد في الري، وكان في حداثته مولعا بالموسيقي والغناء. ولما كبر درس الطب والكيمياء فنبغ فيهما وتولى رئاسة أطباء البيمارستان ببغداد. ومات في مسقط رأسه. يعد الرازي بحق من أكبر أطباء العرب إن لم يكن أكبرهم. وكتابه الحاوي هو أوسع دائرة معارف طبية في اللغة العربية. فالرازي لم يكتف باتباع الأوائل ولكنه اعتمد أيضا على التجريب والاختبار الشخصي فكان يتتبع بدقة تطور حالات المرض في الأعلاء، وهكذا تقدم علم الطب على يده.

ألف اكثر من مئتي كتاب، منها، في الطب: كتاب الحاوي والطب المنصوري، وكتاب الجدري والحصبة. وله ايضا مصنفات في الرياضيات والفلك وعلم الحيل والفلسفة، وقد اكتشف في الكيمياء زيت الزاج (حامض الكبريت) والكحول التي استخرجها من مواد نشوية وسكرية مختمرة.

ولا بد هنا ذكر ابن سينا الطبيب الفيلسوف، صاحب كتابي القانون والشفاء. وقد قيل: ان الطب كان معدوما فأحياه جالينوس، وكان متفرقا فجمعه الرازي، وكان ياقصا فكمله ابن سينا.

العلوم الرياضية والفلكية

جمع العرب معارف الهنود والفرس واليونان فألفوا في البر والهندسة والحساب والفلك. وبرع في هذه العلوم:

الخوارزمي (حوالي سنة 844م / 230هـ): عاش في عهد المأمون وكان متضلعا من الرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافية. أخذ خصوصا عن الهنود والفرس. من أهم مؤلفاته: حساب الجبر والمقابلة الذي كان له أثر بليغ. وله أيضا زيج فلكي اعتمده العلماء بعده، وكتابان في الأسطرلاب، وكتاب صورة الأرض. فهو من أبرز علماء العرب، إذ وضع الجبر شطر منطقي، وله فيه وفي الحساب أبحاث مبتكرة، وعرف الناس بالأرقام الهندية، وكانت له دراسات يمة في الفلك.

أبو كامل شجاع بن أسلم: (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر) كتاب الجمع والتفريق. الكندي: (أواخر القرن التاسع) ولد ونشأ في المصرة، وكان عالما بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والنجوم والألحان. من كتبه الرياضية: رسالة في استعمال الحساب الهندسي، ورسالة في استخراج مركة القمر من الأرض، وكتاب في البراهين المساحية، لما يعرض من الحسابات الفلكية.

الدينوري (859م / 282هـ): وله كتاب الجبر والمقابلة، وكتاب الأنواء وزيج. أبو العباس السرخسي (899م / 286هـ) : له المدخل إلى صناعة النجوم، وكتاب الأرثمطيقي. موسى بن شاكر وبنوه: ظهر موسى في عهد المأمون، واشتغل هو وبنوه محمد وأحمد وحسن بالرياضيات والهيئة والفلسفة.

Unit VIII

العهد العباسي في الغرب

(الأدب الأندلسي – الخصائص العامة)

البيئة السياسية

فتح الأندلس: في نحو سنة 92هـ / 710م تدفع العرب في موجة فتوحاتهم تستهويهم بلاد طالما استهوت الفاتحين والغزاة من قبلهم، بلاد تقع في الجنوب الغربي من القارة الأوربية قد حباها الله طبيعة جميلة، وتربة خصبة، وسماء معتدلة الأجواء، ونثرت فيها يد الفن على ممر العصور أبنية شاهقة، وقصورا رائعة، وآيات بينات في الهندسة والزخرفة، وقد سميت بالأمس أندلس وهي تسمى اليوم إسبانية.

ضجت بلاد أفريقية الشمالية بالعرب الفاتحين، ولم يكن بينهم وبين اسبانية إلا قفزة فوق بحر الزقاق، تحفز لها موسى ابن نصير، واستأذن لها الوليد، فسير مولاه طارق بن زياد، على رأس جيش جرار، أكثره من برابرة المغرب، فاندفع طارق كالعاصفة، وتغلب على لذريق في معركة وادي بكة سنة 711م، وراح يفتح بلدا إير بلد، وقد لحق به موسى بن نصير، الى أن دوخ الملوك، وأخضع العباد، ورفع لواء بني أمية على كل جبل وفوق كل واد، وإذا الأندلس إقليم من أقاليم الإمبراطورية العربية، يحكمها ولاة من قبل بني أمية الى سنة 755م. وقد انتشرت الفتن والاضطرابات في عهد الولاة، وقام النزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب من جهة، وبين العرب والبرابرة من جهة أخرى.

عهد بني أمية: وفي تلك الأثناء انتقل الحكم في الشرق من يد الأمويين الى يد بني العباس، وفتك العباسيون بني أمية فتكا ذريعا، فنجا من سيفهم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وتوجه شطر الأندلس، ودخل قرطبة، واستبد بالأمر سنة 855م، وجعل قرطبة عاصمة الملكه، وبني فيها لقصر والمسجد والجامع، ونادي بنفسه أميرا للمؤمنين، وكان عهد بني أمية في الأندلس عهد ازدهار ورقي وحضارة، وقد امتد الى سنة 1031م، واشتهر فيه الخليفة عبد الرحمن الثالث (912-961م) صاحب الأفضال الكبيرة على العلم والعمران.

ملوك الطوائف: ولما انهار عرش الأمويين في الأندلس حل محلهم ملوك الطوائف واشهرهم بنو عباد بأشبيلية (1023-1091م)، وبنو جهور بقرطبة (1031-1070)، وبنو عامر بشاطبة (1021-1065م)، وبنو هود بسرقسطة (1039-1110م) وبنو حمود بمالقة (1035-1057م) وكان عهدهم عهد اضطراب وتفكك، وعهد فتن وحروب.

عهد المرابطين: وفي سنة 484هـ/ 1091م قامت دولة المرابطين، وهم من برابرة أفريقية الشمالية، مع عبد الله بن ياسين ثم يوسف بن تاشفين الذي ضم أطراف المغرب وأنقد الأندلس من يد ألفونس السادس الذي كاد يستولي عليها، وقرب ما بين أهل المغرب والأندلس تحت ظل دولة واحدة.

عهد الموحدين: ومرت الأندلس، بعد اضمحلال امر المرابطين، بفترة طوائف ثانية، هي صورة مضطربة للفترة الأولى، ثم حل الموحدون محلهم بعد أن أستتب لهم الأمر في مراكش، وكان ذلك سنة 1146م على يد محمد بن تومرت من جبل السوس في المغرب، وقد بايعه الناس على أنه المهدي المنتظر.

عهد بني الأحمر: وامتد عهد الموحدين الى سنة 667هـ/1269م وقد ثار في وجههم محمد بن يوسف بن هود أحد أمراء العرب، ودحرهم من الأندلس الى المغرب، ثم ثار في وجه ابن هود احد امراء بني الأحمر، وأسس دولة بني الأحمر في غرناطة، فامتد عهدها الى سنة 897-1492م وكان عهد اضطرابات وفوضى ادت شيئا فشيئا الى افول شمس العرب عن إسبانية.

البيئة الاجتماعية

قصور وجنات: يقع شبه الجزيرة الإيبيرية موقعا فريدا بين القارتين الأوروبية والأفريقية، ويمتد بين الجبال والبحار في أزهى ما تكون الآفاق وأخصب ما تكون البقاع، نزلها العرب أولا نزول الفاتحين، وكانت المرحلة الأولى مرحلة غزو واستيلاء. ثم كان العهد الأموي، واطمأنت البلاد الى جيش يحمي برها وبحرها، فراح الأمراء والخلفاء ينشئون في قرطبة مدنية تشيه مدنية تمشق، وتنافس كبرياء بغداد.

أما اشبيلية فقد احتلت مركز قرطبة مند القرن الحادي عشر وأصبحت أبرز موطن للإشعاع الفكري والعمل السياسي. وأما غرناطة فقد ازدهرت في عهد ملوك الطوائف، واتخدها محمد الغالب (1232-1273) مقر حكومته. شبهها العرب بدمشق فنزلها الكثيرون من أهل الشام واليهود، وشبهوا مرجها الفيكا بغوطة دمشق لالتفاف دوحه وكثرة أعشابه.

متنزهات ساحرة: والى جنب القصور والأبنية الفخمة، والى جنب الزخرفة البالغة، نجد في الأندلس عددا كبيرا من البرك والرياض الأنيقة، والأودية المتحولة الى متنزهات ساحرة، فهنالك وادي الطلح وواجي العروس قرب اشبيلية، وهنالك حور المؤمل ينشر أغصانه المرتجفة مع امتداد

الغدير، وهنالك السدود والنواعير والفوارات المتألقة بألف ضوء وألف مصباح، وهنالك القناطر التي تتزاحم المياه على أقدامها منشدة أنشودة الرخاء والهناء، وهنالك ألف لون من ألوان الحياة المترفة الناعمة. وهكذا فالأندلس أصبحت ميدانا واسعا للعيش الرخي مع ما اعتور البلاد من فتن واضطرابات سياسية. وكثيرا ما رأى الناس فيها جنة نعيمهم دون جنة النعيم حتى قال ابن خفاجة:

يا أهل اندلس لله دركم ◻ مساء وظل وانهار واشجار

ما جنة الخلد إلا في دياركم ◻ وهذه كنت، لو خيرت، اختار

تظرف وتأنق: قال هنري بيريس: لئن كانت ميزة الحضارة والرقي انتشار الأشياء الثمينة وكثرة استعمال الأواني والأدوات النادرة فإن الأندلس بلغت في القرن الحادي عشر قمة الازدهار، فقد شاع الترف في ذلك العهد شيوعا لا حد له. أجل شاع الترف في جميع مرافق الحياة كما شاع التظرف والتأنق. وحذق الأندلسيون صناعة النسيج النفيس، وكانت قرطبة والمرية من أهم مراكز الحياكة. وحذقوا كذلك معالجة الحجارة الكريمة فاستعملوها لزينتهم وتزيين أثاثهم، فتألقت في الآذان أقراطا وعلى النحور قلائد وعقودا، وفي المعاصم أساور، وفي الأنامل خواتم، وقد بالغوا في ذلك لوفرة الجواهر عندهم.

موسيقي وغناء: وإن حياة كهذه لا تقوم إلا في جو حافل بالموسيقي ووسائل الطرب. وكل شيء في الأندلس جمال وموسيقي، وكل شيء فتنة وغناء. انتقلت الموسيقي مع العرب الى الأندلس. وكان زرياب خير من مثل ذلك الانتقال. وقد أنشأ مدرسة غدة معهدا كبيرا للموسيقي الأندلسية، ثم تبعتها مدارس أخرى في اشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة. ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس (888) وإليه يعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقي الشرقية الى إسبانية وتعميمها.

وهكذا انتشرت الموسيقي في الأندلس انتشارا واسعا، ولا يستبعد هنري بيريس أن يكون الأندلسيون قد توصلوا الى معرفة سر الهرمونية الموسيقية. وكان للألحان سلطان شديد على قلوبهم حتى قال ابن عبد ربه في الموسيقي: هي الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب... وقد يتوصل بالألحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الرحم، والذب عن الأعراض، والتجاوز عن الذنوب. وقد يبطي الرجل بها على خطيئته، ويرفق القلب من قسوته، ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره.

كفر وإيمان: والحياة إذا تمادت في مثل هذا الترف والرخاء تصبح شديدة الالتصاق بالمادة والحس وتبتعد عن موارد الروح، وعن التطلع الى المثل العليا. ومما الا شك فيه ان الروح الدنينة ضعفت في الاندلس ولا سيما في القرن الحادي عشر، واصبحت نفسية الاندلسي نفسية من لا يؤمن عمليا بغير الوجود الحسي، ولا سيما بعد ان أطلق ملوك الطوائف حرية الدراسات العلمية، وبعد أن شاع التحرر الفلسفي. ولئن شهدت الأندلس بعض التشديد احيانا من قبل الحكام وبإيعاز من رجال الدين وأهل التزمت فإنها كانت في أكثر الأحيان مجالا واسعا للتمادي في المحرمات والإيغال في الموبقات. وكما شاعت عند الفلاسفة فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة، شاعت عند طلاب الملاهي – وما أكثرهم – فكرة التوفيق بين الدين والإباحية والمجون. إلا أن الشك الذي سيطر على النفس الأندلسية لم يكن من العمق بحيث يهدم صرح الإيمان والعقيدة، ولم يكن من العنف بحيث يخلق الأزمات الجارفة. فالنفس الأندلسية مؤمنة في قرارتها، وانها، وان الغمست في أطايب الحياة، تعاني آلاما مبرحة. قال هنري بيريس: إننا إذا أنعمنا النظر في النفس الأندلسية نجد أنها تنطوي على قلق وكآبة أمام حقيقة الحياة. والأندلسي عاجز عن أن ينعم بملء السعادة في حياة حبه وفي شتى علاقاته بأبناء مجتمعه. فالحياة حافلة بالأحزان، وشقاء الإنسان في رغباته وكثرة آماله، إلا أن الآلام والشدائد لا تقود الأندلسي الى اليأس. فهو يصبر مهما اشتد شقاؤه، وهو ينظر الى الموت أخيرا نظرة إيمان تجلو القلق وتوضح المعالم.

ثقافة وعلم وأدب: وهذه الحياة الصاخبة في فنونها، المضطربة في تقلبات سياستها، الغريبة في شكها وإيمانها، هذه الحياة نفسها كانت تنفسا فكريا وأدبيا جليل الشأن بعيد الأثر. فقد راجت الثقافة في الأندلس وعززها الحكام، وعملوا على إنشاء المعاهد العلمية في المدن والقرى، وساعدوا على نقل ما صنف في الشرق العباسي ونشره في الغرب.

وفشا الأدب في الاندلس فشوا واسعا، ولا سيما الشعر منه، لأنه كان مع الموسيقي والحفر الفسيفسائي من أشد وسائل التنفس الحياتي الحضاري. والجدير بالذكر أن المرحلة لأولى للأدب العربي في الأندلس هي مرحلة انتقال الأدب المشرقي الى المغرب في غير تبديل ولا تعديل، فالأغراض هي هي، والأساليب هي هي وذلك أن الأدباء الأولون هم ممن ولدوا ونشأوا في المشرق ثم انتقلوا الى الاندلس مع الفاتحين او بعد ذلك بقليل، ولم يتم لهم ان يمتزجوا بشعب البلاد الأصيل. ثم إن الحكام الأولين للبلاد. ولا سيما الأمويون منهم، كانوا شديدي التطلع الى الشرق لمنافسة بني العباس في بغداد، وكانوا في تطلعهم هذا يشجعون على تقليد المشارقة في ادبهم. أضف الى ذلك ان الثقافة الأدبية في الاندلس كانت في معظمها استيحاء لأدب المشرق، وان رسل

الثقافة المشرقية كانوا من اشد عوامل التأثير المشرقي. وكان خلفاء قرطبة يعملون على استقدام أرباب العلم والأدب من بغداد والحجاز كأبي علي القالي وصاعد اللغوي، وأبي محمد العذري الحجازي الذي كان في بلاط أمير اشبيلية ابراهيم بن حجاج. وللقيان والمغنيات فضل كبير على نشر الأدب المشرقي، وقد ابتاع أمراء الأندلس وحكامها عددا كبيرا منهن، ونقولهن إليهم من بغداد والمدينة وغيرهما من الحواضر. وفي نفح الطيب للمقري أسماء المشهورات منهن كالعجفاء، وفضل، وعلم، وقلم، وقمر. وإن ننس لا ننس زرياب وابنتيه علية وحمدونة، وجاريتيه غزلان وهنيدة، وغلامه متعة الذين حملوا الى الأندلس أروع الألحان وأجمل الشعر.

ولكن هذا التأثير الشرقي أخذ يتضاءل شيئا فشيئا منذ القرن الحادي عشر، وإن لم يتلاش تلاشيا تاما. وذلك لنبوغ عدد كبير من أبناء الأندلس في الأدب والشعر والموسيقي، ولتفوق البلاطات الأندلسية على بلاطات المدن الشرقية في بعض نواحي التأنق والترف.

النثر الأندلسي

أطوار النثر الأندلسي

تطور النثر في الأندلس كما تطور في الشرق العباسي، وتناول من الأغراض والفنون ما عهدناه في الشرق من خطابة وترسل وتصنيف. أما الأطورا التي مر بها النثر الأندلسي فهي ثلاثة: ففي صدر الفتح وأول العهد الأموي كان هذا النوع من الأدب مقصورا على الخطب والرسائل لأن أصحابه الوافدين من الشرق ساروا في بيئتهم الجديدة على التقاليد التي ورثوها من الوطن الذي نزحوا عنه. ولم يكن الشرق يعرف آنذاك من مظاهر النثر سوى عظات تحمل الناس على القيام بفرائض الدين، وأقوال تذكي الحماسة في صدور المجاهدين، وتقطع دار الشقاق والفتنة والتهديد والوعيد، ورسائل يتبادلها الحكام والعمال ويظهرون فيها ضروبا من الفن والبراعة.

وما إن هبت ريح الثقافة في الأندلس، وراح الخليفة الناصر وابنه الحكم وملوك الظوائف يتبارون في إنشاء المدارس والمكاتب، ويرسلون البعثات الى الشرق لتأتيهم بثمار نضوجه الأدبي والعلمي، وتتحفهم بمصنفات كتابه وشعرائه، ويتنافسون في اسناد مناصب الوزارة الى أصحاب الحذق والمهارة في الترسل، حتى أصبح النثر وله المقام السامي في عيون الأمراء، يتعاطاه الأدباء ويفتنون في أغراضه وألفاظه، ويبسطون فيه المقالات الضافية، ويطمعون في لقب الكاتب كما يطمعون في لقب الخطيب والشاعر، فنهض هذا الفن نهضة محمودة واشتهر كتاب مجيدون.

ولما تقلد المغاربة، من موجدين ومرابطين، زمام الحكم في الأندلس كان النثر قد بلغ أوجه فبدأت تدب فيه عوامل الإنحطاط، وتذوي نضارته تحت زخرف التصنع اللفظي المقيت، وتحت نار افتن المستعرة، والحروب المستمرة. أما فنون النثر الأندلسي فهي الخطابة، والترسل، والتصنيف. وسنتناول كلا منها بالبحث لإظهار خصائصه وميزاته.

الخطابة

كانت الخطابة، أول الأمر، وليدة الفتح ورفيقة الجهاد. دخل العرب بلادا جديدة يترصد لهم فيها عدو قاس لا ينام على الضيم، فكان لا بد للولاة من الاستعانة بالخطابة لإيقاد الحمية في الصدور، وحمل الناس على الصبر في الجهاد، والاستماتة في الدفاع عما استحوذوا عليه والعمل على إخضاع الأقاليم الأخرى لسلطانهمز فكان كلامهم كالذي سمعناه عند علي وزياد ابن أبيه والحجاج جزلا، فصيحا، مقتضبا، يجري مع الطبع خاليا من السجع المتكلف. وكانت معانيهم واضحة جلية محصورة ضمن دائرة الأغراض الحربية، ثم تعدتها ال تأييد العصبية لما نشب الخلاف بين القبائل من مضرية ويمانية. ولعل خطبة طارق بن زياد من أصدق النماذج عن الأسلوب الذي استعمل في العصر الأول، وإن شك البعض في صحتها.

ولما اتسع أفق الثقفة، وانتشرت العلوم وأقبل الناس على درسها كثرت المناقشات والمناظرات فتنوعت أغراض الخطابة، وتبدلت أساليبها، وتسرب إليها السجع والتنميق الرقيق، وزاد سواد الذين يرتجلونها ويتعهدونها إذ بالغ الأمراء في تعظيم من يجيدها حتى أضافوا القضاء الى الخطابة.

أما في أيام الملوك البرابرة فقد انحطت منزلتها، وغلبت عليها الصنعة، وشاع فيها السجع المميل، وكاد يقتصر فيها على الوعظ في المساجد، وكثيرا ما استعيض عنها بمرسومات تقرأ في مواقف الخطابة.

هذا كان شأن فن الخطابة في الأندلس، وهو وإن لم يصل إلى ما كان عليه في الشرق، فقد سما به جماعة من مشهوري الخطباء كالوليد بن عبد الرحمن بن غانم في أيام عبد الرحمن الأموي، وعبد الله الفخار في زمن المرابطين، وأبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي قاضي قرطبة المتوفي سنة 946م (335هـ)، ولم يصل غلينا من آثار الخطباء الأندلسيين سوى النزر اليسير مبعثرا في المؤلفات الأندلسية كالقلائد ونفح الطيب.

الترسل

وحذا الأندلسيون حذو المشارقة في الترسل فعلهم في كل شيء. فكان في القرن الأول من الفتح صورة للنثر الرسائلي، كما تجلى لنا في مكاتبات الخلفاء والقواد والعمال في العهد الراشدي والأموي: أغراض محدودة تمليها الأحوال من سياسية وغيرها، ومعان جلية تؤدي على أوضح وجه وفي أسلوب موجز، خال من الزخرف والتنميق إلا ما يأتي عفوا. ولنا مثال على هذه الطريقة في ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل عاتبا على سيده، قال: أما كان جزائي في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيب نظام مملكة وإقامة أخرى، غير الهجر الذي أهانني في أكفائي، وأشمت في أعدائي... فإنا إلى الله وإنا إليه راجعون.

وسرعان ما تبدلت الحال لما اتسعت آفاق العلم والرقي تحت ظل الخلفاء، وفي رعاية ملوك الطوائف، وجاب الرحالة الشرق، وحملوا الى بلادهم مؤلفات أشهر المترسلين فيه، وتعددت الدواوين، وانتشرت مظاهر الحضارة في جميع وجوه المعيشة. فأصبح الترسل فنا مستقلا يتعهده الأدباء كما يتعهدون الشعر، وكثرت أغراضه، وتنوعت أساليبه. وكان منه نوعان: الديواني، والأدني.

أما الترسل الديواني فوضوعاته مكاتيبات الأمراء والعمال وما يتخللها من تهنئة بالظفر، وإعلام بالحال، وتقليد وظيفة. وأما الترسل الأدبي فقد الصرف إليه جميع الكتاب، واحتوى على الأخوانيات بأصنافها، والمناظرات، والمناقشات، والمقدمات، والقصص الخيالية، والمقامات. وكان من أغراضه الاعتذار، والشوق، والمدح، والهجاء، والعتاب، والرثاء، والشكوى والاستعطاف، والوصف، والاستهزاء، والمناظرات بين السيف والقلم، وأصناف الزهور والحيوان، وما إلى ذلك وكان الوصف غالبا على نثرهم كما كان غالبا على شعرهم. فاستعاروا من جمالات الطبيعة تشابيههم، وتكلموا على السماء وسحبهان والرياض وزهورها، والأنهار والطبور والقصور، والأسفار والحروب، والخمر والندمان، ومجالس اللهو والطرب، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة المترفة الناعمة. وبرع في الأندلس كتاب كثيرون منهم ابن زيدون، وابن شهيد، وابن برد الأصغر، وابن عبدون، وابن ادرسي، وابن خفاجة، وابن الخطيب.

ومع تعدد الأعراض تطورت الأساليب، فشاعت الصناعة اللفظية في الأندلس شيوعها في الشرق، فانتشر السجع، وحفلت رسائلهم بالأمثال، والإشارات التاريخية والعلمية، والتضمين، وحل المنظوم، والاقتباس من القرآن، وتوشيح الكلام بأنواع المجاز والبديع. وكان نثرهم أول الأمر مستساغا، رقيقا، لطيفا، ولكن الأدباء في القرون الأخيرة، غمروه بالإسهاب الممل، والسجع المتكلف، وخنقوا المعاني يزخرف الألفاظ، فبدت مكرورة طافية لا جديد فيها سوى ما يتصنع به الكاتب للتعبير عنها باستعارة غريبة أو تلميح بعيد. وسنلاحظ هذه الخصائص عندما نعرض لدراسة الأدباء الأندلسيين.

التصنيف

أما التصنيف فقد كان معدوما في الطور الأول، ولم يتسع مجاله إلا بعد أن أندفقت ثقافة المشرق العباسي على الأندلس، فهب أدباؤها يجارون المشارقة في كل فن وفي كل علم، من لغة وعلوم طبيعية ورياضية وفلسفية وتاريخ وجغرافية. أما المؤلفات الأدبية فمنها المجاميع كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والذخيرة لابن بسام، وقلائد العقيان ومطمح الأنفس لابن خاقان، ومنها النقدية ككتاب التوابع والزوابع لابن شهيد.

أما أساليب الإنشاء فتنوعت بتنوع الموضوعات وتطورت تطور النثر الرسائلي. ففيما ترى الكلام جزلا بليغا يجري مع الطبيعة عند ابن عبد ربه، يحليه السجع احيانا ولكن من غير إفراط، إذ تراه يصبح فيما بعد، حتى في كتب العلم والتاريخ، كالشعر المنثور، فيه من أنواع المجاز والبديع والتنميق اللفظي الشيء الكثير.

الشعر الأندلسي

انتقال الشعر الى الأندلس

لقد تدفق العرب على الأندلس تدفقا شديدا، ولن تمضي فترة من الزمن يسيرة حتى نرى البلاد تموج بالعرب موجا. وقد حملوا معهم الى الأندلس طبيعتهم الشعرية، كما حملوا نزعاتهم العرقية، وكان الشعر يحل حيثما حلوا، وكان ينمو ويترعرع في انفجار طبيعي اشبه بانطلاق النور من قلب الشمس. وفي هذا الجو الجديد اتسع المجال لموطن شعري جديد، وإذا هنالك عالمان: عامل شرقي، وعالم غربي، عالم شرقي بشخصيته التي عرفناها وتتبعناها في أطوارها عبر العصور، وعالم غربي بشخصية تتكون شيئا فشيئا، ويبدأ تكوينها يوم كان بشار وأبو نواس في الشرق يثوران على التقاليد الموروثة، ويريدان شعرا شعبيا ينساق مع البيئة، وينضح بروح العصر. عالمان عربيان: أصل وفرع، وللأصل تاريخه وأمجاده، وللفرع طموحه وآماله. وقد نظر الغر الى الشرق نظر الفرع الى الأصل، وفيه عزم على مواصلة الحركة الشعرية في أوج ما وصلت اليه، وفيه طمع في التقليد الحياني والأدبي. وقد قلد ما استطاع التقليد، وكان دائم التطلع الى دمشق وبغداد والمدينة، حتى انقلب وفي نفسه شيئ من نقص، وحتى وهم انه دون الشرق منزلة، وإن عمل على منافسة ذلك الشرق والنهوض في وجهه سياسيا واجتماعيا وأدبيا. ونظر الشرق الى الغرب نظرة استصغار، فالأندلس بلاد فتحت على غير إرادة السلطة، ثم قام فيها حكم ينازىء حكم العباسيين في بغداد، ثم ان العرب الذين هاجروا إليها امتزجوا بسكانها امتزاجا أفقدهم شيئا من عروبتهم، وساقهم الى الرطانة في اللغة.

وما ان كان القرن الحادي عشر حتى قويت الشخصية الأندلسية، وحتى أخذ الأندلسيون يعرضون شيئا فشيئا عن المشارقة، ويجدون عندهم العالم والأديب والشاعر، ويجدون عندهم من ينافسون به المشرق. وقد أخذوا في جمع الشعر الأندلسي فوضع أبو الوليد الحميري كتاب البديع في وصف الربيع، وأعلن ي مقدمته ان الاندلس أصبحت في غنى عن أدب المشرق لما أتى به أدباؤها وشعراؤها من روائع القول. وفي أوائل القرن الثاني عشر وضع ابن بسام كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وأراد فيه أن يكابر أهل المشرق ويصد ابناء الأندلس عن التطلع إليهم، ويقدم الشواهد على ان العبقرية الأندلسية قد تفوقت في أمور كثيرة على العبقرية الشرقية. وفي الوقت نفسه وضع الفتح بن خاقان قلائد العقبان للغاية نفسها وفي سبيل الغرض نفسه، وظهرت كذلك دواوين الشعراء فكانت البرهان القاطع على عروبة الشعر الأندلسي وعلو منزلته.

شيوع الشعر في الأندلس

شاع الشعر في الأندلس شيوعا واسعا جدا، وانتشر في جميع الطبقات، فزاوله الملوك والوزراء، وانشده القضاة والعلماء، وقاله الأعمى المتسول والساعي المتجول، وفاه به القائد في مقدمة الجيوش، والجندي في ميادين القتال، حتى لتحسب أن الشعر في الأندلس لغة الحياة، وأن الحياة شعر والحان. والذي يلفت النظر في الموضوع أن للريفيين في الشعر الأندلسي أعمق الأثر. قال هنري بيريس: لم يكن عمل الفلاحة ليلف الحياة الريفية لفا كاملا، ولم يكن الفلاح ليذوب في عمله كيانا وبيانا، بل كانت له فلتات أحلام، وانسيابات خيال وإلهام، ولن نخرج عن جادة الصواب إذا قلنا إن أعمق الشعر شحصية هو شعر الرجال والنساء الذين كانوا ألصق بالأرض، وأقرب الى الطبيعة. فقد تسربت الى شعرهم عذوبة المشاهد وقسوتها، وعندما انتقلوا الى لين المدينة استطاعوا ان يعبروا عن أقوى الأفكار في انضر الصور وأزهاها ألوانا. فهم الذين أكسبوا الشعر الأندلسي تلك الميزة الريفية التي تصلها بأصدق ما كتبه اليونان والرومان في موضوع الريف.

وقد بلغ انتشار الشعر ذروته منذ القرن الحادي عشر، وكان ذلك فريدا في تاريخ العربية. أضف الى ذلى أن الشعر في المشرق انحصر ضمن نطاق الأرسطقراطية، وان عمل بشار وأبو نواس على إنزاله الى الحيز الشعي، أما في الأندلس فكان الشعر شعبيا بكل ما في الكلمة من معنى، وكان تنفس الحياة بكل ما في الكلمة من معنى، وكان لغة الجميع. فهو للعامل والفلاح انشودة الجمام بعد التعب، وهو للكاتب والوزير والأمير انفلاتة من عبودية الهموم والمهام، وهو للشعراء الرسميين وسيلة للتكسب وكسب لقمة العيش، كما هو في الوقت نفسه مجال لانطلاق الفن، وهو للجميع موضوع فخر ومباهاة، ومجال حرّ لا يضيق بوزير ولا أمير. والأندلسيون يميلون اليه لأنه شعر، ولأنه كلام موزون ينطلق من الشفاه الحانا وأنغاما، لأنه كلام مجنح، وموسيقي قبل أن يكون خطابا.

مراحل الشعر الأندلسي

في عهد الولاة: نشأ الشعر الأندلسي في عهد الولاة نشأة غامضة، وكان صدى ضعيفا للشعر المشرقي تتردد فيه معانيه وأساليبه. ومن شعراء تلك الفترة: بكر الكناني، وعباس بن ناصح، وعبيد الله بن قرلمان، وعبيديس بن محمود، ومحمد بن يحيى القلفاظ، وحسانة التميمية، ويحيى بن حكم الغزال.

ومما زاد التأثير البغدادي في هذا العهد أنغام الجواري المشرقيات اللائي حملن الى الأندلس من مثل قمر والعجفاء، وأوتار علي بن نافع الملقب بزرياب (الطائر الأسود)، وقد فر من بغداد تخلصا من غيرة أستاذه إسحاق الموصلي، وحمل الى الأندلس طائفة كبرى من انغام الشرق اصبحت في اصل الموسيقي الإسبانية على ممر العصور.

وقد ظهرت في هذا العهد الأراجيز التاريخية كما ظهرت الموشحات على يد شاعر ضرير هو مقدم القبري الذي عاش في أواخر زمن الولاة، وانتشر شعر النوريات انتشارا شديدا الى جنب الزهديات والتاريخيات وما إلى ذلك.

في عهد بني أمية: ولما كان عهد بني أمية في الأندلس ازداد الشعر انتشارا، لما أولاء الحكام من عناية، ولما كان هنالك من حركة علمية وأدبية هي أشبه شيء بحركة أوائل العهد العباسي في الشرق. وقد اشتهر من الشعراء إذ ذاك ابن عبد ربه 339هـ (940م) صاحب العقد الفريد، وابن هانيء الإلبيري 362هـ (972م)، والزبيدي 379هـ وابن أبي زمنين، والمصحفي، وابن ادريس الجزيري، وابن دراج القسطلي، وابن برد، واشتهر في فترة الانتقال من العهد الأموي الى عهد ملوك الطوائف ابن شهيد وابن حزم وهما من أظهر أعلام الثقافة الأندلسية، وقد شهدا سقوط الخلافة الأموية وبكيا قصر الخلافة في قرطبة لما عراها من خراب ودمار.

في عهد الامارات: وما إن انهارت الخلافة الأموية حتى تحولت بلاد الأندلس الى إمارات تنافس فيها الحكام في طلب العلم، والأخذ بأسباب الأدب، وتقريب الشعراء، بل تنافسوا في نظم الشعر، وكانوا يتراسلون فيما بينهم شعرا، ويحاولون أن يعيشوا حياة شعرية. وقد اشتهر في ذلك العهد المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وابن زيدون وأبوبكر بن عمار الشلبي وابوبكر بن اللبانة الداني وابو عبد الله محمد بن الحداد وابو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي وابن صارة الشنتريني وابو عبد الله محمد بن شرف البرجي.

في عهد المرابطين: وفي عهد المرابطين انحط الشعر انحطاطا مشؤوما لأسباب شتى منها ان ذلك العهد كان قصيرا لم يتهيأ لأصحابه من الوقت ما يهذب خشونتهم ويرقق من أذواقهم، ثم إن الثقافة في العهد السابق لم تكن من العمق والمتانة بحيث يتهيا لها البقاء في هذا العهد، زد على ذلك أن المشرق كان إذا ذاك في انهيار ولم يبق له على الأندلس إلا أثر ضئيل جدا. فراح الشعر يتضاءل ويتلاشى وينزع نزعة الزجل والتوشيح، وانصرف نفر من اهل الحرص يجمعون الشعر الاندلسي خشية ان يضيع، فوضع ابو الحسن علي بن بسام مجموعته الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ووضع أبو نصر الفتح بن خاقان القلاعي كتابه قلائد القعبان.

وقد تغلب في هذا العهد ذوق العوام، ومال الشعر الى كل ما هو سوقي، واتسم بسمة البذاءة، وهكذا كان العهد عهد اللاذع واسخر والعنيف، عهد المتحررين والمجان من الشعراء، وعهد كبار الزجالين كذلك.

وقد اشتهر من الشعراء أبو إسحاق بن خفاجة وابن اخته يحيى بن عطية بن الزقاق وهما من أهل جزيرة شقر، والأعمى التطيلي وابن بقي واشتهر في الشعر الزجلي ابن قزمان.

في عهد الموحدين: وكان عهد الموحدين عهد هدوء وسكينة، كما كان عهد علم عرف ابن طفيل، وابن رشد، وابن عربي، وابن زهر، وابن البيطار، واشتهر ابو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي واو تحر صفوان ابن ادريس الحميري صاحب زاد المسافر، وابو عبد الله محمد بن ادريس المعروف بمرج الكحل واشتهر كذلك عدد من النساء اللواتي تعاطين القريض من مثل حفصة الركونية، كما اشتهر ابراهيم بن سل الاسرائيلي وابو عبد الله بن الأبا القضاعي.

في عهد بني الأحمر: أما عهد بني الأحمر في غرناطة فكان عهد انحلال اشتهر فيه الوزير لسان الدين بن الخطيب والوزير محمد بن يوسف الشريحي المعروف بابن زمرك وقد رددا اصداء الماضي المولي في نغم نادر الجمال والروعة.

تلك هي المراحل التي مر بها الشعر الأندلسي، وإننا نرى من خلال ها أن الشعراء قليلو العدد قبل القرن الحادي عشر، وأن شعرهم تقليد للشعر العباسي في موضوعاته وأساليبه. وقد ازداد عدد الشعراء بعد ذلك العهد وتضخم الانتاج الشعري وظهرت فيه الشخصية الأندلسية، والنزعة الشعبية، وإذا الشعر على ألسنة جميع الطبقات، وإذا الحكام والأمراء والوزراء وأرباب الفقه والأطباء والمتصوفون، وإذا العميان والعمال وغيرهم يتعاطون القريض.

موضوعات الشعر الأندلسي وميزاته

تناول الأندلسيون في شعرهم جميع الموضوعات التي تناولها المشارقة من مدح ورثاء، وغزل وخمر ووصف، وحماسة وفخر وهجاء، وزهد وحكمة وما إلى ذلك، إلا أنهم صرفوا معظم همهم الى الوصف ولا سيما وصف الطبيعة بجنائنها وأزهارها ومشاهد فصولها. وكانت الطبيعة في نظرهم شخصا حيا يوشون كل ما يكتبون بما فيها من مظاهر جمال وفتنة.

وقد جرى الأندلسيون في مدحهم ورثائهم وفخرهم على أساليب المشارقة وزادوا على الرثاء لونا سياسيا تناولوا فيه زوال الممالك والدول كما فعل ابن عبدون عندما رثى ملك بني الأفطس أصحاب بطليوس، وكما فعل أبو البقاء الرندي عندما ريى الأندلس وقد استرجعها الإسبان، وكما فعل ابن اللبانة عندما رثى بني عباد وصور الارزاء التي حلت بهم. واما شعر الحكمة فضئيل في الأندلس لضعف التفكير وقرب مدى انظر في الأحداث والأمور. وأما الشعر الزهدي والصوفي فهو في الأندلس واسع النطاق، بعيد الآفاق. واما الغزل فهو نوعان: عذري وإباحي على نحو ما كان في الشرق، وقد أكثر الأندلسيون في الغزل الإباحي من وصف ليالي الأنس على ضفاف الأنهار، والغزل الأندلسي يدور حول الجمال الحسي وقلما تراه يتغلغل الى النفوس، وقلما تراه يهتم للتحليل، فهو سطحي، وهو تكرار لمعان واحدة في ألبسة مختلفة من الزهو وألوان الطبيعة.

وأما الشعر الخمري فكان له نصيب وافر في الأندلس، وهو شعر مجالس الأنس، وشعر الموائد الفخمة الحافلة بالأطايب، وشعر المياه الخرارة، والأزاهر الفواحة، والأوتار الصداحة، والكؤوس الطافحة، والسقاة الخفيفي الحركة، وهو شعر القدود الهيفاء التي تملأ الجو مرحا وعربدة، وهو أبدأ شعر السطحية الفكرية وشعر الغنى الوصفي.

وأما الوصف فقه أوغل فيه الأندلسيون إيغالا شديدا، وأكثروا فيه من التشبيه حتى إنه لم يتركوا شيئا إلا شبهوه بشيء، وأكثروا في تشبيهاتهم من التقريب بين المتباعدات، كما أنهم وصفوا الأمور في بطء وتراخ، فتوقفوا عند الدقائق وأطالوا الكلام فيها كما يفعل أصحاب انقش والنمنمة، ووصفوا الأمور التافهة بكلام طويل زاخر بالتشبيه وبضروب البديع، وأكثروا في كلامهم من الأحاجي والألغاز والإشارات الدقيقة. وقد قادهم الترف الوصفي إلى أن أقاموا بين الأزهار وغيرها مجالس مناظرات ومنافسات تحفل بالبلاغة المركبة المترفة والموسيقي العذبة، وإن خلت من العمق والتحليق في عوالم الانطلاق الفسيحة الأرجاء، وهكذا كانت كل الأشياء عندهم سواء

يستعملونها في تكوين صور نباتية ذات جمال تذكرنا بالزخارف المتشابكة التي تنقش في المرمر أو الرخام أو الجص على السواء. كل شيء يصلح أن يكون مادة للفن في أيديهم. هذا ولا وجود لإحساسنا بالطبيعة في هذه الروضيات غير الواقعية.

نزعات الشعر الأندلسي

بستان شعري: إن من يقلب صفحات الدواوين الأندلسية، ويتتبع المجموعات الأدبية التي انطوت على المختارات الكثيرة من أدب الأندلس، يجد أن الموضوعات التي كانت تستأثر باهتمام الشعراء ترجع الى الطبيعة، والمرأة، والخمرة، والزهر وما إلى ذلك، والشاعر الأندلسي شديد الارتياح الى الطبيعة، شديد الشغف بها. وهي في زحمة الموضوعات مركز الالتفات، ومنبع التصوير والتزويق، يرجع اليها الشاعر في كل ساعة، ويسكب منها في نفسه وخياله ما تنسكب فيه النفس وينطلق به القول. وحب الأندلسي للطبيعة غارق في جو من الحزن الرومنطيقي، فهو يتحدث عنها في حله وترحاله، ويجعل ديوانه بستانا من بساتينها، يتعانق فيه الورد والياسمين، ويتناجي فيه البهار النيلوفر والنسرين، بستانا يلفه النور أو الظلام، وتجري فيه المياه على حصباء فضية، وتنتشر الأطياب في جوه سحرا ونشوة. ولئن توقف بعض شعراء الأندلس عند الطبيعة توقف العاشق أمام المعشوق، فقد اتخذها غيرهم إطارا للهوهم يتناغم وأحوالهم النفسية. قال هنري بيريس: إن المشاهد التي تتفق ومزاجهم الفني ليست مظلمة ولا رهيبة، والحب بنساب فيها أبدا ويصبغها بصبغته المائعة. وليس في وصفهم لوحات كاملة، وإنما هنالك خطوط موجزة، وليس في وصفهم صخب، وإنما هنالك وسوسة الكآبة النفسية. لم يجد الصيف الساطع النور في كتابتهم محلا، إنهم آثروا الربيع، ولكن التجدد الحياتي الذي يرمز اليه الربيع لم يستحث حواسهم وعقلهم استحثاثا شديدا. إنهم شعراء المساء، والليل، والفجر، دون الظهيرة المتألقة. ولئن استرسلوا احيانا الى لذة العيش، فإنهم لا يفضلون شيئا على السكينة والانفرا، ومجالس اللهو نفسها لا تحول دون انفلات احلامهم: فالموسيقي، والغناء، والرقص، وإنشاد الشعر، كل ذلك يتعاون على اقتلاعهم من الواقع. إنهم يشعرون في قرارتهم ان متع الحياة غير صافية. وهنالك قلق، قلما تجده عند المشارقة، يعتور جميع الأعمال التي يقوم بها الأندلسيون في مجال التمتع. ان الاحوال السياسية المضطربة تهدد كل مصير، والق البلاطات الصغيرة قد يزول بين ليلة وضحاها. وأنت تلمس عندهم شيئا يشبه العاطفة الدينية ويحول دون استيعابهم لأطايب الوجود، وهذا الشيء ليس تشاؤما ولا هو كآبة بالمعنى الدقيق للفظة.

مزيج عجيب: يتجلى لنا الشعر الاندلسي مزيجا عجيبا من قديم وحديث، من اتباعية وابتداعية، من إباحية وصوفية، فأمام المشاهد العارضة، وأمام تأثيرها على النفس لا يستطيع الشاعر الأندلسي أن يتملص من غزو التقاليد العربية القديمة، والأساليب والصور التي درجت عليها اقلام الأقدمين، فهو ييأثر بعض التأثر بالمشاهد اتي وصفوها، والمشاعر التي تفاعلت فيها نفوسهم وتلك المشاهد، إنه يحاول التعبير عن تجربته النفسية، ولكنه في تجربته وتعبيره يتطلب المماثلات في ادب المشارقة، وإن كان ذلك بطريقة لا وعيية، وهذا التطلب يفقد شعره بعض مائه وروائه. ثم إن وجدانيات الأندلسيين يشوبها أحيانا شيء من ضعف بسبب الصياغة العروضية العربية التي تضيق بتلك التجارب التي تختلف عن تجارب العرب الأقدمين. والأندلسيون لا يفقدون شخصيتهم الخاصة في ذلك العمل الابتداعي التقليدي، فهم يلينون القديم ما استطاعوا التليين، وهم يستخرجون من الأساليب القديمة والتعبيرات القديمة ما ينسجم ومزاجهم الخاص، ويتناغم وأحوالهم الحياتية، وهم من ثم ابتداعيون في ناحية شعرهم التقليدية، واندلسيون في الصياغة المشرقية.

فسيفساء شعرية: والاندلسي متأنق في حياته واعماله، دقيق الأناقة والتظرف، ناعم الذوق والتذوق. وقد امتد التأيق عنده الى جميع مظاهر عيشه، وأقام حضارته على الأناقة المترفة، على البناء الجميل، والموسيقي الرقيقة، والزهرة الحالمة، والماء المتغلغل في أرواح الأعشاب، وعالجت أناملة الحفر والتلوين والتزويق في العاج والنسيج والفسيفساء، وتأنق حتى في تسمية القصر والبستان والكتاب، وتطيب، وتزين، وأقام لمأكله ومشربه، وملبسه وممشاه، آدابا تصطبغ بصبغة الفن الراقي، والرقي الفنان. ولم يكن الأدب بمعزل عن هذه الروح، فراح الأندلسي ينظم شعره، وكأنه يعالج الحجارة الكريمة، والجواهر اللماعة، وراح ينساق مع ميله الغلاب الى الترف وزهو الغنى، ويماشي رغبته الناعمة العميقة في ارتياد اجواء العظمة الجميلة التي تنتظم التصنع التنميقي بمثابة عنصر ضروري من عناصر الحياة. وهكذا تصبح القصيدة الأندلسية قصرا من القصور، أو جنة من الجنات، أو مجلسا من مجالس اللهو. أما المعاني فهي البضاعة الرائجة بين الناس المترفين، وأما الصناعة فهي الصورة للمادة، وهي المظهر الذي ينسي المحتوى، وهي الألق الذي يبهر العين، ويطرب السمع، ويسكر الأنف، وينقل الى النفس عبابا من المتعة تغرق فيه غرقا رفيقا، وتعوم فيه عوما أنيقا. وترى الأندلسي تحشد الزخارف حشدا، ويتطلب الصورة تطلبا، ويرصف الزخارف والصور والألوان رصفا فسيفسائيا. وما ذلك كله الا صدى للنفس، وتجربة حقيقية وإن كانت مصطنعة المظاهر. إنه تجربة الحياة، أو قل تنفس الحياة الأندلسية ولا سما بعد القرن الحادي عشر. وهكذا تلمس في القصيدة الأندلسية تعقيدا شفافا، تعقيدا بعيدا عن التعقيد الذي لا ينسجم مع الحياة، بعيدا عن التعقيد الغموضي الذي يخفي بعض الشعراء تحته تقصيرهم التجريبي والإباني.

حياة وتشخيص: وإذ كان الأندلسي شديد الإلتفات الى الحياة، شديد القوى الحياتية راح يتلمس الحياة في كل شيء. وتشخيص القوى الطبيعية أشد وأغرب مظاهر الشعر عند الأندلسيين، فإن عبقريتهم الخلاقة في موضوع التمثيل استطاعت أن تحيي الحب والموت، والشباب والربيع ، والفرح ولألم . إنهم ، بدافع الغريزة والمليل الطبيعي ، يخرجون الأشياء في شكل إنساني ، و يخولونها الإحساس والشعور. وإنهم ليعمدون الى الذ كرى نفسها فيعملون على إحيائها بتمشيل الماضي تمثيلا دقيقا وكثيفا. وهم بذلك يخالفون الشعراء المشارقة في كون التجربة السالفة تصبح عند أولئك المشارقة مجرد فكرة ، مجرد اعتبار فلسفي ضعيف الصلة بالدات"

وهكذا شاع التشخيص في الشعر الأندلسي ، حتى لتحسب أن في الطبيعة مجتمعا الى جنب المجتمع البشري ، مجتمعاً عاطفياً شديد التأنق ، مجتمعاً تصطرع فيه الأهواء وتتنازع الأطماع. قال ابن حصن في النيلوفر:

كلها أقبل الظلام عليه ﴿ غمضت أنجم السما عينيه

فإذا عاد للصباح ضياء ﴿ عاد روح الحياة منه إليه

والأمر الذي نلمسه في الشعر الأندلسي هو النصاق المرأة بالطبيعة. ففي الأوصاف نجد المرأة ذات صلة وثيقة بكل مظهر من مظاهر الجمال في الجنائن وجداول الماء. وقلما يذكر الشاعر حجرا كريما، أو زهرة جميلة، أو ألقا ملتمعا، ولا يشبهها بثغر، أو جد، أو عين... والألوان – ولا سيما الأحمر والأصفر منها – تشير بطريقة ملحة الى حالات العاشق والمعشوق، فالأصفر يرمز الى المحب الولهان الذي ذاب نحولا وأرقا، والذي نهكه الشوق حتى عبر لونه الشاحب عن قلقه الدائم وهمه المستبد، والأحمر يرمز الى الفتاة المغناج التي تلذ تعذيب الحبيب، كما يشير الى الخفر والحياء. قال جعفر ابن محمد المصحفي يصف سفر جلة:

ومصفرة تختال في ثوب نرجس ﴿ وتعبق عن مسك ذكي التنفس

لها ريح محبوب وقوة قلبه ﴿ ولون محب حلة السقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستعارة ﴿ وأنفاسها في الطيب انفاس مؤنس

وكان لها ثوب من الزغب أغبر ﴿ على جسم مصفر من التبر أملس

فلما استتمت في القضيب شبابها ﴿ وحاكت لها الأوراق أثواب سندس

مددت يدي باللطف أبغي اجتناءها ﴿ لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي

ذكرت بها من لا ابوح بذكره ﴿ فأذبلها في الكف حر التنفس

موسيقي وألحان

والشاعر الأندلسي موسيقي الأذن واللسان، وهو إذا نظم استحث القريحة بالوتر، وإذا أنشد واكب القول بالنغم، وإذا استفاق من سكرة نظمه وإنشاده وجد نفسه غارقة في جو حافل بأرواح الموسيقيين ولهاث الأوتار المحترق. وهكذا فالموسيقي عنصر ضروري من عناصر الحياة الأندلسية، تسربت الى نفوس الشعراء تسرب تكوين وتكييف، فكان شعرهم لا يفهم بمعزل عن اللحن. وقد تعاطى بعضهم فن الموسيقي فألفوا فيه كما فعل ابن باجة الفيلسوف والشاعر. وكان أبو عبد الله بن الحداد يرى في الشعر غير النغم القائم على المدات والسكنات، إنه كان يرى فيه موسيقي حقيقية فصل عناصرها في كتب شهيرة.

وإن من استقرأ الشعر الأندلسي، وجده منظوما على أوزان تنسجم والروح الموسيقية، ووجد ألفاظه وحروفه وقوافيه تتغني وكأنها في مهرجان من الألحان. والموسيقي فيه هي ارتعاشات عاطفية، وتفاعلات ذات اهتزازات، ومعادلات معنوية ولفظية، وغيبوبة تتهادي على ألوان من امتدادات النغم، فكأن القصيدة قطعة موسيقية تعمل على إثارة العاطفة، وإحداث الغيبوبة في غير اهتمام شديد للمعاني العميقة الدقيقة. إن معنيها قليلة، ولكن تلك القلة المعنوية تكرر وتنمق، وتنغم وتلحن، إلى أن تثير الشعور – ولا غابة لها إلا إثارة الشعور – ومتى بلغت الهدف، راحت تماوج الكيان حتى تصفو الروح وتصل الى تلك النرفانا الفنية التي يصبو اليها الأندلسي في حياة نعيمه.

وهكذا فالشعر الأندلسي يمتاز عموما بالضحالة الفكرية وإن كان غني الصور، وهو حافل بالزخرفة التي تثقل كاهله، مثقل بالأخيلة فوق ما يطيق، شديد التنميق والترف والتعقيد والتركيب. وهو مكبل بقيود القوالب الشكلية، فقير من الناحية العاطفية العميقة في قسم كبير منه، بعيد عن الشعور الإنساني أحيانا كثيرة، يغلب فيه التكرار. وهو رائع الموسيقي الشعرية، سهل الألفاظ تبلغ به السهولة أحيانا الى الضعف والركاكة.

Unit IX

الموشحات

حقيقة الموشح

تضاربت الآراء في شأن الموشح، وتباينت الأقوال في حقيقته تباينا شديدا فذهب ابن سناء الملك الى انه كلام منظوم على وزن مخصوص، وذهب محمد بن أبي شنب الى انه قصيدة منظومة للغناء، وجعله غيرهما نوعا من الشعر المسمط. والذي والذي يرسل رائد النظر في هذه الأقوال جميعا يجد أن أصحابها لم ينينوا حقيقة الموشح تبيينا تاما ولم يوفوه حقه من التعريف والتحديد. فكم من قصيدة نظمت للغناء وليست من الموشحات في شيء، أضف الى ذلك أن التسميط نوع من الزخرفة والتنميق وليس فنا شعريا خاصا. والموشح شعر، بل نوع خاص من الشعر، قاد إليه الغناء، كما قادت إليه طبيعة الحياة والأحوال الاجتماعية لا تنطبق عليه قواعد العروض، وإن نظم بعضه على بعض أوزان العروض. وإنه ليخيل إلينا انه زجل راق ظهرت فيه اللغة الفصحى وتركت فيه العامية بعض آثارها.

أما اسمه فمأخوذ من وشاح المرأة وهو قلادة من نسيج عريض مرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقيها وكشحيها، والأندلسيون شديدو الشغف بمثل هذه التسمية ولا سما وانها تشير الى الزخرفة والتنميق، والموشح، كما لا يخفى، من أشد الشعر زخرفة وتنميقا، قال ابن خلدون : وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطا، وأغصانا أغصانا، يكثرون من أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم الى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد. وبمثل هذا القول أراد صاحب المقدمة أن يبين حقيقة الموشح وطريقة تركيبه، وهو كلام شديد الإجمال، يحتاج الى تفصيل وإيضاح. وخلاصة ما تقدم ان الموشح شعر جديد في تسميته، وفي تركيبه وقالب التقفية فيه، وفي اتساع دائرة وزنه، وفي صباغته وتعدد أجزائه. قال مصطفى عوض الكريم: التوشيح لون من ألوان النظم ظهر أول ما ظهر بالأندلس في عهد الدولة المروانية في القرن التاسع الميلادي، ويختلف عن غيره من ألوان النظم بالتزامه قواعد معينة من حيث التقفية، وبخروجه أحيانا على الأعاريض الخليلية، وبخلوه أحيانا أخرى من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة والعجمية في بعض أجزائه، وباتصاله الوثيق بالغناء.

تركيب الموشح

يتألف الموشح من مطلع يسمى مذهبا، وهذا المطلع هو المجهوعة الأولى من الأجزاء وأقلها اثنان فصاعدا الى ثمانية أجزاء، وليس بضروري الوجود، فإن وجد سمي الموشح تاما، وإن خلا سمي أقرع. والقوافي في الأجزاء قد تكون متفقة وقد تكون مختلفة. والمطلع يتردد في الموشح على نظام معين، ترددا يحتفظ بعدد القوافي ونظامها دون المعاني والألفاظ، ويسمى كل مطلع متردد قفلا. وليس للأقفال عدد محدود، وهي في أكثر الموشحات خمسة. والقفل الأخير في الموشح يسمى خرجة.

والخرجة تكون عادة من ألفاظ العامة ويرى ابن سناء الملك أنها قد تكون معربة أيضا إذا كانت مستعارة من خرجة مشهورة لوشاح آخر، واذا كانت بيت شعر مضمنا كما فعل ابن بقي في بيت ابن المعتز:

علموني كيف أسلو وإلا فاحجبوا عن مقلتي الملاحا

وقد تكون الخرجة باللفظ الأعجمي بشرط أن يكون لفظها أيضا في العجمي سفسافا نفطيا، ورماديا زطيا... والمشروع بل المفروض في الخرجة أن يجعل الخلوج إليها وثبا واستطرادا، وقولا مستعارا على بعض الألسنة إما ألسنة الناطق أو الصامت، أو على الأغراض المختلفة الأجناس. وأكثر ما تجعل على ألسنة الصبيان والنسوان والسكرى والسكران. ولا بد في البيت الذي قبله الخرجة من : قال، أو قلت، أو قالت، أو غني، أو غنيت، أو غنت.

وهكذا ترى أن الخرجة من أهم عناصر الموشحن بل أهمها على الإطلاق. قال ابن سناء الملك: والخرجة هي ابزار الموشح وملحه وسكره ومسكه وعنبره، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة.

ويتألف الموشح أيضا من الدور وهو ما يعقب المطلع في الموشح، ويقع بين الأقفال، وهو يتألف من أجزاء أقلها ثلاثة فصاعدا الى خمسة، ولا يتجاوز الخمسة إلا نادرا. وجميع الأدوار متماثلة في عدد الأجزاء دون المعاني والألفاظ والقوافي، وليس اختلاف القوافي شرطا من شروط الموشح. وهكذا فالأقفال في الموشحة الواحدة على وزن واحد وقافية واحدة، لا يجوز فيها التغبير، أما الأدوار فيجوز تغيير الروي فيها. والدور مع القفل الذي يليه يسمى بيتا. والجزء في المطلع والقفل والخرجة يسمى غصنا.

تقفية الموشحات ووزنها: مما لا شك فيه ان الموشحات شعر عربي، وأن هذا الشعر قام في الأساس على قاعدة القافية والوزن التي قام عليها سائر الشعر العربي، وأنه بتأثير الغناء والبيئة راح يتحرر من القيود التقليدية التي وضعها الخليل وسائر العروضيين من بعده. وراح يفجر من القافية قوافي ومن الوزن أوزانا، في تنوع عجيب لا عهد للغة العربية به، ولا صلة له بما ظهر في الشعر العربي من ضروب الازدهاج والتثليث والتربيع والتخميس وما الى ذلك من ألوان وأفانين.

والوزن شديد التوسع في الموشحات، وهذا التوسع غير ما نجده عند العروضيين من استعمال البحر تاما او مجزوءا او منهوكان او ما الى ذلك، ومن إدخال الزحافات والعلل على التفعيلات، إنه توسع لا يقيده قياس ولا يحده حد.

وخلاصة القول أن الموشحات تنقسم من حيث الوزن الى خمسة أقسام: القسم الأول ما كان على وزن شعري تقليدي، والثاني ما أخرجته عن الوزن الخليلي حركة أو كلمة، والثالث ما اشترك فيه أكثر من وزن واحد، والرابع ما له وزن من غير الأوزان الخليلية يدركه السمع عند قراءته، والخامس ما ليس له وزن يدركه السمع عند قراءته ولا يوزن إلا بالتلحين وذلك بمد حرف وقصر آخر، وإدغام حرف في حرف وغير ذلك من فنون التلحين. وهكذا ترى أن الموشح نوع من الشعر جديد في الأدب العربي من حيث التقفية والوزن لأنه يخرج خروجا أساسيا عن القواعد العروضية.

اغراض الموشحات

وضعت الموشحات أول ما وضعت للتغني بالعواطف القلبية، والتعبير عن خوالج الوجدان، فكانت تنفس النفس العاشقة، ولهفة القلب الحالم، وامتدادة الأمل الباسم، وتحنان النشوة الذاهلة، ثم راحت مع الأيام تتسع لكل موضوع وكل غرض كالمدح والرثاء والهجاء والزهد والتصوف وكانت موشحات المدح تجري على الطريقة التقليدية من افتتاح بالغزل ومن تعظيم للممدوح واستحثاث له على العطاء. وكذلك كانت الحال في سائر الأغراض، فقد درج الوشاحون على طرائق أصحاب القصائد التقليدية، واخضعوا الموشح لمعانيهم وأخيلتهم، واتحرفوا بذلك عن الهدف الرئيسي الذي وجد له فن التوشيح وعن الأندفاقة الوجدانية الصافية التي رافقت ظهوره، وراحوا يخضعونه لأطماعهم وزلفاهم، ويحملونه من معاني التكسب وقورص الهجاء ورموز التصوف ما لا يتفق وطبيعته.

العلوم والفنون في الأندلس

دوافعها

التمازج العرفي والحضاري، حفز العقل الجديد او المتجدد على توسيع نطاق العمل الفكري، والعمل الفني في شتى مناحيه.

النهضة العباسية، في شتى ميادين المعرفة والفن، والكتب المنقولة والموضوعة التي وصل إشعاعها الى الغرب وكانت للمفكرين والفلاسفة وأرباب الفن عاملا قويا من عوامل المشاركة، والعمل التطويري.

رجال العلم والفن الذين انتقلوا الى الغرب وأسهموا في البنيان الحضاري الجديد.

رواج الثقافة في الأندلس، وتشجيع الحكام لها ولأربابها، وقد عمل الحكام على إنشاء المعاهد العلمية في المدن والقرى، وساعدوا على نقل ماصنف في الشرق العباسي ونشره في الغرب، والحكم من اشهر الخلفاء اهتماما للقضية الثقافية، وقد جمع العلماء من الأقطار، وأجرى عليهم المرتبات، وابتنى سبعا وعشرين مدرسة، وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي أسسها عبد الرحمن الثالث في الجامع الكبير. وقد ضمت العاصمة، فضلا عن الجامعة، مكتبة كبيرة.

الثروة التي وسعت حياة الترف ووسعت معها حركة الغناء والموسيقي.

حرية الفكر التي رافقت عددا كبيرا من الحكام والرؤساء والتي أتاحت للفلاسفة وأصحاب الرأي أن يقبلوا على الفلسفة توسعا وتلقينا وتأليفا.

مظاهرها

علوم اللغة: نزع الأندلسيون إلى أن يظلوا متميزين عن سائر إخوانهم في بلاد المشرق، وإن عملوا في بدء أمرهم علىالاستعانة بالمشارقة ومحاكاتهم في شتى الأحوال والأعمال. أما في موضوع اللغة فقد كانوا مشارقة في استعمالها وفي الخضوع لقواعدها والانقياد لنظم بيانها. ولئن تساوت العربية العامية والبربرية ولغة البلاد الأصلية في التخاطب فقد كانت اللغة العربية الفصحى لغة البلاد الرسمية، يفخر رجال الحكم والقواد بكتابتها، ويسعى الوزراء والقضاة وكتاب الدواوين في إتقانها وي استعمالها على احسن وجه وأفصح أسلوب، وكان ملوك الطوائف يجمعون في بلاطاتهم ودواوينهم من يستطيع تقليد اسلوب ابن العميد والصاحب بن عباد في المشرق، وقد ازدهرت اللغة الفصحي في عهدهم ازدهارا شديدا لأنهم شجعوا الكتاب وأغدقوا عليهم المال الجزيل، وافسحوا مجالا واسعا للحرية الفكرية، خصوصا لأن تدريس اللغة الفصحي في المعاهد كان يحتل الصجارة، فكان نظام التدريس أن يلقن الطالب أولا اشعار العرب الأقدمين ولغتهم، حتى إذا استقامت له تلك اللغة انتقل الى الحساب، فإني حفظ القرآن.

وإلى ذلك فقد اهتم علماء الأندلس للتصنيف في اللغة وعلومها. ومن أشهر أولئك العلماء أبو بكر الزبيدي صاحب الواضح في النحو والعربية، ولحن العامة وابن التيان صاحب الموعب في اللغة وابن سيده صاحب المحكم وهو معجم رتبت الفاظه على ترتيب كتاب العين للخليل، وصاحب المخصص وهو معجم نادر رتبت فيه المواد بحسب المعاني، والشنتمري صاحب شرح ديوان المتنبي وشرح الحماسة وابن خروف النحوي.

علوم الرياضيات والطبيعيات: ازدهرت في الأندلس علوم الفلك والرياضيات يكلأها الأمراء والحكام في قرطبة وإشبيلية وطليطلة برعاية خاصة، وقد اشتهر فيها المجريطي القرطبي، والزرقالي الطليطلي، وجابر بن أفلح الإشبيلي ، ونور الدين أبو اسحق البطروجي تلميذ ابن طفيل وصاحب كتاب الهيئة الذي يعد قمة الحركة الإسلامية المقاومة لآراء بطليموس في الفلك.

وازدهرت كذلك العلوم الطبيعية ولا سيما علم انبات النظري والتطبيقي، وقد جمع القرطبي أبو جعفر بن أحمد محمد الغافقي نباتات اسبانية وأفريقية وسماها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ووصف هذه النباتات بطريقة يصح أن يقال فيها أنها أوفى وأدق ما في اللغة العربية في هذا الموضوع. ووضع أبو زكرياء يحيى ابن محمد بن العوام رسالة في الزراعة بعنوان كتاب الفلاحة وهذه الرسالة اهم ما صنفه المسلمون في الزراعة بل هي أهم مؤلفات العصور الوسطى في هذا الموضوع. ومن أشهر علماء الطبيعة أيضا ابن البيطار صاحب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، وأبو القاسم الزهراوي صاحب التصريف لمن عجز عن التأليف في الطب، وأبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء الملقب بابن زهر صاحب التيسير في المداواة والتدبير في الطب.

علوم الفلسفة: ذاعت في الأندلس مؤلفات الفلاسفة من أمثال الفارابي وابن سينا وإخوان الصفاء، فأقبل عليها الطلاب في شغف شديد، وهب الفقهاء والمتزمتون في وجه الحركة يعارضونها اشد المعارضة على انها رجوع الى الوثنية القديمة وتهجم على العقائد الدينية. اما الأمراء والحكام فقد عززوا الفلسفة تارة، وهاجموها تارة أخرى إرضاء لرجال الدين، وتمشيا مع رغبة الناقمين. ومن مشهوري فلاسفة الأندلس ابن باجة، وابن طفيل صاحب حي بن يقظان وابن رشد صاحب تهافت التهافت وغيره من الكتب التي كان لها أكبر الأثر في فلسفة القرون الوسطى.

الحفر والنقش والعمارة: وانصرف الاندلسيون كذلك الى معالجة الاواني الخزفية، وفبرعوا في تزويقها. وفي القرن العاشر ظهرت مدرسة حفاري العاج بقرطبة، فانتجت من العلب والصناديق وغير ذلك ما بقي شاهدا على دقة العمل ورقي الذوق، وتقدم الحضارة. ويتصل بالحفر والتطعيم فن الفسيفساء الذي بلغ فيه الأندلسيون الغاية، ولا تزال آثارهم ناطقة بكل عظيم مدهش.

وبرع الأندلسيون بفن العمارة وهندلسة البناء، وقد مزجوا فنهم بالطراز الإسباني القديم، وراحوا يبنون الحنايا على هيئة حدوة الفرس، ويرفعون الأقبية على عقود متقاطعة. وقد اشرنا فيما سبق الى القصور والبرك والحمامات والجسور والمساجد التي بناها الخلفاء والأمراء والتي لا تزال الى اليوم من أعاجيب الدنيا في الفن والذوق.

الموسيقي: انتقلت الموسيقي مع العرب الى الأندلس. وكان زرياب خير من مثل ذلك الانتقال، إنه فارسي الأصل، نشأ في بغداد واشتهر في فن الغناء فقربه هارون الرشيد وأبناؤه. ولما طار صيته نقم عليه اسحق الموصلي ففر إلى شمالي افريقية ثم إلى الأندلس. وكان ذلك في سنة 822 أي عقب موت الحكم الأول وفي مطلع عهد عبد الرحمن الثاني. وكان عبد الرحمن يسعى في أن تنافس قرطبة بغداد في البذخ والترف، ومما يروي عنه أنه خرج من عاصمتهم لملاقاة زرياب، وأنه اسكنه معه وأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار في السنة، ووهبه عقارا في قرطبة قيمته أربعون ألف دينار حتى ارتفع شأنه وبلغ من الرفعة ما لم يبلغه أحد من أرباب الفن لذلك العهد. وكان زرياب من رجال العبقرية الفنية، يعرف عشرة آلاف صوت بأشعارها وألحانها. وكان للعود قديما أربعة أوتار: الزير، والمثنى، والمثلث، والبم ، فأضاف اليها زرياب وترا خامسا لم يبلغنا اسمه، وجعل مضرب العود من قوادم النسر بعد أن كان من خشب. وقد انشأ مدرسة غدت معهدا كبيرا للموسيقي الأندلسية، ثم تبعتها مدارس أخرى في إشبيلية مطليطلة وبلنسية وغرناطة. ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس وإليه يعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقي الشرقية الى اسبانية وتعميمها.

وهكذا انتشرت الموسيقي في الأندلس انتشارا واسعا، ولا يستبعد هنري بيريس أن يكون الأندلسيون قد توصلوا الى معرفة سر الهرمونية الموسيقية. وكان للألحان سلطان شديد على قلوبهم.

قال فيليب حتي: إن المسلمين الغربيين كانوا أكثر ميلا الى فن السماع والطرب من زملائهم الشرقيين. ولم يأت القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقي ال،دلسية قد كسفت شهرة بغداد في هذا الموضوع. وفي هذه الحقبة أصبحت إشبيلية تحت حكم بني عباد الذين حكموا قرطبة أيضا مدة وجيزة مركزا للموسيقي والغناء وغيرها من ضروب اللهو التي تقرن عادة بعصور العرب الزاهية في ربوع الأندلس... واشتهرت عاصمة بني عباد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها. وهناك رسالة في الموسيقي ترجع الى عصر المرابطين للفيلسوف ابن باجة ... وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو ابن سبعين تحث في تناسب الأنغام الموسيقية.

أدب العهد التركي

الأدب المغولي والتركي (الخصائص العامة لهذا العصر)

يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة المغول على يد هولاكو سنة 656 هـ، وينتهي بدخول العثمانيين مصر على يد السلطان سليم الفاتح سنة 923هـ. وكان العالم الإسلامي في أثنائه أكثره في سيادة المغول سلالة جنكيز خان. أو هو انقسم إلى ثلاثة أقسام: بين المغول والأتراك والعرب. أمتدت سلطة المغول فيه من حدود الهند شرقا إلى حدود سوريا غربا تتخللها سيادة الفرس والترك فترة قصيرة في فارس والعراق، وحكم الترك من حدود سوريا شرقا إلى آخر حدود مصر غربا، وساد العرب أو البربر فيما وراء ذلك غربا إلى شواطئ الاتلانتيكي وفي اليمن.

كانت مصر والشام في حوزة السلاطين المماليك من سنة 648 إلى 923 هـ. وهم أتراك وشراكسة. وكانت آسيا الصغرى في حوزة السلاجقة ثم أخذها العثمانيون وكلاهما من الترك. وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الالخانية، وهي مغولية. ثم صارت فارس إلى الدولية التيمورية وهي مغولية أيضا. وإنما تخلل ذلك فترات صارت الأمور فيها إلى دولتين فارسيتين: وأخريين تركيتين. وكانت تركستان وأفغانستان في قبضة الشعطائية، ثم صارتا إلى التيمورية وكلتاهما مغولية.

تلك هي معظم الممالك الإسلامية في ذلك العصر ليس فيها دولة عربية، وإنما انحصرت سيادة العرب في اليمن والمغرب. أما اليمن فكانت إمارة صغيرة في زبيد وصنعاء وعدن. وأما المغرب فتولته دول صغرى في تونس والجزائر ومراكش وغرناطة، بعضها عرب وبعضها بربر. وأما الهند فلس يفتحها المغول إلا بعد ذهاب هذا العصر. وفي أواخر هذا العصر خرج المسلمون من أسبانيا برار أبي عبد الله محمد صاحب غرناطة سنة 897هـ، آخر ملوك المسلمين في الأندلس.

فاكتساح المغول للملكة الإسلامية ذهب ببقية العنصر العربي، وهدد آداب اللغة العربية بما أتاه أولئك الأقوام في أثناء حروبهم من التخريب والتحريق. لأنهم كانوا إذا فتحوا بلدا قتلوا أهله، ونهبوا ما فيه، وأحرقوا ما لا يستطيعون حمله، وهدموا المنازل. فكم أحرقوا من المكتبات وقتلوا من العمال. كما فعلوا في بخارا على عهد جنكيزخان وبغداد على يد هولاكو. وقس عليه سائر فتوحهم على يد تيمورلنك وغيره.

ويقال بالإجمال إن العالم الإسلامي مرت عليه ثلاثة قرون، وليس فيه دولة عربية تستحق الذكر، ولم يحكم العرب منه عشر معشاره. فلو ذهبت اللغة العربية في أثنائها وأمحت آدابها لم يكن ذلك غريبا، لكنها ظلت حية، ونبغ فيها الشعراء والأدباء والمؤلفون في كل فن. والسبب في ذلك أنها كانت لغة السياسة في معظم تلك الدول، ولغة الدين والعلم فيها كلها تقريبا. حتى المغول الذين قاموا للإجهاز على العرب فإن سعيهم في سبيل العلم كان أكثره عربيا، وأكثر ما ألفه علماؤهم الفوه في اللغة العربية.

على أن الفضل الأكبر في بقاء آداب اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر والشام، وهما في حوزة السلاطين المماليك، ومن بقي من الملوك الأيوبيين، فقد كانتا الملجأ الوحيد لأبناء هذا اللسان في فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق. وكانتا مملكة واحدة عاصمتها مصر القاهرة، ولغة حكومتها عربية، فنتغ فيهما معظم شعراء العصر المغولي، وأدبائه، وأطبائه، وسائر رجال العلم فيه، كما ستراه في مكانه.

مراكز العلم

انتقلت مراكز العلم والأدب فيه من بغداد وبخارا ونيسابور والري وقرطبة وإشبيلية، وغيرها من مدائن العلم في العصور العباسية إلى القاهرة والاسكندرية وأسيوط والفيوم ودمشق وحمص وحلب وحماء، وغيرها من مدائن مصر والشام. واشتهرت مدن أخرى بمن نبغ فيها من الأدباء في الهند في ظل سلاطين دلهى، وفي آسيا الصغرى في عهد السلاجقة والعثمانيين، وفي إفريقية تحت سيادة البربر. فكثر في أسماء الشعراء والأدباء والعلماء في هذا العصر القاب: الدمشقي والحلبي والقاهري والفيومي والاسكندري والمقدسي والحموي والسيوطي والحمصي والتونسي والغبريني واللواتي والكليكوتي والباكوي والتروسوي وغيرهم. على أن القاهرة كانت ملجأ أدباء اللغة العربية وعلمائها يفدون عليها من الشرق والغرب. كانت عاصمة العالم العربية ولا تزال.

نصراء الأدب

ذهب عشاق الأدب والشعر من الأمراء والوزراء والخلفاء وغيرهم من رجال السلطة الذين كانوا يطلبون العلم، ويشتغلون به، ويلتذون بسماع الشعر وينظمونه. وأصبح الملك إنما يراد به القهر والغلبة. وبعد أن كان الشاعر أو الأديب تعلو منزلته عند الأمير، أو الخليفة، أو السلطان، بالبيت الواحد، أو الحكاية الواحدة، انصرف هم الملوك المغول إلى تدوين حسابات المملكة، وضبط الخرج والدخل وتدريب الجند. وإنما اهتموا من العلوم بالطب، لحفظ الأبدان والأمزجة، والنجوم لاختيار الأوقات. أما السلاطين الأتراك بمصر فمع رغبتهم في تلك العلوم ولاشتهار غير واحد منهم بحب العلم وتنشيط أهله، ألفوا لهم الكتب في التاريخ والأدب. وسترى في مؤلفات هذا العصر طائفة من أهم الكتب التاريخية والموسوعات الكبرى. ألفت لبعض أولئك السلاطين أو وزرائهم أو أمرائهم، أو أولادهم أو بتنشيطهم. وهكذا كان شأن الملوك الأيوبيين في الشام وما بين النهرين.

علوم جديدة والقاب تفخيم

نضج علم العمران وفلسفة التاريخ بظهور مقدمة ابن خلدون، وهي أول كتاب في هذا الموضوع. وقد صرح ابن خلدون في آخر مقدمته أنه مستنبط هذا البحث وسماء طبيعة العمران وما يعرض فيه وهذا قوله: وقد كدنا نخرج عن الغرض، وعزمنا أن نقبض العنان عن القول في هذا الكتاب الأول الذي هو طبيعة العمران، وما يعرض فيه. وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح، وعلم مبين يغوص في مسائله على أكثر مما كتبنا. فليس على مستنبط الفن إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم وتنويع فصوله، وما يتكلم فيه. وامتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئا فشيئا إلى أن يكمل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون وسنعود إلى ذلك.

أتقتنت في هذا العصر العلوم السياسية والإدارية والحربية، ووضعت فيها الكتب وضبطت قوانينها ونظمها تحت سلطان المماليك. ظهر الانتقاد التارخي. وسنفرد له فصلا خاص. كثرت ألقاب التفخيم في المخاطبات وفي تراجم العلماء والوجهاء، وزاد التسجيع والتطويل في الترسل، والتنميق في العبارة. وشاع التسجيع في أسماء المؤلفات وكان قد ظهر شيء من ذلك في العصر الماضي فتكاثر الآن. وزاد في العصر الآتي.

المكاتب والكتب

قلت المكاتب الكبرى لذهاب أكثرها حرقا وغرقا في أثناء الفتن، أو في الفتوح على أيدي المغول في الشرق، والاسبان في الغرب. وكان إحراق الكتب قد بدأ في المملكة الإسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية. فكل فرقة تحاول احراق كتب الأخرى، كإحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة. وناهيك بما أحرق من كتب العلماء المتهمين بالزندقة والفلسفة وهي كثيرة. ولعل بينها ما ليس مثله ما بقي. أما التتر فبالغوا في الإحراق والتخريب، فأحرق جنكيزخان من المكاتب في بخارا ونيسابور وغيرها من مدائن العلم في فارس ما يدرك إحصاؤه، ولم يرد كره مفصلا، لأنه جاء تابعا لما أتاه ذلك الطاغية من الهدم والتخريب. أما هولاكو فقد ذكر التاريخ إتلافه كتب العلم في بغاد، وإن لم يعين مقدارها تماما وكذلك في الأندلس، فإن الاسبانيين كانوا كلما فتحوا بلدا أخرجوا العرب منه، وأحرقوا كتبهم على جاري عادة رجال الفتح في تلك الأيام. وآخر مكتبة أحرقها الإفرنج من كتب العرب: مكتبة غرناطة على يد الكردينال زيمنس في آخر القرن التاسع للهجرة كان فيها 80000 مجلد على أقل تقدير. فأمر بأحراقها لأنها تحتوي على كتب تخالف الأناجيل. وطافوا في المدينة فأخذوا ما كان في أيدي المسلمين من الكتب وأحرقوهاز أصدروا أمرا في مكتبة الاسكوريال، فأصلها: ان سفينتين أسبانيتين غزتا في البحر المتوسط ثلاث سفن تحمل كتبا عربية، لمولاي زيدان صاحب مركش في أوائل القرن الحادي عشر للهجرة، فأخذوها، وغنموا ما فيها وحملوا تلك الكتب إلى أسبانيا، ووضعوها في الاسكوريال، وذهب جانب منها بحريق أصاب تلك المكتبة.

وقد شعر علماء العصر المغولي بنقص الكتب في أيامهم فقال السيوطي بعد ذكر كحاية الصاحب بن عباد لما دعي للذهاب إلى بعض الملوك، فاعتذر بمشقة الانتقال، لانه يحتاج إلى ستين جملا ينقل عليها كتب اللغة التي كانت عنده: وقد ذهب جل الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم، بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد وهذا غلو من السيوطي، لكنه يدل على مقدار شعور العلماء بضياع الكتب بالفتن.

على أن لضياع الكتب أسبابا غير الفتن والحروب إذ تبلى أوراقها من نفسها، أو يمحى حبرها، ويعجز صاحبها من استنساخها لغلاء النفقة. وتحولت العناية في جمع الكتب إلى الأفراد من العلماء، أو عشاق الكتب مثل: ناصر الدين العسقلاني صاحب الإنشاء بمصر توفي سنة 733، فإنه خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتبا نفيسة. ومكتبة القفطي التي تقدم ذكرها. وصارت المكاتب أكثرها في المساجد والمدارس.

المدارس والموسوعات

تكاثرت المدارس في مصر والشام على الخصوص، حتى صارت تعد بالمئات، وأهمها في القاهرة ودمشق. وأول من أنشأ المدارس في الشام، السلطان نور الدين زنكي، واقتدى به من جاء بعده من الملوك والسلاطين. واختلفت المدارس عندهم حسب مذاهبها وأغراضها، للتفسير أو الحديث، أو الفقه للشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة، أو الطب أو الفلسفة، أو الرياضيات. وتخرج في هذه المدارس طائفة كبيرة من العلماء، وقس على ذلك مدارس حلب وحمص والقدس وغيرهاز أما مصر فتعددت فيها المدارس على اختلاف اغراضها كما فصل ذلك المقريزي والسيوطي. واشهرها بل أشهر المدارس الإسلامية في العالم كله مدرسة الأزهر بالقاهرة، وهي أقدمها، يرجع تاريخها إلى أواسط القرن الرابع للهجرة.

تكاثرت في هذا العصر الموسوعات والمجموعات، وتعدد المكثرون من درس الموضوعات المختلفة، واستكثروا من المعاجم في أكثر مؤلفاتهم. حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات أو المجاميع.

العلوم

انصرف أصحاب القرائح عن الاشتغال في الفلسفة والفلك والرياضيات إلى الأبحاث الدينية، ولعل السبب في ذلك كثرة ما تولى الناس من الاحن، فالتجؤوا إلى الدين أعظم تعزية لهم. وحولوا أكثر تلك العلوم: إما إلى خدمة الدين أو إلى الخرافات. فعلم الفلك صار مثلا إلى التوقيت في المساجد. واستغرق أصحاب الكيمياء في تحويل المعادن إلى ذهب. وصار علم النجوم إلى النجامة، وضرب الرمل، وأمثاله من الشعوذة وكثرت المؤلفات في هذه الموضوعات.

على أن الهمم انصرفت إلى حل العويص من المسائل الرياضية مما يفتقر إلى استغراق في التفكير، كقسمة الدائرة إلى سبعة أقسام، أو رسم المسبع في دائرة. وقد تكاثر هذا على الخصوص في العصر الثالث. فلنبحث في علوم هذا العصر كما فعلنا في علوم العصور الماضية.

مميزات الشعر

إن استيلاء المغول على رقاب الناس قيد السنتهم، وشغل عقولهم. فزادت قراتحهم جمودا عما كانت عليه في العصر السابق، ولم ينبغ من الشعراء من يستحق الذكر إلا خارج مملكة المغول، ولا سيما في مصر والشام. ولا تخلو البلاد الأخرى من شعراء مجيدين لكن يقال بالإجمال إن الشعر أصبح صناعة لفظية بعد أن كان قريحة فطرية. واختلط الشعر بالأدب، وقلما نبغ شاعر لم يشتغل بغير الشعر، فإن أكثرهم الفوا الكتب في الأدب وجمع الشعر والنكات والمواعظ والحكم ونحو ذلك. وابتذلت الصناعة الشعرية وتعاطاها الناس لقضاء ساعات الفراغ فقط. وكثر الناظمون من الباعة وأرباب الحرف كالخياطين والنجارين والدهانين ونحوهم. وليس ذلك خاصا بهذا العصر إذ كثيرا ما ظهرت القرائح الشعرية في طبقات العامة، لكنهم كانوا إذا يبغوا استغنوا عن صنائعهم بتقربهم من بعض الأمراء أو الخلفاء، فتشحذ قرائحهم، ويأتون بالمعجزات، كما اتفق لكثيرين من شعراء العصر الأموي والعباسي. أما في العصر المغولي فنظرا لكساد بضاعة الأدب لا يجد صاحب القريحة الشعرية وسيلة للارتزاق بها. فيبقى في مهنته ويتعاطي الشعر للتسلية. وكان السلاطين المماليك يقربون الأدباء في الغالب ليؤلفوا لهم التاريخ، أو كتب الحرب، أو الأد أو العلوم الدخيلة، أو الإسلامية.

البدوي والحوراني

وفي هذا العصر تولد ضرب من الشعر اقتضاء فساد اللغة الفصحي بتوالي الاختلاط باعاجم، فتولدت طبقة من الشعراء عرفها ابن خلدون بالمستعجمة عن لغة مضر كانوا ينظمون في أغراض الشعر المعروفة: النسيب والمدح والرثاء والهجاء مثل ما تقدمهم. لكن شعرهم يمتاز بخلوه من الإعراب وباحتوائه على كثير من الألفاظ العامية. واشتهر من هؤلا ء الشعراء طائفة كبيرة من أهل المغرب بتونس الجزائر ومراكش، وكانوا يسمون قصائدهم: الأصمعيات، ويسميها أهل مصر والشام: البدوي. وكانوا بغنونه ويسمون الغناء به : الحوراني نسبة إلى حوران: منازل العرب البادية. وذكر ابن خلدون أمثلة من هذا الشعر في مقدمته. من ذلك قول شاعرهم الشريف بن هاشم يبكي الجارية بنت سرحان في قصيدة.

عروض البلد والمواليا وغيرهما

وتولد فيه أيضا المربع والمخمس الذي يلتزمون فيه القافية الرابعة أو الخامس من كل بيت. وهو ما أحدثه المولدون في القرن الثامن للهجرة. وذكر ابن خلدون فنا من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظمه أهل الأمصار للغتهم الحضرية وسموه: عروض البلده كان أول من استخدثه فيهم رجل

من الأندلس. نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم يخرج فيها عن مذاهب الإعراب. فاستحسنه أهل فاس ونظموا على طريقته مع إغفال الإعراب. ثم نوعوه أصنافا منها المزدوج والكاري والملعبة والغزل، واختلفت أسماؤها باختلاف ازدواجها. ويشبه ذلك نظم العامة في سوريا لما يسمونه : القصيد، أو القريض وهذا الأخير ينظمونه على أوزان بعضها سرياني الأصل. ونضج في هذا العصر ضرب من الشعر العامي يقال له: المواليا. كان في بغداد، وتحنه فنون كثيرة منها القوما، و"كان وكان" منه مفرد ودوبيت. وانتقل إلى القاهرة وشاع فيها من ذلك العهد وأجاد فيم المصريون كثيرا. ونظرا لطول إقامة الإفرنج في سوريا قبيل هذا العصر في أثناء الحروب الصليبية، فقد يغلب على الظن أن وجودهم ترك أثرا في نفوس الأدباء قد يظهر في أشعارهم.

التاريخ الشعري

وفي أواخر هذا العصر، ظهر التاريخ الشعري، والمراد به ضبط تاريخ واقعة بأحرف تتألف منها كلمة، أو جملة، أو شطر يكون مجموع حروفه بحساب الجمل يساوي التاريخ الذي جرت فيه تلك الواقعة، يأتي بها الشاعر بعد لفظ تاريخ أو ما يشتق منها. وهو شائع اليوم لكنه من محدثات العصور الأخيرة. لم نقف على شيء منه أقدم من أوائل القرن العاشر للهجرة على أهر فتح العثمانيين مصر. ويظهر أنه أقدم من ذلك عند العثمانيين.

كان أهل الحساب في صدر الإسلام يستخدمون له حروف الهجاء، كما تستخدم الأرقام الهندية، وكذلك كان يفعل السريان والعبران. فلما عرف العرب الأرقام الهندية اتخذوها لسهولتها، وظلوا يستخدمون الحروف أيضا ردحا من الزمن. ولهم في ترتيبها طرق تؤدي العدد المطلوب بلا التفات إلى معنى الكلمة التي يتألف منها. وكثيرا ما كان يتألف منها ألفاظ ذات معنى، فخطر لبعضهم على ما يظهر أن يعتمد ذلك بحيث يكون للجملة أو الكلمة التي يتألف منها التاريخ معنى يوافق الحادثة المؤرخة. ولا ندري من تنبه لذلك أولا وال متى.

على أن هذه الطريقة كانت معروفة عند أصحاب الجفر وأسرار الحروف. ثم استخدمها الأدباء نثرا لتدوين الحوادث التاريخية. فيجمعون أحرفا، مجموع جملها يساوي تاريخ الحادثة وله معنى يلائمها. ومن أقدم ما وقفنا عليه من ذلك تاريخ فتح القسطنطينية سنة 857هـ. فقد أرخه العثمانيون بقولهم: بلدة طيبة، وأرخ رجل آخر بناء سبيل سنة 966 بقوله: رحم الله من دنا وشرب، واستخدموا ذلك نظما قبل هذا التاريخ.

توسع الشعراء في فن التاريخ الشعري بعد ذلك حتى صاروا ينظمون القصيدة، وكل شطر

منها تاريخ، ويجتمع من أحرف أوائل الأبيات ألفاظ يتركب منها أبيات، كل شطر منها تاريخ أو تاريخان، كما فعل النحلاوي بقصيدة، مدح بها الشيخ عبد الغني النابلسي سنة 1136، وعارضها الشيخ ناصيف اليارجي بقصيدة مدح بها إبراهيم سنة 1848. وتفنن آخرون بأن يتألف من مهمل كل بيت تاريخ، ومن معجمه تاريخ وغير ذلك.

شرف الدين البوصيري

هو العارف بالله شرف الدين محمد بن سعيد. ولد في بوصير في أول شهر شوال، وقد برع في الخط، وتولى مديرية الشرقية، وتوفي بالإسكندرية نحو سنة 1296م/ 696هـ. للبوصيري في مدائح النبي قصائد شهيرة، منها الهمزية ومطلعها:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

ومنها البردة وتعرف بالكواكب الدرية في مدح خير البرية وهي تقع في 162 بيتا قيل إن البوصيري نظمها في مدة مرض اعتراه تبركا، فأتاه النبي وغطاه ببردته فشفي ولذلك سمي بديعيته البردة.

ولهذه القصيدة شهرة واسعة جدا وقد شرحت وفسرت أكثر من تسعين مرة في العربية، والفارسية، والتركية، والبربرية. وخمست وثلثت وشطرت مرات كثيرة، وقد ترجمت إلى عدة لغات منها اللتينية والألمانية والفارسية. وهي من أروع الشعر الديني عاطفة وانطلاقا. وإليك شيئا منها:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم؟

فما لعينيك إن قلت : أكففا همتا؟ وما لقلبك إن قلت: أستفق! يهم؟

يا لائمي في الهوى العذري، معذرة مني إليك، ولو انصفت لم تلم

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرب

ولا اعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم، برأسي غير محتشم

والنفس كالطفل، إن تهمله شب على حب الرضاع، وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها، وحاذر أن توليه إن الهوى ما تولى يصم او يصم

صفي الدين الحلي

هو اشهر شعراء العصر المغولي خارج مصر والشام. واسمه عبد العزيز بن سرايا ابن علي ابن أبي القاسم. ويعرف بصفي الدين الطائي السنبسي الحلي نسبة إلى الحلة في العراق. ولد سنة 677هـ. وكان شاعر الدولة الأرتقية في ماردين، ورحل إلى القاهرة في زمن السلطان الملك الناصر سنة 726، ومدحه بقصيدة وازي بها قصيدة المتنبي التي مطلعها: بأبي الشموس الجانحات غواربا فقال في مطلعها:

أسبلن من فوق الشهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا

ثم عاد إلى ماردين. وتوفي في بغداد سنة 750، وقد أجاد في القصائد الطوال والمقاطيع، واشتهر بسهولة اللفظ، وحسن السبك. وله:

ديوان شعره: جمعه بنفسه ورتبه على 11 بابا حسب أبواب الشعر من الفخر والمدح والوصف والاخوانيات والغزل والرثاء وغيرها. وقد طبع في دمشق سنة 1300، وفي بيروت سنة 1892 في 528 صفحة مذيلة بأمثلة من نثره وتفننه في المهمل والمتشابه، وحل المنظوم، والأرتقيات الآتي ذكرها. ومنه نسخ خطية في أكثر مكاتب أوربا، وفي دار الكتب المصرية. وقد انتقد أهل زماننا ما فيه من المجون والأحماض. وأما شاعريته فلا خلاف في أنه أشعر أهل زمانه. وله مخترعات في النظم منها: الموشح المضمن، كقوله من موشح ضمنه قصيدة أبي نواس البائية:

وحق الهوى ما حلت يوما عن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى

ومن كنت أرجو وصله، قتلني نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب إن أصابني النصب

حامل الهوى تعب يستفزه الطرب

درر النحو في مدائح الملك المنصور: وهي : القصائد الأرتقيات 29 قصيدة على أحرف الهجاء. التزم في كل قصيدة حرفا في أول البيت وفي آخره. وهي في مدح الملك المنصور أبي الفتح بن ارتق الغازي صاحب ماردين. منه نسخ في لندن وباريس، والاسكوريال ودار الكتب المصرية. وطبع بالقاهرة سنة 1283 ومع ديوانه في بيروت سنة 1892.

العاطل الحالي والمرخص الغالي. في الزجل والموالي، وكان وكان، والقوما تابع لديوانه منه نسخة في منشن. الكافية البديعية. في مدح النبي صلعم. في دار الكتب المصرية وغيرها، وطبعت مع ديوانه سنة 1892. قصيدة في مدح الصالح الأرتقي. ترجمت إلى اللاتينية وطبعت في ليبسك سنة 1816. وصف الصيد بالبندق. يصف هذا الضرب من الصيد. وبما أنه أبطل الآن ففي وصفه فائدة وقد سماه: الخدمة الجليلة. منها نسخة في برلين. ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء. وفي الاسكوريال. الأغلاطي. معجم الأغلاط اللغوية. في الاسكوريال. فوات الوفيات 279ج1.

النثر

عالج الكتاب في هذا العصر النثر الفني والنثر العلمي، وكان النثر الفني على نوعين: الكتابة الديوانية والرسائل الادبية. أما الكتابة الديوانية فموضوعها ما يصدر عن السلاطين والحكام من الرسائل، وقد أنشيء لها ديوان خاص عرف بديوان الإنشاء، تولى أمره خيرة الرجال أدبا وسياسة وثقافة، لأن مهمة صاحبه تتطلب حسن الرأي والمشورة، والدقة في العلاقات، والمعرفة بأمزجة النفوس، والاطلاع على أساليب البلاغة لتكييف الكلام بحسب مقتضى الحال فيصادف القبول والرضى. ثم ألفت كتب كبيرة لاعداد المرشحين لهذا المنصب. ومن خصائص هذا النوع المحافظة على الألقاب المصطلح عليها، فهناك الأشرف والشريف والكريم والعالي إلى غير ذلك من صفات التفخيم، والمحافظة على نماذج مرعية في الموضوعات المختلفة من تهنئة بنصر، وتقليد منصب، ومكاتبات عامل أو أمير. وهذا الفن يحتاج الى كثير من الدقة في التعبير لعظم ما ينتج عن الإخلال بالدقة من وخيم العواقب. ولكن موجة السجع والبديع بأنواعه طغت عليه أيضا فشوهته أنها تشويه، فأسمعنا محيي الدين بن عبد الله الظاهر وهو من أشهر كتاب هذا العهد مثل هذا القول:

حرس الله نعمة مولاي، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف، ومنادى جوده لا يرخم واحمد عيشه لا ينصرف، ولا عدم مستوصل الرزق من يراعته التي لا تقف الوصل ولا عدمت نحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود، وما خاطبت الأيام ملتمسه إلا بلاك التوكيد ولا عدوه إلا بلام الجحود.

وكان انتشار اللغة التركية في العهد العثماني النصرية القاضية على النثر الديواني. ومن أنبه كتاب الدواوين في عهد المماليك محيي الدين بن عبد الله الظاهر، وابنه فتح الدين، وتاج الدين بن الأثير، وشهاب الدين محمود الحلبي، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى.

وأما النثر الأدبي فيتناول الإخوانيات بأنواعها من مراسلات بين الأصدقاء، ومناظرات أدبية، ونحو ذلك. وقد سار كتاب هذا النوع على الخطة التي انتهجها كتاب الدواوين فراعوا شكل الألفاظ أكثر من جوهر المعاني، وأغرقوا في استعمال التورية والتضمين والاقتباس والجناس ملتزمين السجع الممل، حتى أصبحت الكتابة أخيرا ولا لفظ لها يستساغ ولا معنى يروق. ومن البارزين في هذا الفن بدر الدين الحلبي صاحب نسير الصبا، والقلقشندي الذي ألف رسالة دعاها حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم، وقد امتاز القلقشندي عن غيره من كتاب زمانه بالإقتصاد في استعمال البديع.

وكثر أصحاب التصنيف في هذا العهد من لغويين ومؤرخين ورحالة. فكان أسلوبهم أقرب إلى الطبع وأبعد عن التكلف لأن غايتهم العلمية لم تدع لهم مجالا للسعي وراء التنميق اللفظي، فلان كلامهم وسهل كما هي الحال عند ابن خلدون. ولكن المتأخرين منه لم يأمنوا من التعقيد والإسفاف فانحط إنشاؤهم أحيانا إلى مستوى النثر العامي.

اللغة

تكاثر الاشتغال في اللغة وعلومها في هذا العصر، وإن كان أكثر اشتغال علمائها في الشروح، ولكن مؤلفاتهم لا تزال شائعة، وعليها المعول حتى الآن.. ولا سيما المعاجم. وفي هذا العصر نبغ صاحب لسان العرب، وصاحب القاموس، وصاحب الألفية، وغيرهم. ولما كان أكثر علماء اللغة نبغوا في مصر والشام: فنختصهما بباب مشترك كما فعلنا بباب الشعر مع اعتبار سنة الوفاة.

التاريخ

ان التاريخ من آداب اللغة في حالة الأمة، لأنه يدون أعمالها، ويتكيف على ما تقتضيه أحوالها. فإذا كان تشتت المملكة الإسلامية وكثرة أصحاب السيادة فيها من الملوك والأمراء بعث على الإكثار من تدوين السير الفردية لأولئك العظماء، فاكتساح تلك المملكة ودخول كثير منها في حوزة المغول وذهاب الدول التي كانت تأخذ بناصر العلم والعلماء بعث على جمع تلك السير وأمثالها في كتب عامة للتراجم من كل الطبقات، مرتبة على أحرف الهجاء. وهي: المعاجم التاريخية مع أعمال الفكرة والترجيح بين الروايات. وزادت الرغبة في تدوين التاريخ العام للاعتبار بأحوال الدول بنسبتها بعضها إلى بعض. فنبغ في هذا العصر طائفة من المؤرخين، لا يشق لهم غبار، لا تزال كتبهم بين أيدينا، وعليها معولنا في تحقيق الحوادث. ونظرا لذهاب معظم الأصول التي نقلوا عنها أصبحت هي المرجع الوحيد في التاريخ.

ففي هذا العصر، ظهر ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء، وصلاح الدين الصفدي صاحب الوافي في الوفيات، وأبو الفداء صاحب التاريخ المشهور، وشمس الدين الذهبي صاحب تاريخ الإسلام، وابن شاكر الكتبي صاحب فوات الوفيات، وابن الطقطقي صاحب الآداب السلطانية، وابن خلدون، والعسقلاني، والمقريزي، والسيوطي، وغيرهم من أساطين التاريخ. ونظرا لذهاب الدالة والوساطة، بذهاب الدولة المسيطرة على الآداب العربية واحتكاك الأفكار بتوالي الإحن مع كثرة الاختلاط دخل التاريخ شيء من الانتقاد والفلسفة، ظهر ناجضا في مقدمة ابن خلدون الآتي ذكرها.

النقد التاريخي

نعني بالنقد التاريخي: النظر في التاريخ بعين النقد، وبيان ما قد يعتوره من المغالط أو الأوهام. وهو آخر ما التفت إليه أدباء العرب من ضروب النقد. فإنهم بدؤوا بنقد الشعر، ثم الإنشاء واللغة. وقد تقدم الكلام في ذلك. ونحن الآن في صدد الكلام على النقد التاريخي.

كان العرب في صدر دولتهم من أبعد الناس عن نقد التاريخ. وإنما كان همهم تحقيق الحوادث بالإسناد أو الرواية. فإذا جاءتهم الرواية مسندة إلى الثقات، قبلوها ولم يكلفوا انفسهم النظر فيها، وتدبرها، وانتقادها.

إن الاشتغال بالتاريخ عند المسلمين كان الغرض منه أولا: خدمة الحديث والتفسير، لأنهم لما اشتغلوا في تفسير القرآن وجمع الأحاديث، احتاجوا إلى تحقيق الأماكن والأحوال التي كتبت بها الآيات، أو قيلت فيها الأحاديث، فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية ودونوها. واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه، والنحو والأدب، إلى البحث في أسانيدها، والتفريق بين ضعيفها ومتينها. فجرهم ذلك إلى النظر في الرواة وتراجمهم وسائر أحوالهم. وقسموا رواة كل فن إلى طبقات. فتألف من ذلك تراجم العلماء والأدباء والفقهاء والنحاة، وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات: كطبقات الشعراء، وطبقات المفسرين، أو النحاة، أو الفقهاء، أو الحفاظ، أو النسابين أو غيرهم. وكان ذلك من أهم أسس علم التاريخ. واضطروا، لنحو هذا السبب في صدر الإسلام، أن يبحثوا في البلاد المفتوحة لتحقيق أسباب الفتح عنوة أو صلحا. فجرهم ذلك إلى تعرف البلاد وعلة فتحها.

واتخذوا، في تحقيق ذلك كله، نفس الطريقة التي توخوها في تحقيق الأحاديث، نعني الإسناد من راو إلى راو. ولذلك رأيت تواريخ القرون الإسلامية الأولى لا تخلو من الإسناد. والحادث الذي لا يزيد نصه على سطر واحد قد يستغرق إسناده بضعة أسطر. وقد يقتضي تحقيقه إيراد عدة روايات لكل منها أسانيد متعددة. فربما استغرق تحقيق الحادث المشار إليه صفحتين أو أكثر. وهم على الغالب يوردون الروايات بأسانيدها ولو كانت متناقضة، ولا يبدون فيها رأيا، وإنما يكتفون بإيرادها للقارىء على اختلاف رواتها.

تلك هي طريقة الطبري في تاريخه، والبلاذري في فتوحه، والأغالي في رواياته وأكثر الذين دونوا الحوادث التاريخية في القرون الإسلامية الأولى. ثم أخذوا يجردونها من الأسانيد شيئا فشيئا. لكنهم لم يتعرضوا لنقدها إلا بعد حين.

نعني اضطرار المؤرخ إلى مجاراة صاحب الامر بما يريده. لانه انما يكتب لإرضائه ولا رزق له بدونه. وأكثر المؤرجين كتبوا بإيعاز من الخليفة أو السلطان أو الأمير، وليس لهم يومئذ ما لكتاب هذا الزمان من وسائل الطبع والنشر، والتعوول في الرزق على القراء من الجمهور. فالمؤرخ في تلك العصور لا مندوحة له عن مرايرة أميره، وكتابة ما يوافق أغراضه وميوله، والأغضاء عما لا يرضيه. ود. يجاري أغراضهم، فيصور الحقائق على خلاف ما هي. فالمؤرج في دولة العباسيين لا يمكنه الثناء على بني أمية، وذكر محامدهم وآثارهم. وإذا كان الأمير من أهل السنة مثلا، وكان متعصبا على سواها لا يسع مؤرخه انتقاد ائمتها، والثناء على العلوبين. ولا يسع السنيون ولا الشيعيين ذكر محامد المعتزلة، او الزنادقة. ولذلك ضاع كثير من أخبار هاتين الطائفتين، ولم يصلنا من تراجم رجالهما إلا النذر اليسير. ولهذا السبب أيضا ضاع كثير من أخبار بني أمية، لأن التاريخ لم يتم نضجه في أيامهم. فما كان مدونا تحت عنايتهم محاه مؤرخو العباسيين، او شوهوه، او بدلوه.

ولذلك لا تجد في التواريخ التي كتبت تحت رعاية هذه الدولة، ما يحفل به من محامد الأمويين، أو الشيعة، أو المعتزلة، ولا عيوب العباسيين. وإنما تجد ذلك متفرقا عرضا في كتب الأدب، أو الرحلة، أو غيرها، مما لم تصل إليه نقمة ولاة الأمر. أو في كتب الفرق الأخرى المخالفة لهم: كل فرقة تذكر عيوب سواها، وتخفي عيوب نفسها. فإذا عرضت لك حقيقة تاريخية عن إحدى هذه الفرق، وأشكل عليك تعليلها، ابحث عنها في كتب الفرق الأخرى، فإنك في الغالب تجدها مطولة واضحة. وكثيرا ما وقف ذلك عقبة في أبحاثنا التاريخية، فتوخينا، المقابلة بين الأقوال المختلفة، فانكشفت لنا الحقيقة. لأنك لا تجد عيوب الخلفاء العباسيين إلا في كتب الشيعة أو في بعض كتب الأدب. إذا كان كتابها بعيدين عن بغداد، أو هم في غنى عن خلفائها: كصاحب الأغاني والمسعودي، أو من كتب بعد ذهاب دولتهم، وهو على غير رأيهم: كالفخري.

وكثيرا ما يغضي المؤرخ عن عبوب أمير، أو وزير، له عليه يد. فلا يذكره بغير الثناء عليه، أو هو يعدد فضائله، ويغضي عن سيئاته. وتبقى هذا السيئات متناقلة على الألسنة حتى يدونها من يأتي بعد ذهاب دولة ذلك الوزير، أو بعد تقلب الأحوال وهو حي: كترجمة الصاحب ابن عباد في يتيمة الدهر، وفي معجم الأدباء. ولولا ضيق المقام لأتينا بالأمثلة الكثيرة. وربما فعلنا ذلك في مكان آخر.

الموسوعات والمجاميع

تكاثرت الموسوعات، والكتب الجامعية للموضوعات المتعددة في هذا العصر حتى يصح أن يسمى عصر الموسوعات والمجاميع. وأصحابها أكثرهم في مصر والشام مثل سائر العلماء والأدباء، لأسباب تقدم بيانها. ويدخل فيهم الأدباء الذين اشتغلوا في علوم كثيرة، ولم يختصوا بفن واحد.

أبن خلكان

هو شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان، وهو من سلالة يحيى بن خالد البرمكي. ولد في إربل بالعراق وتفقه فيها على والده، ثم انتقل بعد موت أبيه الى الموصل ثم الى حلب ودمشق. ثم دخل الديار المصرية وسكنها، وناب في القضاء عن القاضي بدر الدين السخاوي ثم ولي قضاء الشام مرتين وأخيرا عزل. وقد توفي سنة 1282م.

لابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. وهو كتاب يتضمن تراجم المشهورين من رجال العلم والأدب والصناعة والمال غير الصحابة والتابعين والخلفاء، وقد تحرى فيه صاحبه الدقة ولا سيما في تاريخ الوفاة، وابتعد فيه عن الخرافات والتلفيقات، وأبرزه لنا في لغة سليمة وبسيطة وفي أسلوب علمي، فكان من أهم مراجع التاريخ، وكان أول كتاب من نوعه لشموله وسعة نطاقه وعد انحصاره في نوع معين أو بلد معين. وهكذا حوى نحو 865 ترجمة. وقد ذيله عدة علماء مترجمين لبعض من تركه ابن خلكان، اشهرهم ابن شاكر الكتبي المتوفي نحو سنة 1303 صاحب فوات الوفيات.

ابن خلدون

هو أبو زيد عبد الرحمن بن أبي بكر محمد بن خلدون. ولد في تونس سنة 732هـ وتوفي في القاهرة سنة 808هـ. وهو من بيت علم وأدب وشرف ينتهى نسبه الى واءل بن حجر من كبار الصحابة وكان والده ابوبكر محمد ادبيا وشاعرا وفي هذه الأسرة نشأ ابن خلدون محبا لعل والسياسة.

حفظ القرآن بالقرآت السبع وتعلم اللغة من الوالد ودرس على بعض العلماء تونس الفقه والحديث والأدب وتعلم علوم الرياضية والمنطق وسائر الفنون الحكمية من محمد الايلي. ولما بلغ السابعة عشرة من عمره مات والده وهكذا ماتوا كثير من اشياخه بالطاعون ثم انتقل في بلاد كثيرة في عنفان شبابه مثل ابن بطوطة وبقدرته في العلم ولفلسفة وبامانته واخلاصه اكرم عند الامراء والسلاطين وخدمهم في مناصب مختلفة واصابه بعض الصعوبات ايضا من هؤلاء السلاطين بوشاية حساده. ثم استقر في تلسمان واقام بها مع واهله اربع سنين وفي اثناء هذه المدة بدأ في تأليف التاريخ والجمل المقدمة الابعض فصول من التاريخ. وقد شارف على خمسين من عمره.

ثم حن الى تونس مسقط رأسه وذهب اليها سنة 780 هـ فاستقبله صاحبها واكرمه وحثه على اتمام تأليفه. ولما احس بالوشايات ذهب الى مصر وجلس للتدريس في الأزهر واتصل خبره بسلطان مصر برقوق العظيم فقربه واكرمه وولاه قضاء المالكية سنة 786 واشتهر امره عالما قاضيا مدرسا مؤرخا اديبا وكثر المعجبون به.

وارسل ابن خلدون يستقدم اهله وولده من تونس ليقيوموا معه في القاهرة. فغرقوا جميعا اثناء الطريق. فصعب الأمر على هذا الفيلوسوف واصابه حزن شديد فاستقال عن منصب القضاء وانقطع للتدريس والتاليف وفي سنة 789 خرج من القاهرة الى الحجاز لأداء الحج ورجع بعده الى القاهرة وكب على العمل في كتابه حتى اتمه سنة 797 هـ وما زال ملجأ اهل العلم والأدب حتى توفى 808هـ.

مقدمة ابن خلدون

هذا الكتاب يشتمل على قسمين: المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع لم ايعرض للمؤرخين من الاغلاط والاوهام وذكر شيئ من اسبابها. يشتمل على ستة ابواب وهي العمران البشرى على الجملة العمران البدوي، الدولة العامة البلدان والامصار، المعاش ووجوه من الكسب والصنائع، والعلوم وأصنافها. لم يكن هذا الكتاب كتاب تاريخ بل هو اعم من ذلك عنده خبر عن الاجتماع الانساني ومعرفة طبائع العمران.

الأسباب المهمة لضعف اللغة العربية

ومن الأسباب التي أدت إلى ضعف اللغة العربية والشعر خاصة في مرحلة ما قبل مدرسة الإحياء والبعث:

1. جعل اللغة التركية لغة رسمية بدلا من العربية، وهو ما يسمى التتريك.
2. إلغاء ديوان الإنشاء
3. عدم تشجيع المماليك والأتراك للشعر لعدم فهمهم له.
4. ضعف مركز مصر السياسي بعدما أصبحت ولاية عثمانية
5. انتشار الجهل والفقر والاستبداد
6. حرمان مصر والبلاد العربية من مصادر ثقافتها وتعليمها وذلك بغلق المدارس ونقل الكتب والعلماء إلى تركيا.

ونتيجة لذلك صار الأدب كالجسم الهامد وأصبح في حاجة إلى بعثه من جديد.

Unit X

عهد النهضة

نظرة عامة

ما زال ازمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب: وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل، فارفض عنها الوهن وسرت فيها الحياة، ففي مصر كان ملاذها وغيائها، وفي مصر كان بقاؤها وانبغائها!.

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكما، وتحت سيطرة المماليك فعلا، وكانت الأهواء المختلفة، والقوى المتضاربة، والأجناس المتباينة، تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشت فيهم الأمية. واستولى عليهم الجهل واتحت عليهم الأوباء والسنون. واستغلهم الظلم واستبدهم الحكام. ووقفوا عن السير بأنفسهم، وتحرق الفلك، فغزاهم على هذه الحال الأليمة نابليون.

غزا نابليون مصر سنة 1798م، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهتها الأدبية. فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد لم تصدها القلاقل والحر عن غرس بذور الحضارة في مصر، فانشؤوا مدرستين وجريدتين ومسرحا للتمثيل، ومجمعا علميا، ومكتبة، ومطبعة، ومعامل كيميائية ومراصد فلكية، وسهلوا للناس النظر فيها، والوقوف عليها. فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقبس الوضاء سطع في ذلك الغيهب الذي احلولك في سماء مصر فبدده واستطاع الناس أن ينظروا، ولكن ماذا رأوا؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر، وأن الغر واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة، مجد في تذليل المادة، فبهتوا ودهشوا.

ولكن محمد على رأس الأسرة الخديوية لم يدهش، بل علم أن ما في الغر من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم. وهو أكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم. وكان في نفسه الطموح إلى الملك، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له. فأخذ في تعليم المصريين وقد عز فيهم القارئ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقرى وساق الناس إليها قسرا. واستقدم طائفة من علماء فرنسا

للتدريس والتأليف. كالدكتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية، وجومار بك مدير العثة المرية. وبعث بمن انجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة 1826 ليستفيدوا ويستزيدوا. فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا في الترجمة والتعليم. ثم توالت البعوث بعد هؤلاء إلى أوربا وكلهم من الأزهر الشريف. وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط. وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة، وأقيمت المطبعة المصرية على انقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم. وأنشئت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق، فكان ذلك كله وقوجا جزلا للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي، فذكا واشتعل، وامتد لهيبه إلى الشام وإلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدود الظلام. وحذا الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر، وأعانه على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع، وتأليفهم الكتب، وإصدارهم المجلات، وتعليمهم التمثيل، واعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم، فترجمت الكتب العلمية، ونشرت المؤلفات العربية، ود في اللغة دبيب الحياة، إلا أن آدابها وعلومها لم تزل في يد العفاء، لأن محمدا عليا كان مصروف الهم إلى ما يعوزه، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية، قانقا من كتابه وعماله باللسان العامي، والأسلوب الاصطلاحي. فكانت لغة ادواوين في عهده وعهد أخلافه خليطا مبهما معجما من التركية والعربية.

على أن اللغة المصرية لم تعدم في ذلك العصر أنصارا. فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار، وبطرس كرامة، والسيد علي الدرويش، ورفاعة بك الطهطاوي، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها.

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويدا حتى ولي الأمر عباس ثم سعيد، فخبا أوارها، ووقف تيارها، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم. فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة 1863م فتح ما أغلق من المعاهد وزاد عليها. فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب، وعاد إلى إرسال البعوث إلى أوربا، وأسس نظارة وعهد إليها أمر التعليم، وأنشأ المكتبة الخديوية، وبنى مدرسة المعلمين، وبسط يده للمؤلفين ونشر ألوية المدينة والسكينة على ربوع البلاد، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة، وفيهم العلماء والأدباء، فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين، وكثرة المطابع، ووفرة المدارس، وانتشار الصحافة، واقتباس التمثيل، وترجمة

العلوم، والأندية الأدبية، والمجامع العلمية، وتعلم اللغات الأجنبية، ونقل الحضارة الأوربية، والحرية الشخصية، كان كل أولئك سببا في خصب اقرائح، وسعة المدارك، ونهوض اللغة، وحياة الأدب.

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة 1882م وكل شيء يتحفز للنهوض، ويتوثب إلى الرقي، فكأنما صببت ماء على نار، أو أقمت سدا في تيار. كانت الحركة العلمية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق، والمدارس وافرة العدد، واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان يقطعون أسباب النهضة، ويسيرون بالعليم إلى وجهة أخرى فأغفلوا البعوث، وأغلقوا مدرسة الألسن، وأبطلوا المجانية، وأهملوا اللغة العربية، وجعلوا العليم كله بالإنجليزية، وقصروه على تخريج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب.

ولكن الدولة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجليها، وأن تمسح عينيها بيديها، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم. فهب رجالها يطلبون سيادة لغتهم في بلادهم، ويقومون هم بتعليم أولادهم، فعادت اللغة إلى المدارس، ورجعت البعوث إلى أوربا، وكثرت المدراس الأهلية والأميرية. وشبت ثورة الاستقلال في وجه الاحتلال سنة 1919م وردد العام العربي صداها، فايقظت ما بقي من شعور خامد، ودفعت النوس الخائعة إلى طلب الحرية في الحكم، والرأي، والقول، والعقيدة حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة 1923م.

ثم نابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نال قسطا آخر بمعاهدة سنة 1936. ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام 1945 طلبت مصر من إنجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحاديث طويلة لم تؤد إلى اتفاق، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديد على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل. وعارضت إنجلترا في الأساس الأول فالتجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية. فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا، وتولى عرضها رئيس حكومتها، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي، قطع لسان الباطل بالحق، وفند دعاوي الإنجليز بالحجج الجيش المصري بقيادة الضباط الأحرار في 23 يوليو من سنة 1952 فعصفت بالفساد والاستبداد، وطهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغنى، فطردت فاروقا ثم اعلنت الجمهورية، وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر، وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية.

وفي شهر فبراير من عام 1958 اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة لم يقدر لها ان تعيش طويلا. ثم انتهت ثورة الجزائر على فرنسا بالاستقلال والجمهورية. وفي الرابع عشر من يوليو من سنة 1958 ثار العراق على الملكية وأعلن الجمهورية. ولا تزال فلسطين وتتطلب الغاية من هذه السبيل، وتترقت الإصباح بعد الليل المظلم الطويل.

عوامل النهضة ومظاهرها

كان من آثار الاحتلال الفرنسي ، ونزعة الاسنقلال عند محمد عليه ، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها تلك الومضات هي الوسائل التي تذرع بها رأس الأسرة العلوية ووراثه على عرش مصر إلي ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر ، وأهم تلك الوسائل :

المدارس

لم يجد محمد علي فيما يعلم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة ، ووصل بينها وبين أوربا بجلب العلماء منها وبعث البعوث إليها . فلما تعددت درجاتها وتنوعت أغراضها أنشألها إدارة خاصة في سنة 1839 سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختاربك من رجال البعثة العلمية الأولى . ومن أقوى المدارس الخاصة أثرا في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم . فأما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش 1836 في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى ، استقدم أساتذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك ، واختير طلبتها من المصريين وغيرهم. ثم نقلت في سنة 1838 إلى قصر العيني بالقاهرة. وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة . لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم. باللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة العربية ، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة .

وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية. وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاعة بك الطهطاوي. حتى إذا خرجت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة 1842 برياسة رفاعة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة.

وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم على مبارك باشا في سنة 1871م بأمر الخديو إسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة. وكان أساتذتها من نابغي شيوخ الأزهر، وتلاميذها من متقدمي طلابه. ولهذه المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على السنة خريجيها وأقلامهم في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة. وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدي رسالتها حتى الحقت بجامعة القاهرة سنة 1946 وسميت كلية دار العلوم.

الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم. بناء جوهر الصقلي بعدما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوبة من طريق الدين. وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم اكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى جاء يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله، وهو يهودي قد أسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع. ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرؤون بعد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون في سبيل الوعظ، ويميلون إلى شيء من البحث، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو، ويعقدون فيه مجالس المناظرة، حتى دالت دولة الفاطميين، وغلب على مصر زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة 567 هـ وهو من أهل السنة قبابع العباسيين، وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر. وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة لأنه مذهب الخلفاء في بغداد. ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المسلمين كافة فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه. وجر ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية، والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية. وزها الأزهر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر، فحفظ اللغة من الزوال، وعلومها من الاضمحلال، وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي، لا يخرج عالم إلا منه، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه. حتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم، باق على مذهبه الموروث. ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة نابليون في تنظيم عمله، وساعد محمد علي في تحقيق أمله، وموئل اللغة والدين والآداب من عصف المحن وطغيان الجهالة وتغلب الأمية. ولكن مصر هبت من رقادها، ولم تجد الأزهر كما كان كفؤا لقيادتها وإرشادها. فولت وجهها شطر الغرب تكرع من حياضه. وتقطف من رياضه، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعليم الجديد والتعليم القديم، وانتشرت في مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداهما الأخرى. ثقافة قائمة على الكتب القديمة والطرق العقيمة، وثقافة مبنية على العلم الغربي والتعليم الحديث، فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشارك في النهضة العامة. بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الإنبابي

سنة 1305 فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأي ومشقة وفتوى شرعية. ثم تصدى الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه، فوضع الأساس، وحال الأزهريون بينه وبين البناء. ولكن السيل جارف والتيار قوي فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله، فالقوا السلاح، وقبلوا الإصلاح، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسية وأخرى دنيوية. فآثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن.

حتى جاءت ثورة 23 يوليو من سنة 1952 فرأى القائمون بها أن العالم لا يصلح إلا بالدين، وأن الدين لا يصلح إلا بالأزهر وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر. نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة تنشأ من قواه، وتقوم على مزاياه، وتتغلغل في أصوله. فأصدروا قانونا جديدا للأزهر جعل الجامع جامعة، والدين سبيلا، والعلم دليلا، والعلماء قادة. ثم أتاحوا له – بما أضافوا إلى كلياته الإسلامية والعربية كليات مدنية أخرى للمعاملات والإدارة والهندسة والزراعة والطب – أن يسند بيد الله أيدي العاملين في بناء المجتمع الصالح، ويشارك بتقوى الله في تفريج أزمة الضمير، فيخرج العالم الذي يجعل فقهه رسالة ومن بيانه دعوة، والطبيب الذي يجعل من عيادته عبادة ومن مرضاه أخروة، والمهندس الذي يجعل من عمله جهادا ومن خلقه قدوة، والموظف الذي يؤثر رضا ربه على رضا نفسه في كل نزعة أو نزوة، وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة متفصلة عن الأزهر. وتمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والمغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والإندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية، ولهؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأغراب الغذاء والمأوى.

الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدا من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة، وقصره على تخريج الموظفين للحكومة، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا هم بتعليم أولادهم، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزنا في بلادهم، فاجتمعت طائفة منهم سنة 1906 على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم، وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير، فلبي المحسنون النداء وفي طليعتهم الأميرة فاطمة بنت إسماعيل. وفي سنة 1908 افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رياسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوي على عرش مصر. فاستقدم إليها طائفة من علماء أوربا، واختار لها صفوة من أدباء مصر، فألقوا على طلبتها من الأزهريين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة. وكان من بين العلماء الأوربيين المستشرقون جويدي وتلينو ولتمان فنهجوا لدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح.

وفي سنة 1925 تولتها وزارة المعارف فشادت الأبنية العظيمة، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الأسنان، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب، ثم سميت بجامعة القاهرة. ولما اشتدت الرغبة في العليم وازداد عدد الطلاب انشئت في الإسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الإسكندرية وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت بجامعة عين شمس. وفي أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط. ومما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع وجامعة الأزهر وجامعة دمشق قد آتين ثمار العلم، ونشرن أضواء الثقافة، ووصلن الماضي بالحاضر، وربطن الشرق بالغرب، وقرن العلم بالعمل، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة.

الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف حنا جوتمبرج الألماني سنة 1440، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان. وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوربا حتى صيفت منها قوالب اللغات الشرقية. وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة 1514م وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيما العرية تزداد شيئا فشيئا حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوربية. وكان منها المؤلفات الجليلة كالعهدين القديم والجديد، ونزهة المشتاق للإدريسي. وقانون ابن سينا، وتحرير أصول إقليدس. وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن. ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الآستانة 1490 على يد عالم يهودي طبع بها مؤلفات دينية وعلمية، ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة 1708م. ومن أشهر المطابع العربية في الآستانة مطبعة الجوائب لأحمد فارس الشدياق، طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية. أما في البلاد العربية فكان السبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية، فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت في أوائل القرن السابع عشر، ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة 1848، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة، وطبع الكتب الأدبية والعلمية، وإتقان فن الطباعة العربية، ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة 1798م، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها المطبعة الأهلية ثم ذهبت معه. وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية سنة 1821. وعهد بإدارتها إلى نقولا مسابكي السوري، وصبت حروفها على أجمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة. ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر، وقد طبعت أمثات الكتب الأدبية بفضل الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية. ومنذ يومئذ اقتصرت مطبعة بولاق على طبع والكتب المدرسية والأعمال الحكومية، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم. ثم انتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت سبل الأدب وأدنت قطوف العلم، وساعدت على انتشار القراءة.

الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان، ليست محصورة بين جدران، ولا يختص بها مكان دون مكان. وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم: تهذب عقول العامة، وترتب أفكار الخاصة، وتنهض الهمم القاعدة، وتصلح الألسنة الفاسدة، وتقرب الأمم المباعدة. وهي سجل الأخبار، ووعاء التاريخ، وتقويم الزمن وأول جريدة عربية بالمعنى الفني المعروف هي الوقائع المصرية، أنشأها الأمير محمد علي سنة 1828 بمعاونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوي، وكانت تصدر أولا بالتركية والعربية، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك، والإمام محمد عبده، والشيخ عبد الكريم سلمان، وسعد زغلول. ولا تزال تصدر عن القاهرة، ثلاث مرات في الأسبوع. ثم ظهر بعد ذلك في الشام جريدة مرآة الأحوال سنة 1855م وهي سياسية يحررها رزق الله حسون الحلبي، وحديقة الأخبار سنة 1858م لصاحبها خليل الخوري، والجوائب في الآستانة سنة 1860 لأحمد فارس الشدياق، وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة 1861م.

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم. وفي سنة 1866 ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود أفندي، كانت تصدر مرتين في الأسبوع بالقاهرة. وفي سنة 1869 أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاها الخديو إسماعيل. وفي سنة 1870م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوي المكانة في العلم والأدب. ثم صدرت الأهرام سنة 1879م وسياستها عثمانية فرنسية، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية، والوطن سنة 1877م وهي جريدة طائفية احتلالية. وعلى منهاجها سارت جريدة مصر، والمحروسة لصاحبها أديب إسحق سنة 1880. وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة 1888م وهي احتلالية. والمؤيد وهي إسلامية خديوية. واللواء وهي إسلامية وطنية. والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية. وتلك هي كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة. وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء، وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالرسالة والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير، وشهرية كالمقتطف والهلال والكتاب ومجلة الأزهر والمجلة في مصر، والأديب والآداب في بيروت، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة

المجمع العلمي العربي في دمشق، وأكثر المجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجب لقلة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء: والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل. ومما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقي التحرير والترجمة إنما كان للبنانيين، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوربية، وخلاطهم للأمم الغربية.

التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي. وكان البنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه، لتخرجهم في المدارس الأجنبية، ودراستهم للآدا الإفرنجية. وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفي سنة 1855 فقد مثل أول رواية عربية سنة 1840م. ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية شجع الأدباء، وعضد العلماء، وساعد الفنانيين. وتم حفر قناة السويس في عهده فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور، ورأى من كرم الضيافة الا يحرم ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر، فابتني دار الأبرا الخديوية واستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية بالفرنسية. وورد مصر في أثر ذلك جماعة من أدباء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق، فمثلوا في الإسكندرية بضع روايات على مسرح زيزنيا سنة 1871م ففشلوا، وتخلوا عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط، فقدم القاهرة واتصل بإسماعيل ففتح له الأبرا وشهد أولى رواياته، وكانت رواية، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم إلى وطنهم. وأقفلت الأبرا في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة سليمان القرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي.

ولم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبيا: وإنما كان حكوميا أرستقراطيا لا يحضره إلا الأمراء والحكام، فلما بنى اسكندر فرج مسرحه في شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازي أصبح للجمهور. وكان التمثيل حينئذ بعيدا عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يعتمد على قاعدة، وإنما كان أساسه الغناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدهماء، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة. وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديو عباس حلمي، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب. إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وقلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفني. وظل التمثيل بعد ذلك يرسب ويطفو تبعا للحوادث والظروف. على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس، فقد أنشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهدا للتمثيل وألفت فرقة حكومية وفرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوي في إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور.

المجامع الأدبية

كان إخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الدول العربية إلى إنشاء المجامع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم، كما كان اللبنانيون أسبقها إلى الترجمة والصحافة والتمثيل، فقد أنشئ المجمع العلمي العربي بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة 1916م بعد دخول سوريا في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد علي وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذاك تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية، وتلقين أصول البحث والدرس لنبهاء الدارسين. وقد عني هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الألفاظ في المصطلحات العلمية الحديثة، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية، وقوم ما أمكن لغة الدواوين، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء، وعاون عدة من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله، ضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء المشرقيات في أوربا. وأصدر مجلة لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن اتحدت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حينا من الدهر أصبح مجمع دمشق ومجمع القاهرة مجمعا واحدا له مؤتمر سنوي واحد.

نثر النهضة الحديثة

خرج النثر من عهد الانحطاط واهي القوى، مفكك العرى، يدور في حلقة ضيقة من اللاشيء المعنهوي والفني، ويزدهي بأنه رافل في أردية فضفاضة من الزخرفة والألاعيب اللفظية التي لجأ إليها الكتاب يسرون بها الضعف والجمود. وقد تكاثر الزجل، وعم اللحن، فراح عمال النهضة يعالجون اللغة والأساليب الكتابية، يريدون إرجاعها إلى سابق صفائها، وراحوا يعالجون الكتب الدراسية، والصحافة، وكل ما من شأنه أن يرتقي بالجيل الجديد. وراحوا يكتبون المقامات على مذهب الحريري، وينشئون الرسائل على مذهب الصابي وابن العميد، وراحوا بعد ذلك يعالجون موضوعات النقد والتاريخ والعلم والاجتماع وما إلى ذلك.

مدارس النثر الحديث

وإن من استقرأ حركة النثر في العهد الحديث وجد ثلاث مدارس: مدرسة المحافظة: ورافع لوائها الشيخ ناصيف اليازجي، فكان همها بعث اللغة والحفاظ على الأسلوب القديم، وقد ناصرها الكثيرون ولا سيما علماء اللغة ومن يهمهم الحرف قبل الروح، والظاهر قبل الباطن، فكانت خطوتهم خطوة تقليد، تتوكأ على الأساليب العباسية، وتتعشق الصياغة والصنعة، وتتغلب فيها فكرة التركيب على الأدب.

وأما مدرسة التجديد فقد بدأت مع أحمد فارس الشدياق بعد أن ضرب في الآفاق، وتجول في البلاد الأوروبية وغيرها، وراح يكتب متوخيا المعاني الجديدة، والأسلوب السه الذي يجري مع الطبع، وراح يعالج الصحافة بأسلوب حديث وتتبع وتحر للدقة والحقيقة. وقد تبعه في مدرسته محررو الصحف من مثل خليل الخوري صاحب حديقة الأخبار وسليم البستاني صاحب الجنان، وأديب إسحق، وأصحاب المقتطف والهلال، والمترجمون الذين نقلوا آثار الغربيين أو اقتبسوا منهم الأساليب، وعملوا في ميدان المسرح والقصة كنجيب الحداد، وسليم النقاش، وفرح انطون، إلا أن تلك المدرسة التجديدية ما عتمت أن أخذت بمذهب التطرف والخروج التام على أساليب العرب، وذلك لإغراق أصحابها في الأخذ بأساليب الغرب، ولاسيما المهاجرون منهم الذين عاشوا في غير بلادهم، ونشأوا على تطلب المعاني والأساليب الغربية، وكان زعيمهم جبران خليل جبران. وقد نزعت مدرسة التجديد نزعة التحرر من كل قيد، وراح كتابها يعتمدون لونا طريفا في ترتيب الكلام وتبويبه، ويقصرون كتابتهم على المعاني ودقتها، وعلى الأساليب الفنية العالمية، لا يتوخون التعبير إلا بعبارة سهلة، خالية من الزينة والسجع وأنواع البديع، تجري مع الطبع ومع مقتضيات كل فن وكل حال، ودخلت اللغة صيغ جديدة وطرق جديدة لأداء معان جديدة، وهكذا تغلب الطبع على نطبع، والفن على التفنن، والجمال على التجميل والتصنيع، ولولا التطرف في هذا التيار التجديدي، ولولا الضعف في صياغة التعبير عند أصحابه، لكانت نتيجته أشهى ثمارا وأنضر أزهارا.

وأما مدرسة الاعتدال فمن أركانها الشيخ محمد عبده والشيخ ابراهمي اليازجي وقد جمعا بين القديم والحديث. وكانت خطوتهما مركزة في أسلوب صحيح وتفكير قويم، في أسلوب يدور على قطب الفكرة، ويواكب الفكرة ليقبر عنها ويكون في خدمتها. والفكرة مستمدة من علم حديث، وعقل مطلع، وثقافة واسعة النطاق.

نزعات النثر الحديث

نزع النثر في هذا العهد نزعات مختلفة منها النزعة الأدبية في الترسل والقصص والأبحاث مع الشيخين ناصيف اليازجي وابنه ابراهيم، ومع أحمد فارس الشدياق وجرجي زيدان وسليمان البستاني وأضاربهم، ومنها النزعة الاجتماعية في إصلاج مفاسد المجتمع، وتحرير المرأة، وتعليم الأحداث، مع قاسم امين وجبران خليل جبران، ومصطفى المنفلوطي، وولي الدين يكن وغيرهم، ومنها النزعة السياسية في تحرير البلاد ومعالجة القضايا الوطنية مع أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول، ومنها النزعة العلمية مع يعقوب صروف ومن حذا حذوه.

شعر النهضة الحديثة

كانت يقظة الشرق عامة منذ ما اتصل بحضارة الغرب، وكان أثرها الأول في الشعر أنها لفتت الأنظار الى ما فيه من ضعف وما وصل إليه من سخافة وركاكة، فراح رواد النهضة يستقون من ينابيع الشعر العباسي ويطبعون على غراره، وقد راقهم أسلوب أبي تمام البحتري والمتنبي، فتدارسوا آثارهم وحفظوا أشعارهم، ومالوا الى المدح والرثاء والى كل ما هو من أدب المناسبات، وهكذا تقيدوا بالموضوعات القديمة، وحرصوا على الدقة في التعبير، والمتانة اللغوية، والتوفر على المعاني، والصفاء الشعري، واستقامة النظم، وإن لم يتخلصو تمام التخلص من بعض مخلفات الانحطاط كالتخميس، والتواريخ الشعرية، والألاعيب البديعية والنحوية، وهكذا نجح أولئك الشعراء في التقليد وأخفقوا في ناحية الابتكار وجعل صلة بين شعرهم ونفسهم وبيئتهم. وكان من هذه الفئة الأولى نقولا الترك وبطرس كرامة في لبنان، واسماعيل الخشاب، وحسن العطار، وعلى الدرويش في مصر، وأمين الجندي في سورية.

ولم تمض مدة من الزمن حتى تنبه الشعراء الى ان الشعر هو تعبير عن الشعور الذاتي والجماعي، فراحوا يعالجونه على هذه الطريقة ولكنهم ثبتوا على تقدير القديم فأرادوا شعرهم على أساس الشعر العربي القديم، وهكذا دعتهم آداب الغرب الى التجديد في الموضوعات والأخيلة، ودعاهم الأدب العربي القديم الى التقليد في الأسلوب والمتانة التعبيرية، والاحتفاظ بالوزن الواحد والقافية الواحدة في القصيدة الواحدة، وإن جنحوا الى الإكثار من استعمال ما لان وخف من الأوزان والقوافي. وهكذا وقفوا موقفا وسطا، وبقي تجديدهم ضيق النطاق لم يعبر عن فلسفة أو عقيدة أو حب للطبيعة إلا في ما ندر، ولم ينشر مذهبا جديدا في الأدب. وكان شعرهم في الأغلب شعر مناسبات تجمع قصائده في ديوان من غير وحدة أو غاية مشتركة، ومن شعراء هذه الفئة أحمد شوقي، ومعروف الرصافي، وحافظ ابراهيم.

الشعر الجديد

واشتد اتصال الشرق بالغرب وبالشعوب الامريكية المتحررة، ولا سيما بعد الحرب العالمية الاولى، فراح الأدباء في الوطن والمهاجر ينادون بهجر الأساليب العربية، وبالثورة على كل ما هو عربي قديم، وبالاقتداء بأدب الغرب وطرق أدائه. ولم تكن ثورتهم كثورة رواد الأدب العباسي بل كانت اندفاقا شبه كامل على الأجنبي من المعنى والخيال والعاطفة والتعبير. ومن ثم فقد كان نطاق عملهم شديد الاتساع، وكان لكل شاعر شرقي مثال من شعراء الغرب ينسج على منواله، ولكل مدرسة غربية في الشعر تمثيل في البلاد العربية، وإذا عندنا تيارات مختلفة النزعات، متباينة الأهداف، يسير كل تيار منها على طريق، منها التيار الرومنطيقي، والتيار الواقعي، والتيار الرمزي.

أما التيار الرومنطيقي الأبتداعي فقد انتثق عندنا من ويلات الحرب ومن الاستبداد الحميدي، ثم من الضيقة الاقتصادية والاجتماعية، فسادت فيه العاطفة المتألمة، والنظر المتشائم الى الكون، وراح يتطلب الألوان الزاهية الراقة، والأحداث الشديدة التأثير في القلب والنفس، ومال الى التحدث عن خوالج النفس، ومناجاة الطبيعة، والإقضاء إليها بما في الصدر من آلام. وقد اتسعت أعمال كثير من أدبائنا بهذا اللون الابتداعي، وطبعت بطابع الذاتية والفردية والتأملية والروح الغيبي والصوفي، والميل الى الرضى بالبؤس والواقع الزري، وعدم التعقل، والكآبة ونداء الموت، بل الفزع إلى الانتحار في بعض الأحايين... وقد تجلت مظاهر هذا المذهب الابتداعي في مظهرين بارزين: الرجوع الى الماضي وذكرياته، واتخاذه مثلا أعلى، واللواذ الى الطبيعة والاتصال بها بل الاندماج ليها. وهذان المظهران ثمرة من ثمار فساد المدن، هذا الفساد الذي جعل الأدباء الحساسين يذهبون الى الماضي حينا، والى الريف والطبيعة حينا آخر، أو يتناولون الموضوعات التافهة التي لا صلة لها بالحياة. وكان زعيم التيار الابتداعي عند العر في العهد الحديث خليل مطران صاحب المساء والأسد الباكي. ولم يكد يسلم شاعر في هذا العهد من التأثير الرومنطيقي، حتى إذا كان اتباعيا كالبارودي وشوقي وحافظ ابراهيم.

وهكذا حفل الشرق في ربع القرن الأخير بشعراء الابتداعية، في مصر ولبنان وسورية والعراق والمهاجر. وتجلت في آثارهم الرومنطيقية، وإذا هنالك هرب من الواقع وطيران في دنيا الخيال مع الشاعر المصري محمد عب المعطي الهمشري في ملحمته شاطىء الأعراف، ومع الشاعر اللبناني فوزي المعلوف في ملحمته بساط الريح وإذا هنالك حنين الى الماضي وذكرياته مع الشاعر المهجري رشيد أيوب، وإذا هنالك شعر في الطبيعة مجنح الخيال مع الشاعر المهجري شكر الله الجر صاحب هيكل الطبيعة، وإذا هنالك فرار من الحياة وطيران في دنيا الوهم مع الشاعر سيد قطب صاحب الى الشاطئ المجهول.

والذي تلحظه في هذا التيار الابتداعي ما هنالك من نزعة انطوائية ذاتية تظهر بجلاء في شعر محمد منير رمزي، وفي غزليات أمين نخلة، وفي أنات خليل شيبوب وفايد العمروسي ومحمد فهمي وحسن كامل الصيرفي وأبي القاسم الشابي وغيرهم، وما هنالك من نزعة جنسية، وطلب اللذات المصاحبة للآلام، وانحراف مريض في الخواطر كما نجد ذلك في شعر عمر أبي ريشة، ونزار قباني، وكامل أمين وغيرهم.

وأما التيار الواقعي فهو الذي قام في وجه الرومنطيقية الواهمة، وأراد أن يتوجه الى الحياة كما هي، ويتحسس ما فيها، ويعالج قضاياها. وقد لمسنا هذا التيار عند بعض شعراء الاتباع وشعراء الابتداع، إلا أنه ما عتم أن انتشر انتشارا عظيما ولاسيما بعد أن تبلور الوعي الباطني والاجتماعي والإنساني، وقد تناول الناحية القومية او الاجتماعية، كما تناول الناحية الإنسانية. واشتهر في هذا الباب الياس قنصل وغيره.

قال مصطفى عبد اللطيف السحرتي: وهذا الاتجاه الواقعي إن دل على شيء فأول ما يدل عليه هو شعور شعراء الشرق بوجوب الخروج من حياة الانكماش والعزلة، وحمل حظ من المسؤولية الاجتماعية. ولا بد أن يصاحب هذا الشعور تجاوب حقيقي مع الأحداث الاجتماعية، وفهم واسع لها والإعراب عن هذه الأحداث في قوة وجمال، ولن يجود هذا الشعر إذا لم يتحدث الشاعر عن شعور دقاف وتجربة حقة دون التحدث بما يتخيله عن الناس أو عن آرائهم، أو أن يعبر عما يسطر في الصحافة أو يدور على المنابر.

وأما التيار الرمزي فكان مذهبه التعبير عن الأمور بالتلميح لا بالمصارحة ولا بطرق البيان المعهودة، واعتبار الشعر موسيقي توحي بالمعاني. وقد عني بالألفاظ الشفافة ذات الجرس الموسيقي، وانحاز الى الغموض والتعقيد. وهكذا خالف التيار الرمزي سنة الشعر المألوف في موضوعه وفي صياغته، وكان ازدهاره في أواخر القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين. ومن نوادر الشعراء الشرقيين الذين اتبعوا الطريقة الرمزية اسلوبا وموضوعا بشر فارس.

ومن شعراء الشرق الذين تأثروا بالرمزية تأثرا جزئيا الصيرفي في مصر، ونزار قباني في سورية، وصلاح الأسير في لبنان، وقد قصروا رمزيتهم على الترنيم الموسيقي الآسر، وسعيد عقل وأمين نخلة وميشال بشير وقد قصروا رمزيتهم على التعبير أو الصورة، وسليم حيدر وإيليا أبو ماضي وأحمد زكي أبو شادي وقد بثوا الرمزية في موضوعهم أو تجربتهم مع الإبقاء على الصياغة المألوفة.

وهكذا شاعت الرمزية عند طائفة من شعرائنا وتناولت، أكثر ما تناولت، ناحية الصور والكلمات والجرس الموسيقي، ومن طريف ما استعملوه قولهم مثلا: رغبة مبحوحة أي غير معبر عنها، والانقتاق الأزرق أي انطلاق في الأجواء العالية عند الغروب، والوشوشة السخية الظلال، أي الهمسات اللينة التي تتفيا نفس الشاعر ظلالها...

وإن من تأمل هذا النوع من الشعر وجد فيه توجيها جديدا رائعا، وانفلاتا من القيود، وانطلاقا في عالم رحب الآفاق. ولولا ما فيه من الغموض الشاذ أحيانا لعددناه أجمل ثمرة من ثمار النهضة الحديثة. وهكذا جرى الشعر، وهكذا تقدم في مجالات الفن والجمال، وكان حدثا عظيما في تاريخ أدبنا الحديث.

Unit XI

المدارس الأدبية الحديثة

الديوان في الأدب والنقد

مدرسة الديوان هي حركة تجديدية في الشعر العربي ظهرت فيالنصف الأول من القرن العشرين على يد عباس محمود العقاد وإبراهيم المازني وعبد الرحمن شكري. سميت بهذا الاسم نسبة إلى كتاب ألفه العقاد والمازني وضعا فيه مبادئ مدرستهم واسمه "الديوان في الأدب والنقد". حُددت أهداف المدرسة كما يقول العقاد في الديوان: وأوجز ما نصف به عملنا إن أفلحنا فيه أنه إقامة حد بين عهدين لم يبق مال يسوغ اتصالهما والاختلاط بينهما، وأقرب ما نميز به مذهبنا أنه مذهب إنساني مصري عربي .

النشأة

تكونت من الشعراء الثلاثة (العقاد، المازني، شكري)، الذين كانوا متأثرين بالرومانسية في الأدب الإنجليزي، ولديهم اعتزاز شديد بالثقافة العربية. وسميت مدرسة الديوان بهذا الاسم نسبة إلى كتابهم (الديوان في الأدب والنقد) الذي أصدره العقاد والمازني سنة 1921 فسمى الثلاثة (جماعة الديوان، أو شعراء الديوان، أو مدرسة الديوان)، والواقع أن آرائهم الشعرية قد ظهرت قبل ذلك منذ عام 1909، وقد نظر هؤلاء إلى الشعر نظرةً تختلف عن شعراء مدرسة الإحياء، فعبروا عن ذواتهم وعواطفهم، وما ساد عصرهم، ودعوا إلى التحرر من الاستعمار وتحمُّل المسئولية، فهاجموا الإحيائيين، وفي مقدمتهم (شوقي وحافظ والرافعي). وكان يبدع في الرسم الهندسي

اتجاهها

اتجه رواد هذه المدرسة إلى التجديد عندما وجدوا أنفسهم يمثلون الشباب العربي وهو يمر بأزمة فرضها الاستعمار علي الوطن العربي الذي نشر الفوضى والجهل بين أبنائه في محاولة منه لتحطيم الشخصية العربية الإسلامية. عندئذ تصادمت آمالهم الجميلة مع الواقع الأليم الذي لا يستطيعون تغييره فحدث ما يلي لهم :

- الهروب من عالم الواقع إلى عالم الأحلام.
- الفرار إلى الطبيعة ليبثوا لها آمالهم الضائعة.
- التأمل في الكون والتعمق في أسرار الوجود.

وكان يهتم بلمواضيع الفدائيه والقصائد التي تمثل فيها

الفرق بين مدرسة الديوان والمدرسة الكلاسيكية

مدرسة الديوان - مدرسة الإحياء الكلاسيكية:

- عدم الالتزام بالوزن والقافية - الالتزام بالوزن والقافية.
- عدم الإسراف في استخدام الصور والمحسنات - يستمدون الصور غالباً من القديم.
- يستمدون الصور من بيئتهم الجديدة - المغالاة في استخدام الصور والمحسنات.
- يستخدمون لغة العصر - يستخدمون لغة التراث.
- لا يحاكون القدماء في أغراضهم أو معانيهم - يحاكون القدماء ولذلك كثرت المعارضات في شعرهم.
- الوحدة العضوية - وحدة البيت الشعري.

الخصائص الفنية لجماعة الديوان

- الجمع بين الثقافة العربية والإنجليزية.
- التطلع إلى المثل العليا والطموح.
- الشعر عندهم تعبير عن النفس الإنسانية وما يتصل بها من التأملات الفكرية والفلسفية.
- وضوح الجانب الفكري عندهم مما جعل الفكر يطغي علي العاطفة.
- التأمل في الكون والتعمق في أسرار الوجود.
- القصيدة عندهم كائن حي كالجسم لكل عضو وظيفته.
- الوحدة العضوية المتمثلة في وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسي.
- الصدق في التعبير والبعد عن المبالغات.
- استخدام لغة العصر.
- ظهور مسحة من الحزن والألم والتشاؤم واليأس في شعرهم.
- عدم الاهتمام بوحدة الوزن والقافية منعاً للملل والدعوة إلى الشعر المرسل
- الاهتمام بوضع عنوان للقصيدة ووضع عنوان للديوان ليدل علي الإطار العام لمحتواها.
- التجديد في الموضوعات غير المألوفة مثل (رجل المرور/ الكواء).
- استخدام طريقة الحكاية في عرض الأفكار والآمال.

مفهوم الشعر عند جماعة الديوان

مفهوم الشعر عند جماعة الديوان أن الشعر تعبير عن الحياة كما يحسها الشاعر من خلال وجدانه ؛ فليس منه شعر المناسبات والمجاملات، ولا شعر الوصف الخالي من الشعور، ولا شعر الذين ينظرون إلى الخلف ويعيشون في ظلال القديم، ويعارضون القدماء عجزا عن التجديد والابتكار، بينما الشعر الجيد هو ذلك الذي يقوله هؤلاء الشبان الذين ينظرون إلى الأمام معبرين عن ذواتهم وعواطفهم، وما يسود عصرهم من أحداث ومشكلات.

ويميل شعرهم إلى الجفاف بسبب طغيان (زيادة) الجانب الفكري عندهم علي الجانب العاطفي.

القصيدة كائن حي

شاع في تعبير جماعة الديوان أن القصيدة كائن حي، وهم يقصدون بذلك الوحدة العضوية المتمثلة في وحدة الموضوع، ووحدة الجو النفسي ؛ بحيث لا يكون البيت وحدة القصيدة، بل هي وحدة متماسكة في موضوع واحد، فلا تتعدد الأغراض، ولا تتنافى الأجزاء، بل تأتلف (تتجمع) تحت عنوان للقصيدة، فلا يجوز حذف بيت منها أو نقله من موضعه ؛ لأن ذلك يخل بها.

موقف كل من الإحيائيين وجماعة الديوان من "الوحدة العضوية للقصيدة"

مدرسة الإحياء يعتبرون البيت وحدة القصيدة، وذلك يجعلها مفككة غير مترابطة ؛ لأنهم يتابعون القدماء في تعدد أغراض القصيدة من البدء بالغزل والوصف والمدح والحكمة، ولذلك يمكن حذف بعض الأبيات أو نقلها من مكانها إلى مكان آخر، أما شعراء مدرسة الديوان فيدعون إلى الوحدة العضوية، بحيث تدور القصيدة حول موضوع واحد مع ملاءمة الألفاظ والصور للجو النفسي. والحالي

رأي شعراء الديوان رأي في شعر المناسبات

يرى شعراء الديوان أن شعر المناسبات يسمى نظما وليس شعرا؛ لأنه يفتقد صدق الشعور، ويرد على ذلك بأن بعض القصائد التي تقال في المناسبات قد تكون نابعة من تجربة صادقة، وفيها وحدة عضوية حتى إن العقاد الذي يعيب شعر المناسبات، له قصائد في المدح والغزل والرثاء؛ فقد رثى محمود النقراشي بعد مصرعه، ورثى الأديبة مي زيادة في ذكرى الأربعين لوفاتها.

الرابطة القلمية

الرابطة القلمية هي جمعية أدبية عربية-أمريكية أسسها جماعة من الأدباء العرب المهاجرين في أمريكا. أحدثت تغييرا في الكتابة الأدبية على صعيدي الشكل والمضمون، وبعض مؤسسيها حازوا شهرة عالمية، وخاصة عميدها جبران خليل جبران.

تاريخها

بدأت فكرة الرابطة عام 1916 إلا أنها تأسست رسميا عام 1920 في نيويورك على يد نخبة من الأدباء. في كتابه "جبران ـ حياته، موته، ادبه، فنه" ذكر ميخائيل نعيمة أن الرابطة "تأسست بعد جلستين، عُقدت أولاهما في منزل عبد المسيح حداد، مالك ورئيس تحرير جريدة "السائح" النيويوركية العربية، بتاريخ 20 أبريل (نيسان) 1920". وورد في محضر هذه الجلسة التي دونها نعيمة بيده على حد تأكيده، أن "أحدهم رأى أن تكون لأدباء المهجر رابطة تضم قواهم وتوحد مسعاهم في سبيل اللغة العربية وآدابها. فلاقت الفكرة استحسان كل الأدباء الحاضرين وهم: جبران، نسيب عريضة، وليم كاتسفليس، رشيد أيوب، عبد المسيح حداد، ندرة حداد، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي... وفي 28 منه، عقدت الجلسة الثانية والحاسمة في منزل جبران بحضور الأدباء، الذين حضروا الجلسة التمهيدية، إضافة إلى الأديب الفكه الياس عطا الله. تمت الموافقة على دستور الجمعية، وانتخب المؤسسون جبران عميدا للرابطة، وميخائيل نعيمة مستشارا، ووليم كاتسفليس خازنا، وكلفوا نعيمة مهمة تنظيم قانونها".

تفككت بمجرد موت جبران سنة 1932.

إنجازاتها

تميز إنتاجهم الأدبي بالتأمل في الحياة وأسرار الوجود والتعمق في فهم النفس الإنسانية واتساع النظرة إلى المجتمع البشري، والتعلق بالوطن العربي، والاتجاه إلى الرمز في التعبير. وقام أعضاءها بنشر الجرائد والصحف العربية في بلاد المهجر ومنها:

- مجلة "الفنون" وتعنى بالأدب وناشرها كان نسيب العريضي.
- جريدة "السائح" وتعنى بشؤون المهاجرين وناشرها كان عبد المسيح حداد.
- مجلة "السمير" وناشرها كان إيليا أبو ماضي وتعنى بشؤون العرب في أمريكا. كانت تصدر 5 مرات في الأسبوع وتوقفت عام 1957 بعد وفاة المؤسسين.

العصبة الأندلسية

العصبة الأندلسية ألفها ميشال المعلوف مع نخبة من أدباء المهجر، عام 1933. وتولي رئاستها بعد أن تعاقب عليها خاله ميشال والشاعر المهجري إلياس فرحات. فكانت مجلة العصبة متنفساً لأصحابها ولكتاب الجالية العربية في البرازيل. كما تولى رئاسة تحرير مجلة العصبة حبيب مسعود أديب العصبة. وتولى شفيق المعلوف كذلك رئاسة المنتدى الزحلي في ساو پاولو، وإدارة شركة صناعة حرير معلوف.

كان صاحب الفكرة في تأسيسها أصلاً المرحوم شكر الله الجر، فنفذها الشاعر اللبناني المهاجر ميشال المعلوف ، ودعمها بالبذل السخي والرعاية الكريمة.

من أعضائها البارزين: شكر الله الجر، رشيد الخوري، نظير زيتون، جورج معلوف ، توفيق قربان ، إسكندر كرباج، إلياس فرحات، عقل الجر (شقيق شكر الله)، حبيب مسعود، أنيس الراسي ، جرجس كَرَم ، نجيب يعقوب، شفيق المعلوف، توفيق ضعون، قيصر الخوري، نصر سمعان، يوسف أسعد غانم، يوسف البعيني وجورج حسون المعلوف.

أصدرت هذه العصبة مجلة راقية باسم " مجلة العصبة " التي تولّى رئاسة تحريرها حبيب مسعود ثم شفيق المعلوف، أما رئاستها فقد آلت تِباعاً إلى ميشال المعلوف فالشاعر القروي، ثم إلى شفيق المعلوف.

وقد قصد من تأسيس هذه العصبة إعادة أمجاد الشعر العربي في ما وراء البحار كما فعل السلف الصالح من قبل. وقد قام شفيق بهذا المطلب الطموح والعبء الثقيل مع زملاء كرام له أمثال: الشاعر القروي وإلياس فرحات وفوزي المعلوف وعقل وشكر الله الجر وغيرهم كثيرون ممن تزخر مجلدات العصبة بأبحاثهم ومقالاتهم وقصائدهم.

جماعة أبولو

اسم لحركة شعرية انبثقت من الصراع الدائر بين أنصار المدرسة التقليدية وحركة الديوان والنزعة الرومانسية، لتتبلور عام 1932م بريادة الشاعر أحمد زكي أبي شادي،

لم يكن لجماعة أبولو مذهب شعري بعينه، كما كان لحركة الديوان، التي انتمت للحركة الرومانسية ضد الاتجاه الكلاسيكي في الشعر. ولم يكتبْ لها بيان شعري يحدد نظرتها إلى الإبداع وقضاياه المتفرقة، من أسلوب ومضمون وشكل وفكر... إلخ. بل اكتفى أبوشادي بتقديم دستور إداري للجماعة، يحدد الأهداف العامة لها من السمو بالشعر العربي، وتوجيه جهود الشعراء في هذا الاتجاه، والرقي بمستوى الشعراء فنيًا واجتماعيًا وماديًا، ودعم النهضة الشعرية والسير بها قدما إلى الأمام.

انتخبت الجماعة أمير الشعراء أحمد شوقي أول رئيس لها. وبعد وفاته بعام واحد، تلاه خليل مطران، ثم أحمد زكي أبوشادي. واستمرت الحركة من (1932- 1936م). وكان لها مجلة دورية، مجلة أبولو التي توقفت (1934م)، تعد وثيقة أدبية وتاريخية وفكرية لهذه الجماعة التي نازعت حركة الديوان سيطرتها، وحلّت محلّها، فأنتجت جيلاً شعريًا ينتمي إلى الاتجاه الرومانسي بحق، من أمثال: إبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، ومحمد عبدالمعطي الهمشري وغيرهم.

وكان أثر مطران على الجماعة بارزًا، باعتراف محمد مندور وقولة إبراهيم ناجي المشهورة: (كلنا أصابتنا الحمى المطرانية). ويقصد بها نزعته التجديدية في الشعر وطابعه الذاتي الرومانسي.

ورغم أن هذه الحركة الشعرية لم تُعَمَّر طويلاً، إلا أنها تركت أصداءها في العالم العربي، وراسلها العديد من الشعراء والنقاد، أمثال: أبي القاسم الشابي، وآل المعلوف، ومن بينهم عيسى إسكندر وشفيق ابنه صاحب عبقر. كما نرى هذه الأصداء في بعض نتاج شعراء الحجاز أمثال: محمد حسن عواد وحسين سرحان. كما تجاوب معها ميخائيل نعيمة رائد حركة التجديد في المهجر، وقد نص على تجاوبه معها في مقدمة ديوانه الغربال.

اتسمت حركة جماعة أبولو، بأنها عمّقت الاتجاه الوجداني للشعر، وانفتحت على التراث الشعري الغربي بوساطة الترجمة من الشعر الأوروبي، ودعت إلى تعميق المضامين الشعرية واستلهام التراث بشكل مبدع، واستخدام الأسطورة والأساليب المتطورة للقصيدة، ولفتت الأنظار إلى تجريب أشكال جديدة للشعر المرسل والحر. كما التفتت إلى الإبداع في الأجناس الشعرية غير الغنائية لاسيما عند أبي شادي، ومهدت الطريق لظهور مجلة وحركة أخرى هي حركة مجلة الشعر في بيروت (1957م).

بالإضافة إلى ماتركه لنا شعراء هذه الجماعة من دواوين ومجموعات شعرية، تبدو فيها النزعة الرومانسية هي الأقوى مضموناً وشكلاً وانفعالاً، فإن مجلة أبولو التي كانت تنشر على الملأ قصائدهم وأفكارهم، كانت المنبر الذي التفّ حوله الشعراء من العواصم العربية والمنارة التي نشرت إشعاعاتهم.

ومجلة أبولو تعد وثيقة فنية تاريخية فكرية لهذه الحركة، التي لم تعمّر طويلاً، لكنها شعريًا كانت أكثر تأثيرًا من حركة الديوان التي عاقتها عن النمو الشعري هيمنة العقاد مُنظِّرًا وقائدًا، وارتبطت إنجازاتها بالنقد أكثر مما ارتبطت بالشعر، وغرَّبت عنها عبدالرحمن شكري الذي ينسجم شعره مع شعر الجيل الثاني لحركة أبولو.

وبرز دور الشاعر بوصفه فنانًا في حركة أبولو، كما برزت أهمية التجربة النفسية والوجدانية في عملية الإبداع الشعري لا محاكاة نماذج القدماء. وتحوّلت قضايا الشعر من قضايا المجتمع إلى قضايا الذات، واستكشف بعض شعراء الجماعة لغة شعرية جديدة متماسكة أكثر صفاءً ونقاءً من شعر التقليديين وأغراضهم الشعرية الموروثة.

الشعر الحر

لقد كانت فكرة التجديد والتحرر من قيود القصيدة العربية سواء في أوزانها ، أو قافيتها أمراً موجودا منذ القدم عند شعراء العربية بدءا بالتجديد على شكل القصيدة العصر العباسي ، عندما ظهرت موجة التجديد ، والخروج على الشكل التقليدي المألوف للقصيدة العربية ، وبرز بعض الشعراء المجددين ، أمثال بشار بن برد ، ومن جاء بعده ، ليقضوا على الجمود في القصيدة ، ويحاولوا الخروج عن المألوف ،

ويبتكروا شكلا جديدا للقافية عرف بالمخمسات. ثم انتشر التجديد في الشعر العربي على أيدي الشعراء الأندلسيين فظهر منه المشطرات بأنواعها اما الشعراء المحدثون فقد تفننوا في عملية التجديد الموسيقي ، وتنوع القوافي ، واهتموا بها اهتماما بالغا وأكثر من عني بتطوير الموسيقى الشعرية ، وتفنن في الأوزان والقوافي في العصر الحديث هم شعراء المهجر ك"جبران" و"نعيمة" و"أبي ماضي" ، و"أبي شبكة"، ثم تلاهم مدرسة الديوان ، فمدرسة أبلو ، وما تلاها من المدارس الشعرية الأخرى.

بيد أن هذه المحاولات التجديدية عند الشعراء العرب المجددين لم تتجاوز السطحية المحدودة لتشكيل موسيقا القصيدة ، ولم تتعمق لتصل إلى جوهر التغيير الذي شهدته القصيدة العصرية في ثوبها الجديد الذي يتناسب وما طرا على الحياة من مضامين ، وأفكار وتجارب مختلفة ، وما لازمها من ايدلوجيات وتغيرات حضارية فظهر ما عرف بـ"الشعر المرسل"

ولم يلبث أن بداء اكثر من شاعر في أوائل القرن العشرين بالتحرر من القافية ، مثل "توفيق البكري" الذي صنع قصيدة بدون قافية أسماها "ذات القوافي" ، ثم تلاه الزهاوي ، وعبد الرحمن شكري

تسمية الشعر الحر

ربما يعود اصل التسمية الى الشعور بأن القصيدة العربية الحديثة لم تتحرر بعد كما ينبغي أن يكون التحرر .ومن ثم فقد كان الشعر العربي في حاجة إلى حرية حقيقيه يكتب من خلالها وكأن أصحاب هذه المدرسه الجديده هم أصحاب الشعر الحر في الحقيقه وأن من سبقهم لم يكتبوا الشعر الحر وإنما كتبوا الشعر المقيد بألف قيد فمع مدرسة الشعر الحر خطى الشعر العربي خطوة جديده في سبيل تحريره من القيود التي كبلت الشعراء

أسباب ظهور الشعر الحر

لا شك أن لظهور الشعر الحر أسبابا كثيرة ومتعددة ومن أهمها:

1. الراوة الذين يقيم في برج عاجي وكأنما رأوا الشعراء حين عكفوا على ذاتهم يجترون آلامها الفردية لا يعبرون تعبيرا حقيقيا عن الواقع بمشكلاته الجماعيه وقضاياه العامة ولهذا سعت هذه المدرسة ان تنتقل من الرومانسيه إلى الواقعية وسعت لتنتقل من التعبير عن الفرد إلى التعبير عن الجماعة ومن التحليق في الخيال إلى الإنضباط في الواقع حتى تكون القصيدة نابضه بهذا الواقع معبرة عنه
2. تمرد شعراء هذه الجماعة على الميوعه الرومانسيه التي اتصفت بها قصائد شعراء المهجر والديوان وابوللو حيث كان الوطن العربي في أواخر الأربعينات في هذا القرن يئن بفعل حركات الثورة ضد المحتل الغاصب الذي جعل الوطن العربي رهن الجهل والفقر والمرض وقد وجد شعراء هذه الجماعة الوليدة الشعر العربي السائد بعيدا عن الحياة وعن روح الثورة والتمرد
3. أن أعضاء هذه الجماعة رأوا أن القصيدة العربية القديمة كبلت الشاعر الحديث وقيدت حريته وفرضت عليه قالب شعري قائم على وحدة الوزن والقافية وقد تمرد أعضاء هذه المدرسة الجديدة على وحدة الوزن والقافية لأنهم رأوا فيها تشويه تجربة الشاعر فحين يكتب قصيدة في بحر من بحور الشعر العربي عليه أن يفي بالإكتمال الشكلي لهذه البحر في كل بيت من أبيات القصيدة حتى نراه يضطر في كثير من الأحيان وفاءً لشكل هذا البحر أن يضيف كلمات أو عبارات أو حتى جمل لا لشيء إلا لكي يستكمل شكل هذه أو هذا البحر كأن الشكل الشعري أصبح قيدا وأصبح يتحكم في الشاعر وليس الشاعر هو من يتحكم بالقيد فكان على الشاعر أن يتحرر من هذا القيد

لذلك بدأ الشاعر يهمل فكرة البيت المكون من شطرين متساويين وأصبحت القصيدة الجديدة تتألف من سطور متفاوتة الطول حسب الدفقة الشعورية فاذا طالت طال معها السطر والعكس صحيح، فلم يعد بحاجة للحشو لتكميل وزن البيت

إذا لم تقف حركة التطور للقصيدة العربية عند حدود التحرر الجزئي من قيود القافية ، بل تخطتها إلى أبعد من ذلك ، فقد ظهرت محاولة جديدة وجادة " الشعر الحر . "

وكانت هذه المحاولة أكثر نجاحا من سابقتها كمحاولة " الشعر المرسل" ، أو " نظام المقطوعات" ، وقد تجاوزت حدود الإقليمية لتصبح نقلة فنية وحضارية عامة في الشعر العربي ، ولم يمض سنوات قلائل حتى شكّل هذا اللون الجديد من الشعر مدرسة شعرية جديدة حطمت كل القيود المفروضة على القصيدة العربية ، وانتقلت بها من حالة الجمود والرتابة إلى حال أكثر حيوية وأرحب انطلاقا.

وبدأ رواد الشعر الحر ونقاده ومريدوه يسهمون في إرساء قواعد هذه المدرسة التي عرفت فيما بعد بمدرسة شعراء التفعيلة أو الشعر الحديث ، وفي هذا الإطار يحدثنا أحد الباحثين قائلا " لقد جاءت خمسينيات هذا القرن بالشكل الجديد للقصيدة العربية ، وكانت إرهاصاتها قد بدأت في الأربعينيات ، بل ولا نكون مبالغين إذا قلنا في الثلاثينيات من أجل التحرك إلى مرحلة جديدة ..." وقد وجدت مدرسة الشعر الحر الكثير من المريدين ، وترسخت بصورة رائعة في جميع البلدان بدءا (بالملائكة والسياب والبياني) في العراق في الأربعينيات ، ثم ما لبثت هذه الدائرة أن اتسعت في الخمسينيات فضمت إليهم شعراء مصريين آخرين مثل "صلاح عبد الصبور" و"أحمد عبد المعطى حجازي " وفي لبنان ظهر" أحمد سعيد "(أدونيس) و"خليل حاوي" و"يوسف الخال" ، وكذلك "فدوى طوقان "و"سلمى الخضراء الجيوسي" في فلسطين

مسميات الشعر الحر

لقد اتخذ الشعر الحر قبل البدايات الفعلية له في الخمسينيات مسميات مختلفة كانت مدار بحث من قبل النقاد والباحثين ، فقد أطلقوا عليه في إرهاصاته الأولى منذ الثلاثينيات اسم " الشعر المرسل " "و"النظم المرسل "و " الشعر الجديد " و " شعر التفعيلة " أما بعد الخمسينيات فقد أطلق عليه مسمى " الشعر الحر " ومن أغرب المسميات التي اقترحها بعض النقاد ما اقترحه الدكتور إحسان عباس بأن يسمي " بالغصن " مستوحيا هذه التسمية من عالم الطبيعة وليس من عالم الفن ، لأن هذا الشعر يحوى في حد ذاته تفاوتا طبيعيا في الطول كما هي الحال في أغصان الشجرة ولان للشجرة دورا هاما في الرموز والطقوس والمواقف الإنسانية.

اشكال الشعر الحر

أما اشكال الشعر الحر فهي أيضا كثيرة وقد حصرها (س . مورية) في دراسته لحركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث في خمسة أنماط من النظم أطلق عليها جميعا مصطلح الشعر الحر وهي : (بتصرف)

استخدام البحور المتعددة التي تربط بينها بعض أوجه الشبه في القصيدة الواحدة ، ونادرا ما تنقسم الأبيات في هذا الشكل إلى شطرين . ووحدة التفعيلة فيه هي الجملة التي قد تستغرق العدد المعتاد من التفعيلات في البحر الواحد أو قد يضاعف هذا العدد وقد اتبع هذه الطريقة كل من "أبى شادي "و"محمد فريد أبي حديد. "

وهو استخدام البحر تاما ومجزوءا دون أن يختلط ببحر آخر في مجموعة واحدة مع استعمال البيت ذي الشطرين ، وقد ظهرت هذه التجربة في مسرحيات "شوقي. "

وهو الشكل الذي تختفي فيه القافية وتنقسم فيه الأبيات إلى شطرين كما يوجد شيء من عدم الانتظام في استخدام البحور ، وقد اتبع هذه الطريقة "مصطفى عبد اللطيف السحرتى".

وهو الشكل الذي تختفي فيه القافية أيضا من القصيدة وتختلط فيه التفعيلات من عدة بحور ، وهو أقرب الأنماط إلى الشعر الحر الأمريكي ، وقد استخدمه "محمد منير رمزي."

ويقوم على استخدام الشاعر لبحر واحد في أبيات غير منتظمة الطول ونظام التفعيلة غير منتظم كذلك ، وقد استخدم هذه الطريقة كل من "علي أحمد باكثير" و"غنام."

وهذا الشكل الأخير من أنماط الشعر الحر هو فقط الذي ينطبق عليه مسمى الشعر الحر بمفهومه بعد الخمسينيات ، والذي نشأت أولياته على يد باكثير ـ كما ذكر موريه ـ ومن ثم أصبحت ريادته الفعلية لنازك الملائكة ومن جاء بعدها، ولتأكيد هذا الرأي نوجز مفهوم الشعر الحر في أوائل الخمسينيات وجوهره ونشأته ودوافعه وأقوال بعض النقاد والباحثين حوله.

مفهوم الشعر الحر في اوائل الخمسينيات

تقول" نازك الملائكة" حول تعريف الشعر الحر: (هو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت وإنما يصح أن يتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر ويكون هذا التغيير وفق قانون عروضي يتحكم فيه).

ثم تتابع نازك قائلة " فأساس الوزن في الشعر الحر أنه يقوم على وحدة التفعيلة والمعنى البسيط الواضح لهذا الحكم. إن الحرية في تنويع عدد التفعيلات أو أطوال الأشطر تشترط بدءا أن تكون التفعيلات في الأسطر متشابهة تمام التشابه ،

ويمضي الشاعر على هذا النسق حرا في اختيار عدد التفعيلات في الشطر الواحد غير خارج على القانون العروضي لبحر الرمل جاريا على السنن الشعرية التي أطاعها الشاعر العربي منذ الجاهلية حتى يومنا هذا.

ومن خلال التعريف السابق تؤكد نازك على نماط الشعر الحر - الذي أشرنا إليه سابقا- والذي يعتمد على البحر الواحد في القصيدة مع اختلاف أطوال البيت وعدد التفعيلات .

وقد أشار الدكتور محمد مصطفى هدارة إلى نظام التفعيلة في الشعر الحر وعدم التزامه بموسيقى البحور الخليلية فقال : " إن الشكل الجديد - أي للشعر الحر - يقوم على وحدة التفعيلة دون التزام الموسيقى للبحور المعروفة ، كما أن شعراء القصيدة الحرة يرون أن موسيقى الشعر ينبغي أن تكون انعكاسا للحالات الانفعالية عند الشاعر" .

ومما سبق تتضح لنا طبيعة الشعر الحر ، فهو شعر يجري وفق القواعد العروضية للقصيدة العربية ، ويلتزم بها ، ولا يخرج عنها إلا من حيث الشكل ، والتحرر من القافية الواحدة في أغلب الأحيان . فالوزن العروضي موجود والتفعيلة ثابتة مع اختلاف في الشكل الخارجي ليس غير .

أما من حيث القافية فيحدثنا الدكتور عز الدين إسماعيل قائلا " : فالقافية في الشعر الجديد - بباسطة - نهاية موسيقية للسطر الشعري هي أنسب نهاية لهذا السطر من الناحية الإيقاعية ومن هنا كانت صعوبة القافية في الشعر الجديد وكانت قيمتها الفنية كذلك ... فهي في الشعر الجديد لا يبحث عنها في قائمة الكلمات التي تنتهي نهاية واحدة ، وإنما هي كلمة " ما " من بين كل كلمات اللغة، يستدعيها السياقان المعنوي والموسيقي للسطر الشعري ، لأنها هي الكلمة الوحيدة التي تضع لذلك السطر نهاية ترتاح النفس للوقوف عندها ."

ومع أن الشاعر الذي يكتب قصيدة الشعر الحر ، يمكنه استخدام البحور الخليلية المفردة التفعيلات والمزدوجة منها على حد سواء إلا أن البحور الصافية التفعيلات هي أفضل البحور التي يمكن استخدامها وأيسرها في كتابة الشعر الحر، لاعتمادها على تفعيلة مفردة غير ممزوجة بأخرى حتى لا يقع الشاعر في مزالق الأخطاء العروضية ، أو يجمع بين أكثر من بحر في القصيدة الواحدة .

طبيعة الشعر الحر

أما طبيعة الشعر الحر وجوهره فهو التعبير عن معاناة الشاعر الحقيقية للواقع التي تعيشه الإنسانية المعذبة.

فالقصيدة الشعرية إنما هي تجربة إنسانية مستقلة في حد ذاتها ، ولم يكن الشعر مجرد مجموعة من العواطف ، والمشاعر ، والأخيلة ، والتراكيب اللغوية فحسب ، وإنما هو إلى جانب ذلك طاقة تعبيرية تشارك في خلقها كل القدرات والإمكانيات الإنسانية مجتمعة . كما أن موضوعاته – الشعر الحر- هي موضوعات الحياة عامة ، ومن أهم تلك الموضوعات ما يكشف عما في الواقع من الزيف والضلال ، ومواطن التخلف والجوع والمرض ، ودفع الناس على فعل التغيير إلى الأفضل .

خصائص الشعر الحر

اما خصائص الشعر الحر فلا تقل أهمية عن غيرها من خصائص المدارس الشعرية الأخرى بل ربما كان هذا اللون من الشعر أكثر تحقيقاً لبعض العناصر التي لم تتوفر في الأنماط الشعرية الأخرى كالوحدة العضوية مثلاً ، وفي هذا الإطار يرى بعض الباحثين : انه إذا كان شعراء المدرسة الرومانسية قد نجحوا في تحقيق الوحدة الموضوعية للقصيدة الشعرية ، فإن شعراء مدرسة الشعر الحر قد وفقوا في تحقيق الوحدة العضوية المبنية على التناسق العضوي بين موسيقى اللفظ أو الصورة وحركة الحدث.

وإن هذا بدوره يؤدي إلى إبراز مظاهر النمو العضوي للانفعالات والمشاعر ، ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا كان الشكل الجديد للقصيدة العربية أقرب معانقة لروح العصر الذي نعيشه وأكثر استيعاباً لمضامينه الحية ، بالإضافة إلى ما يتميز به من مرونة في موسيقاه حيث تتلون بتلون الانفعال ،وكذلك ربما يرمز إليه من تعدد في التشكيل وترادف في التركيب وموضوعية في الرصد وشمولية في التمثيل والهروب من الذات.

كذلك تميزت قصائد الشعر الحر بخصائص أسلوبية متعددة مثل اعتمادها على الوحدة العضوية ، فلم يعد البيت هو الوحدة وإنما صارت القصيدة تشكل كلاً متماسكاً ، وتزاوج الشكل والمضمون ، فالبحر والقافية والتفعيلة والصياغة وضعت كلها في خدمة الموضوع وصار الشاعر يعتمد على " التفعيلة " وعلى الموسيقى الداخلية والمناسبة بين الألفاظ.

إن انطلاقة القصيدة العربية وتحررها من عقالها جعلها أكثر مرونة وحيوية وتجاوباً مع نوعية الموضوع الذي تكتب فيه ، ومنحت الشاعر الفرصة في التعبير عن مشاعره وتجاربه الشعورية بحرية تامة فلا تقيد بأطوال معينة للبيت الشعري ولا كد للذهن بحثاً عن الألفاظ المتوافقة الروي ليجعل القصيدة على نسق واحد وما تتهيأ تلك الأمور للشاعر إلا على حساب الموضوع من جانب وفقدان الوحدة العضوية وعدم الترابط بين مكونات القصيدة من جانب آخر، ومن هنا نجد ميل الشعراء المحدثين إلى استخدام قصيدة الشعر الحر للتعبير عن مشاعرهم وذلك لما تميزت به من سمات فنية جمعت فيها إلى جانب الوحدة الموضوعية ،أضافة إلى تحررها من القيود الشكلية التي تحد من قدرات الشاعر وانطلاقه في التعبيرعن خوالج نفسه بحرية وعفوية تامتين.

الشعراء المشهورون

محمود سامي البارودي (المتوفي 1904)

هو ابن حسن بك حسني مدير دنقلة وبربر على عهد محمد علي باشا. ولد بالقاهرة وشبل في نعمة أبيه. ولم يكد يحبو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعني بتأديبه بعض أهله. وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضبطا. وكان وهو غض الحداثة مولعا بحفظ الشعر وإنشاده. ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه. فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان، مطبوعا على الإعراب دون علم بالنحو: ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة، وسافر إلى الآستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية، وتضلع من آدابهما حتى عد من شعرائهما واتصل هناك بالخديو اسماعيل عام 1279هـ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر، فتدرج في الرتب الحربية حتى سنة 1294 هـ إلى رتبة. ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا فازداد قوة في أدبه، وخبرة في فنه. وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، فأبلى فيها بلاء حسنا. فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فولي مديرا للشرقية ثم رئيسا للضبطية. وفي عهد توقيف تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العرابية. ورأس النظارة بعد شريف باشا، فما لبث غير قليل حتى ثار نقع الثورة واستطار شرر الفتنة، وأكثر الناس على أن البارودي أول من فتح بابها وتدرع جلبابها، ولكن شعره يبرئه من ذلك كما سيجيء.

وسكتت الثورة باحتلال الإنجليز وادي النيل، وقبض على مثيري الفتنة، وحكم عليهم بالنفي إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه سبعة عشر عاما وبعض عام تعلم في أثنائها اللغة الإندليزية، ونظم بدائع شعره في العربية. ثم وسعته رحمة الخديو عباس الثاني فعفا عنه سنة 1327هـ ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يعش بعدها إلا خمس سنين قضاها في سكون الشيخوخة وادعا قانعا بين مطالعة الكتب، ومحادثة الصحب، ومعالجة القريض. وقد كف بصره قبيل موته.

شعره

إن كان لإمرىء القيس فضل في تمهيد الشعر وتقديده، ولبشار في ترقيته وتجويده، فللبارودي كل الفضل في إحيائه وتجديده. كان الشعر في عهده صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة، نظم مرتبك، وتكلف باد، وصناعة فاشية، ومعنى سقيم، فجلاه في خاطره، وصقله على لسانه، فجاء منضد اللفظ، نقي المستشف. تقصى البارودي شعر ابن المعتز وأبي فراس والرضى والطغرائي وأمثالهم من الفحول، فارتسم شعرهم على لوح قلبه، وانتقش في صفحة ذهنه، وصادف ذلك منه شعورا فياضا وذوقا سليما، فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق المفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته.

ما كان البارودي مبتكر معان، ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان رائض قواف، وصائغ قريض: قد كلف بالنغمة، وانصرف إلى الصنعة، فآثر المعنى الضئيل في اللفظ الجزل، على المعنى البليغ في اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع في الفخر والحماسة والوصف.

مؤلفاته

له كتاب مختارات البارودي في أربعة أجزاء، وهو مجموع ما اختاره لثلاثين شاعرا من شعراء العصر العباسي في أغراض مختلفة. وقد نهج في اختياره طريقته في نظمه، فآثر حسن اللفظ والمعنى، وحسن اللفظ على حسن المعنى وقبح المبنى، ديوان شعر في جزأين قد طبع في مصر.

أحمد شوقي

ولد أحمد شوقي في القاهرة سنة 1868، وقد امتزجت في دمه عناصر أربعة هي العربية والتركية والكردية واليونانية، وفي الرابعة من عمره الحق بكتاب الشيخ صالح حيث قضى أربع سنوات حافلة بالخشونة، ثم انتقل الى مدرسة المبتديان الابتدائية ثم الى التجهيزية، ثم التحق بمدرسة الحقوق وبعد سنتين تركها والتحق بقسم الترجمة حيث أتقن الفرنسية ونال الإجازة. وقد عطف عليه الخديوي توفيق عطفا خاصا فعين أباه مفتشا في الخاصة الخديوية، وعينه هو من بعده، وفي سنة 1887 أرسله الى جامعة مونبليه بفرنسة لإتمام دراسة الحقوق والآدابز فمكث هناك سنتين ثم انتقل الى باريس لمواصلة تخصصه، فنال فيها الإجازة في الحقوق، وتجول في ربوع فرنسة وانكلترة واحتك بالحضارة الأوروبية احتكاكا كان له أشد الأثر في نفسه. وفي سنة 1891 رجع الى مصر عن طريق الآستانة.

لما رجع شوقي إلى مصر كان الخديوي توفيق قد توفي تاركا الإمارة لابنه عباس حلمي، فقربه إليه وأسند إليه رئاسة القلم الإفرنجي وازدادت أواصر الصداقة بينه وبين الخديوي، وأصبح شاعر الأمير وكلمته.

وفي عام 1894 انتدبه الخديوي لتمثيل مصر في مؤتمر المستشرقين الدولي الذي عقد في جنيف، فألقى أمام المؤتمر قصيدته الطويلة الشهيرة كبار الحوادث في وادي النيل عرض فيها لتاريخ تطور الحضارة المصرية منذ أيام الفراعنة حتى ظهور الإسلام.

وفي عام 1898 ظهرت الطبعة الأولى من الشوقيات متضمنة القصائد التي نظمها الشاعر خلال الفترة الواقعة بين 1888 و1898.

ومع بداية القرن العشرين كان شوقي قد بلغ قمة الشهرة في شتى أرجاء العالم العربي، وصار يلقب بأمير الشعراء تمجيدا لموهبته ونبوغه.

وبين عامي 1904 و1905 وضع أحمد شوقي قصة نثرية طويلة بعنوان عذراء الهند نشرت مسلسلة في جريدة الأهرام. كما كتب أيضا في تلك الفترة أربع قصص أخرى هي دل وتيمان ولادياس وبنتاءور.

وبعد وفاة مصطفى كامل سنة 1908 ساءت العلاقة بين الشاعر والقوى الوطنية نتيجة وقوفة الى جانب الخديوي عباس والدفاع عن سياسته في مهادنة الإنكليز وتنكره للقوى التي كانت تنادي في ذلك الوقت بالدستور وتحقيق الجلاء والاستقلال عن بريطانيا. هذا فضلا عن عشرات الأبيات التي كان يكتبها في المؤيد ويسخر فيها من أحمد عرابي والعرابين بدون توقيع.

في عام 1914 نشبت الحرب العالمية الأولى، وأعلنت الحماية على مصر، وفي عام 1915 أقال الإنكليز الخديوي عباس عن العرش لميوله الى تركية وألمانية، وولوا السلطان حسين كامل مكانه، فأعلن شوقي سخطه ومعارضته لهذه السياسة من جانب بريطانية وعبر عن ذلك في شعره، فأثار سلطات الاحتلال ضده وصدر قراب بنفيه الى مالطة، ثم توسط له بعض ذوي الشأن لدى المندوب البريطاني، فسمح له بالسفر الى اسبانية، ورحل شوي عن مصر ومعه أسرته وبعض الخدم.

وخلال إقامته في المنفي لم يفارقه الشعور بالوحدة والحنين الى الأهل والأصدقاء. وكان ينفق معظم أوقاته في زيارة معالم الآثار العربية بالأندلس ومطالعة الكتب ودواوين الشعر التي استحضرها معه من القاهرة، وقد عبر في معظم قصائده التي كتبها في المنفي عن حنينه الشديد الى الوطن، وتغني بأمجاد الحضارة العربية الخالدة في الاندلس، وكتب مسرحية نثرية بعنوان أميرة الأندلس. ولم تنقطع صلته بمصر خلال إقامته في المني فكان يتبادل الرسائل مع أصدقائه في القاهرة ولاسيما الشاعرين حافظ ابراهمي واسماعيل صبري.

في عام 1919، وبعد انتهاء الحرب وهزيمة تركية وألمانية، عاد أحمد شوقي الى مصر، بعد أن سمح له السلطان أحمد فؤاد بذلك، وراح يسهم في الحياة السياسية والاجتماعية ويبدي اهتماما واضحا بالقضايا الوطنية والقومية، والسياسة الإسلامية، وتمجيد الإسلام، وفي عام 1924 عين عضوا في مجلس الشيوخ. وفي نيسان 1927 عقد في دار الأوبرا بالقاهرة مهرجان شعري لتكريم أحمد شوقي حضره عدد كبير من الشعراء والسياسيين من شتى انحاء العالم العربي بايعوه فيه بإمارة الشعر العربي.

وفي عام 1927 وضع شوقي مصرع كليوباترة، وقد مثلت على مسرح الأوبرا الملكية في ذلك الوقت، وكان ظهور الرواية الشعرية على المسرح العربي حدثا مهما في تاريخ الأدب وفي تاريخ اللغة العربية، وقد أراد شوقي أن يحقق رسالة الشعر العربي وأن يخلد فيه ما خلده شكسبير في اللغة الانجليزية.

وكان للإقبال العظيم الذي لقيته رواية مصرع كليوباترة، أن دفع الشاعر الى مواصلة الطريق بالرغم من ضعف صحته في تلك السن المأخرة فوضع مسرحياته الشعرية مجنون ليلى وقمبيز ونترة والست هدى والبخيلة وأخيرا رواية على بك الكبير التي أعاد كتابة فصولها من جديد.

في المرحلة الأخيرة من حياته كان أحمد شوقي يقوم بأسفار الى أوربة، وكان في باريس يتردد على الكوميدي فرانسيز ويعالج فن المسرح الشعري، كما كان يؤثر الاصطياف في لبنان متمتها بجمال أرضه وسمائه. وظل كذلك الى أن توفاه الله في 13 تشرين الأول سنة 1932. فكان لوفاته أثر بالغ في النفوس، وضجت البلاد العربية بالخيبر، وتسارع الشعراء الى رثائه، والكتاب ورجال الصحافة الى الإشادة بفضله والاعتراف بعبقريته.

كان أحمد شوقي رجل الحياة يحبها ويتهالك على متعها، وكان كريم اليد، يميل الى مساعدة ذوي الحاجات، ولئن تقلب في سياسته فإنه كان ي أعماقه ابن مصر البار، وابن الشرق العربي في غير استثناء، يريد لبلاده عزة وتحررا من كل قيد، ويريد للشرق تقدما سريعا في سليب الحضارة والانفتاح، ولئن كان سريع الملل من الأصدقاء، سريع التقلب والغضب، فإنه كان طيب المعشر، سريع الرضى، ولئن كان شديد التطير والجزع من المرض فإنه كان إنسانيا الى أقصى حدود الإنسانية، يدعو الى نبذ الأحقاد، ونشر لواء السلام، والتسامح في معاملة الناس، والارتفاع عن مقابح الأخلاق السيئة، والابتعاد عن نزاوات القبلية وصراعات المذاهب المختلفة.

شوقي والمسرح

عمد أحمد شوقي في المرحلة الأخيرة من حياته الى إرضاء الشعب، ولا سيما في رواياته التمثيلية، والمسرح في ما ندري، من الأبواب الأدبية التي تستدعي دقة التنقيب والملاحظة، والا ستقصاء في دراسة النفسيات وفي بسيير العمل بسييرا حافلا بالإمتاع. ولم يكن لأحمد شوقي غرام خاص بالمسرح، إنما جل ما تلقينا عنه أنه كان يحضر، في فرنسة بعض المسرحيات، من غير أن يجشم نفسه عناء الدرس والتحليل للآثار المسرحية، وأنه كان ي أخريات أيامه، يكثر من الاختلاف الى دور السينما، ليستمد من الصور المتحركة ما يساعده على بناء مسرحياته.

حافظ ابراهيم

شاعر النيل، محمد حافظ بن إبراهمي فهمي ولد في سفينة كانت ترسو على شاطىء النيل أمام بلدة ديروط، في أعلى صعيد مصر، من أب مصري مهندس، وأم تركية الأصل – وقد اختلف الرواة في تاريخ ميلاده، والإرجح أنه ولد سنة 1871م.

توفي والده وهو في الرابعة من عمره، فاضطرت والدته أن تنتقل به الى القاهرة وتعيش في بيت أخيها الموظف في مصلحة التنظيم. وهناك التحق حافظ ببعض المدارس، وظل كذلك الى ان نقل خاله الى طنطا، فكان لا بد له من الانتقال اليها ايضا، وراح فيها يملأ فراغه بالمطالعة وقرض الشعر، وقد ساعدته ذاكرته العجيبة على أن يجمع قدرا كبيرا من الأمثال والنوادر والطرف فضلا عن الشعر القديم والحديث وأن يتخذ من ذلك كله بضاعة طيبة لمجالسه الاجتماعية والأدبية، ومرتادا لقريحته الشعرية.

ورأى حافظ نفسه بدون عمل في بيت خاله، فساءه الأمر، وأكثر من التبرم، ففكر في المحاماة، وهي في ذلك العهد، مهنة لا تحتاج إلا الى اللسان الذرب، والبيان القوي، والحجة القاطعة، ورأى في نفسه لذلك العمل سرعة خاطر، وطلوقة لسانن وعذوبة منطق، فراح يتنقل من مكتب الى مكتب، لا يعرف في المهنة ثباتا ولا استقرارا، فخاب أمله، وأخفق في ما سعى إليه، وراودته عند ذلم فكرة الحياة العسكرية ورجا أن يحالفه فيها الحظ الذي لم يحالفه في غيرها.

انتقل حافظ إلى القاهرة والتحق بالمدرسة الحربية سنة 1888، وفي سنة 1891 تخرج ضابطا في الجيش برتبة ملازم، فعين في نظارة الحربية ثم نقل الى دائرة البوليس في وزارة الداخلية، وفي سنة 1896 أرسل الى السودان مع الحملة المصرية فلم تطب له الحياة هناك، وثار مع بعض الضباط فحوكم وأحيل على الاستيداع بمرتب ضئيل، وعندما عاد الى مصر حاول الفبرار من فشله الى معالجة الشعر ومخالطة الأدباء.

وجد الشاعر نفسه في فراغ قتال، فاستولى عليه من جراء ذلك بأس شديد، وسخط على الدنيا أشد السخط، وراح يبحث عن عمل يكون عونا لراتبه التقاعدي الضئيل، فلم يوفق الى شيء من ذلك، فازداد نقمة، وثار على الحظ والحياة وراح ينظم ثورته هذه شعرا يعصر فيه روحه، ويتفث فيه آلامه وآلام الناس، فاتسع أفقه الاجتماعي، ولا سيما بعد إذ قويت صلته بالشيخ محمد عبده، وبعد إذ أفاد الكثير من علمه وأدبه وانفتاح مذهبه الاجتماعي، فانتشر شعره بين الناس، وتحزب له الكثيرون، وأصبح شاعر الوطن والمجتمع، يدافع عن حقوق قومه ويحمل على السلطة الغربية التي تتحكم في بلاده.

ذاع صيت حافظ واشتد ضيق عيشه فاستدعاه وزير المعارف وعينه رئيسا للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية ثم سعى له برتبة البكوية من الدرجة الثانية، ثم بنيشان النيل من الدرجة الرابعة، فنعم في منصبه هذا بسعة العيش وحسن التقدير. قال أحمد أمين في مقدمة الديوان: كانت هذه الفترة في حياته فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته إلا نادرا، فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه... ولعل أيام بؤسه الأولى روعته وأفزعته حتى قامت شبحا دائما أمام عينيه تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب في منصبه أو مس في مرتبه. وفي تموز من سنة 1932 توفي حافظ ابراهيم فجزع عليه العالم العربي جزعا شديدا، وسار في جنازته علية القوم وأهل الفكر والقلم.

شخصيته

قال طاه حسين: كانت نفس حافظ تمتاز بشيئين: كانت قوية الحس كأشد ما تكون النفوس الممتازة قوة حس، وصفاء طبع، واعتدال مزاج. وكانت الى ذلك وفية رضية لا تستبقي من صلاتها بالناس إلا الخير، ولا تحتفظ إلا بالمعروف، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الإشادة به والثناء عليه... وكانت الى هذا وذاك ترى دينا عليها، لا أقول لنفسها ولا أقول للناس، وإنما أقول للفن والحق والتاريخ – لا ترى خيرا إلا سجلته، ولا تحس معروفا إلا أذاعته... هذا أحد الأمرين اللذين كانت تمتاز بهما نفس حافظ: حس قوي دقيق، وخلق رضي كريم، فأما الأمر الآخر فصيلة متينة بين هذه النفس القوية الكريمة وبين نفوس الشعب وميوله وأهوائه وآماله ومثله العليا... لا أعرف بين شعراء هذه الأيام شاعرا جعلته طبيعته مرآة صافية صادقة لحياة نفسه ولحياة شعبه كحافظ.

رجل الشدة والبؤس: تعاقبت على الشاعر سلسلة من النكبات كان لها تأثير شديد في نفسه، فمن فقدان أبيه وهو طفل، الى ضيق ذات اليد، الى بؤس في تيب خاله، إلى إخفاق في المحاماة، الى تعثر في المناصب، إلى غير ذلك مما عصر نفسه عصرا، وجعله ناقما على الحظ وعلى الدهر والناس، منبرما بالحياة لا يكاد يرى له فيها خيرا، متطلعا الى الموت وكأنه باب الخلاص ومستودع الرحمة. وقد ازدادت نقمته بازدياد حسه ونقاء نفسه، يلتقط التأثيرات التقاطا عميقا، ويحصرها في ذاته ولذاته، وقد يكتمها عن عيون الناس ويسترها فيه بستار إنسانيته الرقيقة، ومناقبيته الواسعة.

ومع شعوره بالتؤس وتبرمه بالحياة كان ذا طاقة فكاهية عجيبة، يخترع النكتة بسهولة فائقة، ويوردها بلباقة وخفة روح، إنه خلق للحياة الطليقة، ولكن الحياة قست عليه، فمزج مرارتها بعذوبة طبيعته، وزر عليها من خفة روحه أطايب الحديث، فتنافس الناس في ارتياد مجالسه، وتسابقوا الى مجالسته والاستمتاع بفيض ذاته. وكان الى ذلك صريحا، شديد الصراحة، ولا شك أن صراحته هذه كانت من أسباب إخفاقه في حياته الرسمية.

وكان، على بؤسه وضيق حاله، متلافا للمال، لا يبخل بقليله ولا يرد سائلا، ولا يحرم النفس مما تشتهي. وقد تحدث الناس عن كرمه بما يشبه الأساطير، ولعل كرمه هذا راجع الى أنه تجرع كؤوس البؤس مترعة، فأحس وقعه في النفوس فسخت كفه ونديت راحته.

لم يتح لحافظ أن يحصل من العلم أكثر مما تنطوي عليه المرحلة الابتدائية والفنون العسكرية، وقد استعاض عن هذا الفقر التحصيلي بالمطالعة فواظب عليها، تساعده في عمله حافظة عجيبة، وكان له من ذلك مخزون عربي من جيد الشعر والنثر، اختاره بذوقه المرهف اختيارا دقيقا، وأغناه بمجالسة الأدباء والشعراء ورجال الفكر من أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين ومصطفى كامل وغيرهم، ولكن هذه الثقافة العربية لم تكن عميقة ولا منسقة، وحافظ ابراهيم – على حد قول أحمد أمين كالنحلة تنتقل من زهرة الى زهرة، وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة، فهو يرضي ذوقه في أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة، فإذا عثر على أسلوب رئيق أو معنى دقيق اختزنه في نفسه. وقد شك الكثيرون في أن شاعرنا كان يتقن الفرنسية وذهبوا إلى أن معرفته لهذه اللغة كانت ضئيلة وشبه بدائية.

وكان حافظ ابراهيم سريع الملل، كثير التقلب من حال الى حال، لا يتبع في حياته خطة، ولا يتقيد في عمله بنظام. قال أنيس المقدسي: الظاهر من أقوال المطلعين على سيرته أنه لم يخلق ليكون مقيدا بعمل أو وظيفة تتطلب منه واجبات شاقة، وإنما خلق أديبا قلق النفس ينظم الشعر وينشده في المجالس الخاصة والنوادي العامة – ليس له صبر أو جلد على تحمل المشاق، أو الاستقرار على حالة فيها شيء من العناء – حاول المحاماة فصار يتنقل من مكتب محام آخر وكانت نتيجة ذلك الإخفاق في العمل، ودخل الجيش فلم يتصرف فيه بما يرضي رؤساءه ففصل منه، وسنرى بعد أنه تزوج فلم يصبر على الحياة الزوجية غير بضعة أشهر، ولم يقيد بها نفسه بعد ذلك. وقد شملت الفوضى شتى نشاطاته، فأهمل حياته الأدبية، وقلما عني بتدوين شعره، ولولا ما نشرته له الصحف والمجلات لضاع الكثير من ذلك الشعر.

حب حافظ لكل ما هو عربي يفوق التصوير والتصور، وما من شيء يداني حبه للعرب سوى حبه لدينه وإخلاصه لإسلامه، وهو مع ذلك لم يؤخذ بتعصب أو بعنصرية، بل كان دائما داعية وفاق ووئام وتحاب يندد بالتفرقة المذهبية التي لا تجر سوى التفسخ والانحلال. تلك أهم العناصر في شخصية حافظ ابراهيم، وستتجلى لنا تلك الشخصية في شعره الذي كان صورة لنفسه، وتنفسا لما في عالمه من مد وجزر، ومن أمل وخيبة.

Unit XII

الأدباء والكتاب

محمد عبده

ولد محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر، ونشأ نشأة الأوساط من القرويين، فاستظهر القرآن في كتاب القرية، وأرسل في طلب العلم إلى الجامع الأحمدي فالأزهر الشريف، ولكنه مني في أول دراسته بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غير تفهيم فسئمها وفر. فلما ذاق حلاوة العلم صبر على مرارة التعليم، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن كثيرا من العلم. ولم يكن منهاج التعليم الأزهري في ذلك العهد كفيلا بتخريج الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم، وثيق الحجة، ساحر البيان، عزير العلم، كريم الخلق، ثابت البصيرة، ولكن السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الشرق وفيلسوف الإسلام هو الذي جمله بهذه الصفات وكمله بتلك العلوم. ورد ذلك الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شرعته أذكياء الطلاب، فكانوا دعاة النهضة الحديثة وهداتها. وكان الإمام آثرهم عنده، وأوفرهم حظا منه، حتى قال فيه وهو مفارق مصر: إني خلفت في مصر خيرا كثيرا في علم الشيخ محمد عبده.

فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الأستاذ النظر في العلوم واستقى الدين من مشارعه الصافية حتى أصبح إماما في العلوم العقلية والنقلية واللسانية، فنال درجة العالمية سنة 1294هـ. ثم اختير مدرسا للأدب والتاريخ بدار العلوم ومدرسة الألسن، وأسندت إليه بعد ذلك رياسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية.

ثم أخذت مبادئ الأفغاني تزكو في القلوب، وتهفو بالنفوس، حتى أفضت إلى الثورة العرابية، وكان الأستاذ ممن شايع وبايع وأفتى بخلع الخديو توفيق فحكم عليه بالنفي. فقصد سورية ولبث فيها ست سنين شرح في أثنائها كتابي نهج البلاغة ومقامات البديع. ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين، فأنشأ معا جريدة (العروة الوثقى) ونشرا بها دعوة الدين والعلم والأدب والإصلاح، فاهتزت لها القلوب الطيبة في العالم الإسلامي، ولكنها لم تدم طويلا. واستهوى الأستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الأخذ منها بنصيب، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسي فتعلمه في بضعه أشهر. ثم شمله العفو الخديوي فعاد إلى وطنه نير القلب، غزير العلم، محنك اللسان، وعين مستشارا في محكمة الاستئناف، وعني بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر. فكان درسه مجمعا لرجال القانون والأدب والصحافة والتعليم. وتولى منصب الإفتاء، فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان في الإسكندرية ودفن بالقاهرة.

صفاته وأخلاقه

كان الأستاذ ربع القامة، أسمر اللون، قوي البنية، حاد البصر، بليغ العبارة، فصيح اللسان، ذكي القلب، شديد العارضة، قوي الحافظة. وكان أشبه بابن خلدون في كبر نفسه، وصفاء عقله، وبعد نظره، وقوة جأشه وكرم خلقه، وصراحة قوله، حتى في خصوصية زيه. وقد كابد مثله في رضا الحق ومحاربه، البدع سخط الخاصة وغضب العامة، شأن زعماء الإصلاح في كل أمة.

أثره في اللغة الأدب

كانت اللغة في عهده فريسة العجمة رهينة البلى فجاهد في إنقاذها وإحيائها حق جهاده: كان وهو يحرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في الصحف ويكتب في الدواوين، ويدبج الفصول في نقص الأساليب وخطأ التراكيب، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها، ويكتب غيرها في موضعها تعليما للكتاب وتدريبا للناشئة. ثم سلك في الدريس غير سبيل الأزهريين، فقرأ كتابي عبد القاهر في البلاغة بأسلوب يملك الأسماع والقلوب، وفسر كتاب الله بلسان رسوله. فكان في درسه خطيبا جزل المنطق، قوي العارضة لا تدركه حبسة ولا يرهقه حسر: فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية، وسن في الأزهر تدريس الأدب فاعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي، واعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي.

اثره في العلم والدين

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل، فأطلع الأستاذ من فكره وعلمه نهرا بدد غيوم الباطل، وجدد رسوم الحق. ورأى العلم قد أخذ ينغض إلى الدين رأسه، فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل، وكتب رسالته في التوحيد تقلب عبد القاهر، فقرب العقائد من الأفهام، وحسر عنها ظلال الإبهام. وسمع ألسنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك، فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملزمة. وكتاب الإسلام والنصرانية ورده على هانوتو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت على تلك الشبه المدفوعة.

وجملة القول أن الإمام محمدا كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفيهم الله من خلقه لنصرة حقه، فيجددون حبل الدين، ويشيدون أركان العلم، ويدفعون عن الأرض الفساد. للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض، تقرؤه في الردود والمقالات: وقد يتحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع، ويكلف بالصنعة، ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه، فتتساوق أعراضه، وتتراصف فقره. فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب.

قاسم أمين

ولد ببلدة طره في ضواحي القاهرة، وانتقل مع أبيه الضابط أمير ألاي محمد بك أمين الى الاسكندرية حيث تلقى دروسه الابتدائية، ثم انتقل الى القاهرة فاتحق بالمدرسة الخديوية الثانوية ثم بمدرسة الحقوق، وإذ كان من المتفوقين في دروسه ضم الى بعثة حكومية للتخصص في فرنسة، فأتم دراسته الحقوقية في مونبليه، وفي سنة 1885 عاد الى مصر فعين وكيلا للنيابة العامة في المحكمة المختلطة ثم مستشارا بمحكمة الاستئناف. وإلى جانب عمله في القاضء توجه إلى معالجة قضايا مجتمعه ولا سيما قضية المرأة، فكان من مشاهير رجال الإصلاح الاجتماعي في الشرق وكان له أثر بعيد في النهضة الاجتماعية الحديثة. وقد توفي بالقاهرة سنة 1908، تاركا وراءه من المؤلفات، تحرير المرأة، المرأة الجديدة وأسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ.

يرى قاسم أمين أن جهل المرأة وغيابها عن المجتمع، واستكانتها للتعسف والهوان، من أفظع العلل التي أضعفت التربية القومية والوعي الاجتماعي في البلاد، وأن مقومات الحياة تقتضي الحفاظ على قوام الأسرة والبيت الممثل في المرأة. وكان هم قاسم أمين أن يغرس في الشعر والمجتمع وعيا جديدا وشعورا عميقا بالذات والوجود، وكان يهدف من وراء تحرير المرأة الى تحرير المجتمع وإصلاحه، وكان يرى في الحجاب والتستر المفروضين على المرأة حجبا للنور والتطور عن عقلها ونفسها وحياتها وهو يقول: الشريعة الإسلامية لا تحوي نصا يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، وإنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوها وأخذوا بها، وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين والدين براء منها.

قال أنيس المقدسي: لم يكد ينبثق فجر القرن العشرين حتى دوي في مصر صوت هز العالم الاسلامي العربي من أقصاه الى أقصاه، وهو صوت قاسم أمين يدعو أبناء وطنه وملته الى وجوب تعليم الفتاة، وتخفيف الحجاب أو رفعه، وتنظيم الزواج والطلاق، ومنح المرأة حقوقها الاجتماعية وحريتها الطبيعية مستندا في كل ذلك الى النصور القرآنية والنبوية محاولا تفسيرها بما يلائم روح العصر. قد تصدى له المحافظون وعاني منهم ما يعانيه كل مصلح، وإلى ذلك أشار شاعر النيل بقوله:

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ◻ ولم يفقهوا في السفر ما أنت كانته

إلى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم ◻ فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه

مصطفى لطفي المنفلوطي

ولد السيد مصطفى لطفي بمنفلوط من أعمال محافظة أسيوط سنة 1293هـ - 1876م ونشأ في بيت كريم بالدين جليل بالفقه توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية قرابة مائتي سنة. ونهج المنفلوطي سبيل آبائه في الثقافة فحفظ القرآن في المكتب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان على الرغم من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلقي باله كثيرا لغير علوم اللسان وفنون الأدب. فهو يحفظ الأشعار، ويتصيد الشوارد، ويصوغ القريض وينشيء الرسائل، وتسير له شهرة في الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب، فيقربه الأستاذ محمد عبده، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة. ثم يستفيد المنفلوطي من قربه إلى الإمام صلته بعد باشا زغلول، ومن زلفاه لدى هذين العظيمين نفوقه لدى صاحب المؤيد، وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر في تكوين المنفلوطي الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمي الثاني بقصيدة نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالجس وقضى في السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطي فيه على رجائه وسنده، وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم نعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغي في جريدة المؤيد الوسيلة والنجح. ثم صارت إلى سعد باشا وزارة المعارف فعينه محررا عربيا لها. ولما تحول إلى وزارة الحقانية العدل حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. ثم انتقل الحكم إلى غير حزبه فنقل من عمله، حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا في وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو في العقد الخامس من عمره.

أخلاقه

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه، فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، ونسجم الزي، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية وال نشوز الفدامة، كان صحيح الفهم في بطء، سليم الفكر في جهده، دقيق الحس في سكون، هيوب اللسان في تحفظ، وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر الغبي الجاهل، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة: ثم هو إلى ذلك رقيق القلب، عف الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، نفاح اليد، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطي أديبا موهوبا، حظ الطبع في أدبه أكثر من حظ الصنعة، لأن الصنعة لا تخلق أدبا مبتكرا ولا أديبا ممتازا ولا طريقة مستقلة، وكان النثر الفني على عهده لونا حائلا من أدب القاضي الفاضل، أو أثرا مائلا لفن ابن خلدون، ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروبا على أحد القالبين، إنما كان أسلوب المنفلوطي في عصره كأسلوب ابن خلدون في عصره، بديعا أنشأه الطبع القوي على غير مثال.

عالج المنفلوطي الأقصوصة أو الناس وبلغ في إجادتها شأوا ما كان ينتظر ممن نشأة كنشأته في جيل كجيله. وسر الذيوع في أدب المنفلوطي أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب. وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الألم، ويمثل العيوب في أسلوب طلي وبيان عذب، وسياق مطرد، ولفظ مختار. أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أمران: ضعف الأداة وضيق الثقافة. أما ضعف الأداة فلان المنفلوطي لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوي البصر بأدبها. لذلك نجد في تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ في غير موضعه. وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب. لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة. وجملة القول إن المنفلوطي في النثر كان كالبارودي في الشعر: كلاهما أحيا وجدد، ونهج وعبد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال.

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب النظرات في ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره في المؤيد من الفصول في النقد والاجتماع والوصف والقصص. وكتاب العبرات وهو مجموع من الأقاصيص المنقولة والموضوعة. ثم مختارات المنفلوطي من أشعار المتقدمين ومقالاتهم. وقد ترجم له بعض اصدقائه عن الفرنسية: تحت ظلال الزيزفون مجدولين لألفونس كار، وبول وفرجيني الفضيلة لبرناردي سان بيير، وسير انودبر جراك الشاعر لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى رثاء الأدب العري ثروة، وكانت للفن القصصي الحديث قوة وقدوة.

طه حسين

مفكر وأديب مصري واسع الشهرة. عرف بعميد الأدب العربي إذ كان ذا دور فريد في الأدب الحديث تأليفا ودراسة وترجمة ونشرا، وذا دور في بيداني الوطن والثقافة حضا وتوجيها وتطويرا، وأخيرا ذا دور فيرد في حقل التربية إذ أقر التعليم المجاني لأبناء شعبه عندما تولى منصب وزارة المعارف ونادى بمبداإه المشهور التعليم إجباري كالماء والهواء.

ولد طه حسين سنة 1889 بمحافظة مغاغة في مصر العليا وتوفي في 28 اكتوبر سنة 1973 عن عمر يناهز الرابعة والثمانين، وكان ذلك بعد يوم واحد من نيله جائزة الأمم المتحدة لأبرز المنجزات في حقل حقوق الإنسان.

فقد بصره وهو في نحو الثالثة من عمره، ومع ذلك فقد أكب على العلم دراسة وتحصيلا، وبرز في دراسته الأكاديمية ونال أعلى الدرجات العلمية، وكان له في بلاده وي أوروبة أعظم الأثر، ففي سنة 1902 دخل الأزهر وكان أزهريا معمما يكره الأزهر ويثور على تقاليده وتخلفه وضيق آفاقه، وفي سنة 1912 التحق بالجامعة المصرية للدراسة المدنية فنال فيها دكتوراه الأولى في الآداب سنة 1914 على رسالته تجديد ذكرى أبي العلاء، وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الأزهري الناجح، ولا سيما وقد أوفدته الجامعة في بعثة الى السوربون حيث نال دكتوراه الثانية في الفلسفة على رسالته فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما نال شهادة الدراسة العليا في التاريخ وما عتم هذ الفتى الضرير أن اتخذ مكانا أماميا ثوريا مستقبليا في الأدب والفكر العربيين.

في سنة 1925 عين أستاذ الآداب العربية في الجامعة المصرية، وقد درس، فضلا عن الأدب، التاريخ والفلسفة والتربية، وفي سنة 1930 انتدب عميدا لكلية الآداب في تلك الجامعة نفسها، وكان من العناصر الأساسية التي أسهمت في تأسيس جامعة الإسكندرية وقد أصبح في سنة 1943 أول مدير لها.

وفي سنة 1950 اختير وزيرا للتعليم، وفي سنة 1951 منحته كلية تريني بجامعة اكسفورد في انكلترا درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب. وبعد سنة 1952 اعتزل طه حسين العمل الرسمي ومع ذلك فقد منحته الدولة سنة 1958 جائزتها التقديرية للآداب.

بدأ حياته الصحافية سنة 1910 في الجريدة، وفي سنة 1933 تفرغ للصحافة في جريدة كوكب الشرق، وكان في الخمسينات واحدا من رؤساء تحرير صحيفة الجمهورية.

في سنة 1917 تزوج فرنسية تدعى سوزان وأنجب منها السيدة أمينة حرم الدكتور محمد حسن الزيات، والدكتور مؤنس الذي كان يعمل في منظمة الأونسكو بباريس.

القصاص

أراد طه حسين أن يكون الأدب العربي صورة للحياة الحديثة وتعبيرا عن حضارة العصر، وكان أبدأ مؤمنا أن الإنسان يحقق ذاته في الحضارة، وأن الحضارة هي سيطرة العقل على الطبيعة والحياة، وأن هذه الحضارة التي بلغت مبلغا عظيما في أوربة يجب أن تعود الى مصر وأن تعود مصر الى المشاركة في البناء الحضاري الذي كانت من واضعيه ورافعي مداميكه، وهذا لا يكون إلا بالإكباب على التراث القديم تفهما وتعريبا، وعلى التراث الحديث دراسة، وأخذا بأساليبه وفنونه. ولهذا أراد طه حسين أن يجاري أدباء الغرب في كتابة القصة الحديثة، قصيرة وطويلة، وأن يعرب مجموعة من القصص الغربي حتى يقرأها العرب ويسيروا في الطريق التي اختطها لهم.

رجل الاجتماع

عالج طه حسين التربية والاجتماع في عدة كتب وأبحاث، يدفعه الى ذلك ما شاهد وما خبر في أوربة، ثم ما اطلع عليه في مطالعاته المختلفة. وكانت مصر في حالة تخلف تحتاج الى من يخط لها طريق التقدم، ويساعد ابناءها والقيمين على مقدراتها في انتهاج طريق الرقي الحضاري. ومن أهم ما كتب في الموضوع، مستقبل الثقافة في مصر، والوعد الحق، وفلسفة ابن خلدون الاجتماعية، وقادة الفكر.

توفيق الحكيم

ولد توفيق الحكيم بالإسكندرية سنة 1878 من أب مصري كان يشتغل في سلك القضاء وأم تركية لها طبع صارم وذات كبرياء واعتداد بأصلها الارستقراطي. ولما بلغ سن السابعة الحقه أبوه بمدرسة حكومية ولما أتم تعلمه الابتدائي اتجه نحو القاهرة ليواصل تعلمه الثانوي. ولقد أتاح له هذا البعد عن عائلته شيئا من الحرية فأخذ يعنى بنواحي لم يتيسر له العناية بها إلى جانب أمه كالموسيقي والتمثيل. ولقد وجد تردده على فرقة جورج أبيض ما يرضي حاسته النية لانجذاب إلى المسرح. وبعد حصوله على الباكالوريا التحق تكلية الحقوق نزولا عند رغبة والده الذي كان يود أن يراه قاضيا كبيرا أو محاميا شهيرا.

وفي هذه الفترة اهتم بالتأليف المسرحي فكتب محاولاته الأولى من المسرح مثل مسرحية الضيف الثقيل والمرأة الجديدة وغيرهما إلا أن أبويه كانا له بالمرصاد فلما رأياه يخالط الطبقة الفنية قررا إرساله إلى باريس لنيل شهادة الدكتوراه.

لقد وجد في باريس ما يشقي غليله من الناحية الفنية والجمالية فزار المتاحف وارتاد المسارح والسينما. وهكذا نرى الحكيم يترك دراسته من أجل إرضاء ميوله الفنية والأدبية.

وفي سنة 1928 عاد توفيق الحكيم إلى مصر ليواجه حياة عملية مضنية فانضم إلى سلك القضاء ليعمل وكيلا للنائب العام في المحاكم المختلطة بالإسكندرية ثم في المحاكم الأهلية.

وفي سنة 1934 انتقل الحكيم من السلك القضائي ليعمل مديرا للتحقيقات بوزارة المعارف ثم مديرا لمصلحة الإرشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية.

استقال توفيق الحكيم من الوظيفة العمومية سنة 1934 ليعمل في جريدة أخبار اليوم التي نشر بها سلسلة من مسرحياته وظل يعمل في هذه الصحيفة حتى عاد من جديد إلى الوظيفة فعين مديرا لدار الكتب الوطنية سنة 1951 وعندما انشئ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب عين فيه عضوا متفرغا وفي سنة 1959 قصد باريس ليمثل بلاده بمنظمة اليونسكو لكن فترة إقامته هناك لم تدم طويلا إذ فضل العودة إلى القاهرة في أوائل سنة 1960 ليستأنف وظيفته السابقة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب. ولقد منحته الحكومة المصرية أكبر وسام وهو قلادة الجمهورية تقديرا لما بذله من جهد من أجل الرقي بالفن والأدب وغزارة إنتاجه كما منح جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام 1961.

ومن مؤلفاته أهل الكهف، شهر زاد، صلاة الملائكة، اللص، الصفقة، السلطان الحائر، الطعام لكل فم، بنك القلق، راهب بين النساء.

نجيب محفوظ

ولد نجيب محفوظ عبد العزيز ابراهيم احمد الباشا في القاهرة. والده الذي كان موظفا لم يقرأ كتابا في حياته بعد القرآن غير حديث عيسى بن هشام لأن كتابه المويلحي كان صديقا له. كان عمره 7 أعوام حين قامت ثورة 1919 التي أثرت فيه وتذكرها فيما بعد في بين القصرين أول أجزاء ثلاثيته.

التحق بجامعة القاهرة فيذ 1930 وحصل على ليسانس الفلسفة، شرع بعدها في إعداد رسالة الماجستير عن الجمال في الفلسفة الإسلامية ثم غير رأيه وقرر التركيز على الأدب. انضم إلى السلك الحكومي ليعمل سكرتيرا برلمانيا في وزارة الأوقاف 1938-1945، ثم مديرا لمؤسسة القرض الحسن في الوزارة حتى 1954 وعمل بعدها مديرا لمكتب وزير الإرشاد، ثم انتقل إلى وزارة الثقافة مديرا للرقابة على المصنفات الفنية. وفي 1960 عمل مديرا عاما لمؤسسة دعم السينما، ثم مستشارا للمؤسسة العامة للسينما والإذاعة والتلفزيون آخر منصب حكومي شغله كان رئيس مجلس إدارة المؤسسة العامة للسينما 1966-1971، وتقاعد بعده ليصبح أحد كتاب مؤسسة الأهرام.

تزوج نجيب محفوظ في فترة توقفه عن الكتابة بعد ثورة 1952 من السيدة عطية الله إبراهيم.

بدا نشر رواية أولاد حارتنا مسلسلة في جريدة الأهرام، ثم توقف النشر بسبب اعتراضات هيئات دينية على تطاوله على الذات الإلهية. لم تنشر الرواية كاملة في مصر إلا عام 1967.

في اكتوبر 1995 طعن نجيب محفوظ في عنقه على يد شاب قد قرر اغتياله لاتهامه بالكفر والخروج عن الملة بسبب روايته المثيرة للجدل.

توفى نجيب محفوظ في 30 أغسطس 2006 إثر قرحة نازفة بعد عشرين يوما من دخوله مستشفى الشرطة في حي العجوزة في محافظة الجيزة لإصابته بمشاكل في الرئة والكليتين. وكان قبلها قد دخل المستشفى في يوليو من العام ذاته لإصابته بجرح غائر في الرأس إثر سقوطه في الشارع.

الرواية نشأتها وتقدمها في مصر

إنّ نشأة الرواية في الأدب العربي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة في العالم العربي خاصة مصر، وبعد العصر العباسي وبداية الحكومة العثمانيّة وبعده في القرون الثلاثة التي سيطر عليها الحكم التركي على مصر أغلقت المدارس بل هدمت وانتهت ...وتعطلت الحركة الأدبية، بل تحجرت وانحرفت اللغة، بل فسدت ... ومن هنا أصبح الأدب في حالة من السقم تقارب الموت فكانت تمثله نماذج نثرية وشعرية، ليس وراءه أي صدق إحساس أو فنية تعبير ... وقد كان أغلب النتائج الأدبي لتلك الفترة تدور حول المدائح النبوية والأمور الإخوانية والمراثي الباردة والمواعظ المباشره...

فترة اليقظه في العصر الحديث

بعد هذا الركود جاءت فترة اليقظه، الفترة التي تبدأ بتلك السنوات التي شهدت خروج البلاد من ظلمات العصر التركي، لتفتحّ عيونها على نور الحضارة الحديثة ولتأخذ طريقها في موكب المدنية المتقدمة ... ومن الممكن تحديد تلك البداية بسنوات الحملة الفرنسية ومن سنة، (1798 إلى 1801م)، أي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ...

يلخص نتيجة هذه الحملة أولاً: تعرّف المصريين على الحضارة المدنية الغربية على حد ما، وثانياً: تكوين إحساس بالشعور القومي أمام المحتلين وبعد خروج الفرنسيين عن مصر، انتخب الشعب "محمّد علي" للحكم في مصر، قد استقدم محمّد علي أول الأمر الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس المختلفة ونظراً لعدم معرفة هؤلاء بلغة البلاد ومعرفة التلاميذ بلغتهم، فقد استعان بالمترجمين من السوريين والمغاربة وغير هم ...

ثم أرسل محمّد علي البعثات إلى أوروبا، ليقوم أبناؤها فيما بعد بمطالب الجيش، وللتدريس في تلك المدارس ... وقد تعددت البعثات وتنوعت... وهكذا كان أول لقاء عملي بين المصريين والثقافة الغربيّة في العصر الحديث ...فقد عاد هؤلاء المبعوثون بعلم جديد وعقليّة جديدة إلى بلادهم ... وترجموا أو ألفوا وخططوا بهذا ووضعوا أساس الثقافيّة الأدبيّة الحديثة .لقد كان النثر في هذه الفترة يعبرعن موضوعات ساذجة ويتقوقع في الرسائل والمقامات ونحوها من الأنواع التقليديّة ...على أنّ بعض النثر قد خطا خطوة أبعد من تلك الأغراض الساذجة ... وأصبح يحمل زاداً فكرياً حيناً وتجارب إنسانية حيناً آخر ... وكان باكورة ذلك كتاب تلخيص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي ...تحدث فيه رفاعة عن رحلة إلى باريس ... والباحثين يعتبره البذور الأولى للرواية التعليميّة في الأدب الحديث .

وكان طبيعياً أن يأخذ كتاب "رفاعة الطهطاوي"، "تلخيص الإبريز" شكل رحلة كان فيها أكثر تعليمية ومباشرة من كتب الرحالة العرب القدامي... ،.و رغم أنّ الكتاب قد جاء مزيجاً من خصائص كتب الرحلات والكتب العلميّة... مع خلو تام من كل عنصر الروائي ...ثم بعد الاتصال بأوروبا والتأثر بآدابها اتّجه الأدباء، إلى القصص العربية وحاولوا أن يترجموها و كان رفاعة الطهطاوي هو الرائد لهذه الحركة، فترجم "مغامرات تليماك"،"لفنلون "وسماها مواقع الأفلاك في وقائع تليماك... فانّه نقل القصة إلى أسلوب السجع والبديع، المعروف في المقامات ... يقول رفاعة الطهطاوي في مقدمة تليماك: إنّه مشتمل على الحكايات النفايس في ممالك أوروبا وغيرها وعليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس فإنّه دوّن كل كتاب مسخون بأركان الأدب ومشتمل على ما به كسب بأخلاق النفوس الملكية وتدابير السياسات الملكية .وتعد "وقائع تليماك" أول مظهرمن مظاهر النشاط الروائي في مصر في القرن التاسع عشر والهدف التعليمي واضح من مقدمته التي كتبها رفاعة على الرواية المترجمة، وسماها

ديباجة الكتاب ... وواضح أنّ رفاعة ترجم روايته لهدفين، الهدف الأول، تقديم نصائح للملوك والحكام والهدف الثاني، تقديم مواعظ لتحسين سلوك عامة الناس. ثم قدّم فرح أنطون قصة في نفس الشكل كان مجالها المشاكل الاجتماعية واختار علي مبارك مجال الرحلة أيضاً لجهوده التعليمية في كتاب، "علم الدين "وكتابه أكثر جفافاً عن كتب الرحالة العرب القدامى وإن كان يتميز هو وفرح أنطون بأنّ رحلة كل منهما التعليميّة، كانت رحلة متخيّلة ... وإن كان ذلك لا يميزها عن قصة "حي بن يقطان"، التي كانت أحداثها متخيّلة أيضاً .و لم يكن تعليم العلوم هو القصد الوحيد لعلي مبارك من كتابه ولكنه حاول المقارنة بين بعض العادات الشرقيّة والغربيّة ولذلك كان علي مبارك ينظر في كتابه إلى طلبة في المدارس المدنيّة الأخرى إلى مشايخ الأزهر، الذين رفضوا محاولاته لإدخال العلوم الحديثة في الأزهر...ولذلك اختار في روايته شيخاً أزهرياً وسماه "علم الدين" ... وعلي مبارك يقدّم لنا بهذه الصورة المقارنة بين العادات الشرقيّة والأوروبيّة وهي المحاولة التي سنلتقي بها في صورة أكثر تطوراً في حديث "عيسى بن هشام ..."

التيار التعليمي الخالص في بداية القرن العشرين

اقترب المويلحي في "حديث عيسى بن هشام"، وحافظ إبراهيم في "ليالي سطيح"، من أشكال النشاط القصصي الذي اعترف به كبار مثقفي تراثنا وهوشكل المقامة . ومن عنوان كتاب المويلحي ومن إهدائه لكتابه، تظهر صلته بالتراث العربي القديم وبزعماء الإصلاح الديني والاجتماعي واللغوي الذين كانوا يهدفون في إصلاحهم إلى إحياء هذا التراث وهو لا يسمى كتابه قصة أو رواية وانمّا يسميه حديث عيسى بن هشام وهو يذكرنا في عنوانه بالمقامة من ناحيتين، الناحية الأولى تتمثل في طبيعة من حيث تصويرها ... وأما من حيث الإهداء، فقد أهدى كتابه لوالده رمز الصلة التي تربطه من ناحية، ولكونه شق له طريق التأثر بالمقامة في كتابه حديث موسى بن هشام الذي اعتمد على أسلوب المقامة اعتماداً كبيراً ...

ولكن، مما يفرّق بين حديث عيسى بن هشام وبين المقامة من ناحية والرواية التعليميّة التي سبقته من ناحية أخرى، أنّه حاول إيجاد رابطة داخليّة بين فصول كتابه وهذه الرابطة وإن بدت ضعيفة باهثه...فانّها ظاهرة جديدة على الرواية التعليمية... فالمقامات تعبر عن مجموعة من المواقف المنفصلة ...فانّ مجال المقارنة بين المقامة وبين القصة القصيرة أوسع من مقارنتها بالرواية .تيار ما بين التعليم والتّرفيه أو الرواية التاريخيّة وبعد التيار التعليمي الخالص، نصل إلى تيار ما بين التعليم والتّرفيه، ويعتقد الأدباء بأنّ هذا التيار قد بدأ بيد المهاجرين الشوام، الذين كانوا بحكم ظروفهم أكثر إقبالا على الثقافة الأوربيّة وآدابها وفي الوقت الذي كان المثقفون المصريون والمتمصرون مشغولين فيه بمحاولة تثقيف المصريين وتعليمهم، ثم بمحاولة الإصلاح الاجتماعي وبثّ التراث العربي القديم، كان المهاجرين الشوام مشغولين بنقل الأشكال الأدبيّة العربيّة إلينا .وفي الحقيقة، ظهر هذا الاتجاه الروائي

التاريخي على يد "جورجي زيدان"...قدم سلسلة من الروايات التاريخيّة التي تضم في ثنايا البناء القصصي أطراف التاريخ الإسلامي في المشرق والمغرب فقدم، "فتاة غسان" لعرض الأحداث التاريخيّة التي صاحبت الغزوات الإسلاميّة الأولى... وقدم "أرمانوسة المصريّة"، لعرض الأحداث التاريخيّة التي صاحبت فتح العرب لمصر وكتب "عذراء قريش" و"غادة كربلاء" و"الحجاج بن يوسف" للتاريخ للوقائع التي حدثت خلال الصراع السياسي و ...

و تحتوي كل رواية من روايات جورجي زيدان عنصريين أساسيين، الأولى عنصر تاريخي يعتمد على الحوادث والأشخاص التاريخية، والثاني عنصر خيالي يقوم على علاقة غرامية بين محبين ...

ومن جانب آخر قد حاول، "فرح أنطون" تقليد جرجي زيدان في رواياته التي تجمع بين تعليم التاريخ والغرام، فكتب روايته "أورشليم الجديدة"، التي يتحدث فيها عن فتح العرب لبيت المقدس في عهد الخليفة عمر، وقد ضمنها عنصراً غرامياً ولكنه أضعف بكثير من العنصر الغرامي عند جرجي زيدان ...

ميلاد الرواية الفنية في مصر

بعد التطورات التي مرّت ذكرها عندما ذكرنا نشأة الرواية العربية، وصلت الرواية إلى المرحلة التي تحاكي قصص الغرب فى حين، تسعى أن تستحفظ التراث العربي القديم، وبعض الكتاب قد سعوا إلى كتابة روايات بصيغة مقامة، ولكن نرى، أنّ أغلب الكتب التي عالجت نشأة الرواية الفنية، اعتبرت الرواية، زينب، للدكتور "محمّد حسين" هيكل كأول نشاط علمي لهذا الفن فى الأدب العربي.

تختلف الرواية الفنية عن الرواية غير الفنية فى عدة مسائل ولكن الأسس التي تفرق بين الرواية الفنية عن غيرها، تنحصر في اتجاه الرواية الفنية إلى الواقع ولا تعتمد على الوهم والإسراف فى الخيال وأيضاً أنّ الرواية الفنية تحترم التجربة الذاتيّة والحس الفردي ولكن الأشكال الأخرى تعتمد على المطلق والمجرد والمثال .الرواية عبارة عن خيال نثري طويل له طول معين، ولكن الرواية الفنية عبارة عن، نثر روائي واقعي كامل فى ذاته وله طول معين، والصفة الواقعيّة هنا جاء بمعنى عام، بمعنى الحياة الواقعيّة بخلاف الرومانس التي تتجه إلى الهروب من الواقع وكلاهما يختلف موقفهما من الحدث، وبناء العقدة، ورسم الشخصية .ومن جانب آخر، نرى بأنّ الرواية التّسلية والتّرفيه،- أى الرواية غير الفنية- تتجه فى اختيار أحداثها إلى إرضاء فضول القارىء، وذكر الحوادث العجيبة، والغريبة، ولا تكشف عن إحساس خاص للأديب ولا يخضع وقوع الأحداث فى هذه الرواية للسببية، ولكنّه يخضع لمجرد رغبة المؤلف فى إشباع فضول قارئه إلى المزيد من العجائب والمدهشات وأيضاً أنّ الرواية الفنية فى بناء العقدة تعكس موقفاً حضارياً وتحترم التجربة الإنسانية، ولا تعتمد على الأساطير والتاريخ القديم .

محمد حسين هيكل و روايته "زينب"

إنّ حياة محمّد حسين هيكل (1888-1956) يمكن أن تلقى ضوءاً كاشفاً على ظروف نشأة الرواية في مصر، ذلك أنّ هيكل ابن للطبقة البرجوازية الفنية، قريبة العهد فى الظهور فى البيئة المصرية، ومن هنا يقترن ميلاد الرواية بميلاد الطبقه الوسطى ... و في مجال الربط بين الشعور القومي وظهور الرواية العربية ... هو من أوائل من عبّروا تعبيراً واضحاً عن الشخصية المصرية، أى أنّه عبر عن الوجدان القومي لشعب يزيد أن يثبت وجوده وشخصيته وطابعه المستقل ولذلك يرى بعض الباحثين أنّ رواية زينب تعد تمهيداً لثورة 1919م، وأنّها صدرت عن وجدان قومي خالص، يهدف إلى تمجيد مصر والتغني بها ...

تعد روايه زينب، أول رواية فنية فى تاريخ الأدب العربي، الذى بدأ كتابتها وهو فى باريس، يدرس الاقتصاد السياسي سنة 1910م، وأكملها سنة 1911م، ونشرها سنة 1912 م،... ورواية زينب تصور واقع الريف المصري فى تقاليده القاسية وطبيعته السمحة...فهي تحكي قصة شاب مثقف من أبناء الطبقة المتوسطة اسمه "حامد"، يحب ابنة عم له اسمها "عزيزة"، وتحول التقاليد القاسية فى الريف دون التعبيرعن هذا الحب... ثم أختار أهلها زوجا آخر لها، ويحرم منها حامد نهائياً، ثم يجد حامد، بعض العزاء عند فتاة ريفية من الطبقة الكادحة اسمها زينب ولكن تفضل عليه " إبراهيم" رئيس العمال الذي تعمل تحت إشرافه...ويتم حرمان من زينب ...وفى خلال الرواية نرى بأنّ زينب تزوج مع رجل آخر .

في الحقيقة تسعى هذه الرواية أن تبين للقارىء، حالة القرية التي لا تعترف بمشروعية الحب بين الرجل والمرأة وأنّ التقاليد القاسية، ترسم خطوط العيش ولابّد للناس أن يستسلم أمام هذه التقاليد القاسية ومصيرهم القدري .وإن كان محمّد حسين هيكل فى روايته زينب تأثر إلى حدّ كبير بالأدب الفرنسي حال كونه يشكو لبعده عن الوطن وحنينه له ولقريته... ولكن قد استطاع أن يقدّم رواية فنيّة واقعيّة يبين زاوية من الحياة الريفيّة .وأخيراً نقول: نجح هيكل بهذا فى روايتي التعليم والتسلية والتى كانت تدور فيها الأحداث غالباً بمعزل عن الواقع...وقد استطاعت رواية زينب أن يؤخرعن عدد من الأعمال الروائية التي أتت بعدها والتقت معها في موقعها الريادى من ناحية وفي غلبة طابع الاعترافات الذاتية عليها من ناحية أُخرى .

تنوع الرواية الفنية

وهكذا ظفرت هذه الفترة بعدد غير قليل من الروايات الفنية، كما شهدت تنوعا ملحوظا في اتجاهات هذه الروايات، وعرفت من خلالها فنا روائيا أصح وأدق، وأنضج وأقوى... ويمكن تصنيف أهم الروايات التي كانت من نتاج هذه الفترة فيما يلي:

1. الرواية التحليلية: ويشمل هذا الصنف رواية ثريا لعيسى عبيد، ورواية رجب أفندى لمحمود تيمور، ثم رواية لأطلال للمؤلف نفسه. وأخيرا رواية أديب للدكتور طه حسين.
2. رواية التجربة الذاتية ويشمل هذا الصنف رواية إبراهيم الكاتب للمازني، ورواية سارة للعقاد، ورواية وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، ورواية ندء المجهول لمحمود تيمور.
3. رواية الطبقة الاحتماعية: ويشمل هذا الصنف رواية حواء بلا آدم لمحمود طاهر لاشين، ودعاء الكروان لطه حسين.
4. الرواية الذهنية : وتمثل هذا الصنف رواية عودة الروح لتوفيق الحكيم
5. الرواية التاريخية: وتمثل صنفها رواية ابنة المملوك لمحمد فريد أبي جديد، وعبث الأقدار لنجيب محفوظ.

الرواية التحليلية

ويقصد بها تلم الرواية التي يبرز فيها جانب التحليل النفسي، حتى يكاد يطغى على بقية عناصر الرواية. فالأحداث والشخصيات والحوار وغير ذلك من مقومات الرواية، تأتي في المكان الثاني أو ما دون الثاني، حيث يتصدر جانب التحليل النفسي للبطل، وحشد كل ما يمكن من هذا التحليل ويعين عليه، من معرفة ماضي هذا البطل وبيئته، وما تكون لديه من عقد، أو ما ضج به عالمه النفسي من صراعات. حتى ليختار البطل لهذا اللون من الروايات من ذوى الميو النفسية غير السوية، بل من ذوى العقد والأمراض النفسية أحيانا. وهكذا تأتي الرواية بمثابة تحليل نفسي، لخبايا نفس معينة، وبيان كيف دفعتها ظروف خاصة إلى سلوك غير سوى، أو سلوك غريب على وجه العموم. ولا مانع بعد ذلك أن يكون للرواية بالإضافة إلى كل هذا هدف اجتماعى أو إصلاحي أو نحو ذلك.

رواية التجربة الشخصية

والمقصود بها الرواية التي يرتكز محورها الرئيسى على تجربة عاناها المؤلف، حيث كان بطلها، ومدار أهم أحداثها، وحيث كانت تلك الأحداث تمثل جزءا من حياة البطل أو صفحة من حياته، كل ذلك بشرط أن يعبر المؤلف عن تلك التجربة الشخصية في قالب روائي تتوفر فيه أهم عناصر الرواية، وذلك ليبعد العمل عن أن يزن ترجمة ذاتية أو اعترافات أو يوميات، أو ما شاكل ذلك من كتابات تدور أساسا حول الكاتب وحياته.

ومن أهم ما يباعد بين رواية التجربة الشخصية التي تقوم أساسا على تجربة المؤلف، وبين الترجمة الذاتية والاعترافات واليوميات، اختيار الأحداث اختيارا فنيا صالحا للتأليف الروائي، وعدم حشد تلك الأحداث كأنها تاريخ يدون، بل عرضها كعناصر روائية تنمو وتتطور لكي تصل إلى نهاية معينة، وذلك بتدخل المؤلف في ترتيبها ترتيبا يحقق الفنية القصصية، وعدم الاكتفاء بإيرادها حسب وقوعها الزمن.

ومن أهم ما يحقق التجربة الشخصية بعد ذلك، عملية الإضافة والخدق التي تفرض مزج الواقع بشيء من الخيال، وربط الأحداث الرئيسية الواقعة، بأحداث جانبية مخترعة، وتجلية الشخصيات المحورية الكائنة بشخصيات ثانوية مولدة. كل هذا بالإضافة إلى ما قد يكون من أختراع أسماء جديدة لبعض الشخصيات، أو ذكر صفات توهم المغايرة بينهم من جانب، وبين المؤلف ومن شاركوه في أحداث تجربته من جانب آخر.

والذي يمثل هذا اللون من الروايات الفنية في الفترة التي يساق عنها الحديث، أعمال أربعة هي: إبراهيم الكاتب للمازني، وسارة للعقاد وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، ونداء المجهول لمحمود تيمور.

رواية الطبقة الاجتماعية

ويقصد بها هذا اللون من الروايات الذي يهم بتقديم قضية من قضايا الطبقة الفقيرة في صراعها من أجل تحسين وضعها، أورفع مستواها، أو صعودها إلى الطبقة الأعلى. وهكذا تكون المشكلة الطبقية هي أبرز ما تقدم الرواية، وأهم ما يعنى المؤلف بتصويره، وليس ما يمنع بعد ذلك أن يلجأ الكاتب إلى طريقة التحليل حين يعرض لنفس التطل أو غيره من الشخصيات، بل ليس ما يمنع أيضا أن تكون أهم أحداث الرواية تمثل تجربة شخصية للمؤلف، قد صاغها في قالب روائي. مستخدما وسائل فنية مختلفة، تبعدها عن أن تكون جزءا من ترجمة حياته. فالمهم في هذا التصنيف

هو النظر إلى المحور الرئيسي في العمل الفني أو إلى الطابع الغالب عليه. ولهذا قد يطيب لبعض الباحثين أن يجعلوا رواية ضمن هذا الصنف أو ذاك، مخالفين ما سار عليه هذا البحث من تصنيف. والأساس في هذا كله اختلاف النظرة وما يتبعها من اعتبار للخط البارز والطابع الغالب.

دعاء الكروان لطه حسين

وهذه الرواية من روايات الطبقة الاجتماعية، برغم أن صاحبها يورد في مقدمتها ما يفيد أنها من روايات العادات والتقاليد، وذلك حين يذكر في المقدمة أمله في حقن الدماء البريئة التي تذهب ضحية عادة الثأر، وحين يجعل موضوع الثأر من أهم الأحداث التي توجه مسار الرواية. فمع هذا كله تبدو في دعاء الكروان صورة رائعة لكفاح الطبقة الفقيرة من أجل التغلب على واقعها، ولتضحياتها في سبيل الارتقاع بمستواها، ولا نفساح الأمل أمامها في الالتحام بالطبقة الأعلى عن طريق الثقافة وطرح الحقد من جانب الطبقة الدنيا، وعن طريق الوعى الإنساني والتعاطف من جانب الطبقة العليا.

فدعاء الكروان قصة أم وابنتيها من الطبقة الفقيرة، كن يعشن أولا مع أسرتهن في قرية بني وركان، إحدى القرى الصعيدية النائية، التي تقع على مشارف الصحراء الغربية عبر النهر، ثم طردن من القرية حين اتهم والد البنتين في حادث أخلاقى قتل بسببه، وأصبح وجود زوجته وبنتيه مما يذكر الناس بفعلته، ويجر عارا على الأسرة بين سكان القرية، وقد اتجهن إلى المدينة التي يصادفها القادم من الغرب بعد أن يقطع جزءا من الصحراء ثم يعبر النهر. ولكي يعشن، عملن في خدمة بعض البيوت بالبندر، وكان نصيب هنادي البنت الكبر، العمل في بيت مهندس شاب أعزب، وكان نصيب آخنة البنت الصغرى، العمل في بيت المأمور. وقد استأجرت أمهما زهرة حجرة صغيرة لتستقر بها ولتلتقى فيها ببنتيها آخر كل أسبوع.

وكان المهندس الشاب الذي تعمل عنده هنادى يتخذ ممن يعملن عنده أدوات للهوه ونزواته، وذلك بحكم فراغه وشبابه، وعدم وعيه أو تعاطفة مع من هم دونه من القائمين على خدمته. ولهذا ما لبث أن اعتدى على خادمته الطريدة الفقيرة الساذجة الجاهلة، حتى حملت منه سفاحا.

وكان المأمور الذي تعمل عنده آمنة رب أسرة مستقلة سعيدة له زوجة طيبة وبنت عطوف، منحت خادمتها كثيرا من البر والحنان، حتى لقد قامت بين آمنة وخديجة صداقة، كان من نتائجها أن أصبحت الخادمة شبه زميلة لسيدتها الصغيرة، تستمع معها إلى دروسها الخصوصية، وتجلس إليها ساعات مذاكرتها، وتعرف عن طريقها علما وثقافة تغيران شخصيتها أعظم تغيير.

وذات ليلة اجتمعت الأم بابنتيها في حجرتها، وعرفت ما كان من أمر هنادي التي حملت سفاحا. ففزعت أشد الفزع، وحزفت أعمق الحزن، ولم تجد بدا من ترك المدينة، التي جرت على ابنتها وعليها هذه الكارثة الكريهة، فقررت العودة إلى القرية، فمهما كان فيها من ضر فلن يكون كهذا الضر الذي جلبه الجلاء عنها.

ومضت الأم ببنتيها خارج المدينة، واتجه الجميع ناحية الغرب، دون أن تعرف آمنة شيئا عن سبب هذا القرار المفاجيء المحزن، الذي قطع عليها حياتها السعيدة في بيت المأمور، وحرمها أشعة النور التي كانت تتسلل إليها من خلال صحبتها لخديجة.

وفي الطريق استراحت الأم وابنتاها في دار عمدة خير، وظللن عنده أياما حزينات واجمات شاردات، لأن لكن منهن شأنا يشغله ويستغرقه ويثقل صدره. وخلال الأحاديث القليلة التي كانت تقطع الصمت الطويل، عرفت آمنة ما كان من أمر أختها الضحية هنادى، فأشفقت عليها أعظم الإشفاق، وحنت عليها أبلغ الحنو، وما زالت بها تحاول التخفيف عنها وبث الثقة فيها. كما تعرفت على بعض النسوة اللائي كن ينزلن مثلهن ضيفات في بيت العمدة، وهن في طريق السفر. وكان من أبرز هؤلاء النسوة زنوبة تلك المرأة الجريئة التاجرة، التي تعمل في المدينة في تجارة الحبوب وتوريد الخادمات.

وجاء أخو زهرة من قريته النائية ليأخذ أخته وابنتيها، بعد أن أرسلت إليه من أخبره بأمرهن. وقد كان هو نفسه الأخ والخال القاسى الذي حمل المرأة وابنتيها على ترك القرية منذ مدة فرارا من العار.

واصطحب الرجل النسوة الثلاث ومضى في الصحراء، وعند مكان منقطع في الطريق، أمر الخال الجميع بالتوقف عن السير، ودعا هنادى ابنة أخته إليه، وقبل أن تتبين مراده طعنها بخنجر طعنة قاتلة، فسقطت على الأرض حيث واراها حفرة كان قد أعدها، ثم أسر اخته وابنتها الباقية أن تشيعا ان موت هذه البنت – القتيلة – كان بسبب الوباء، وحذرهما أن تخالفا هذا الأمر، ومضى بهما إلى القرية التي كان قد أخرجهما منها منذ حين.

وفي القرية سقطت آخنة مريضة حزنا على ما لحق بأختها، وامتلأت حقدا على أمها التي دعت الخال وصرحت له بما حمله على اغتيال هذه الأخر، كما فاضت حقدا على الخال الذي اقترف هذه الجريمة، بل هذه الجرائم البشعة. وحين خفت عنها وطأة المرض، رأت أن لا حياة لها في هذا الجو الخانق، فهي لا تطيق أمها، ولا تتحمل ظل خالها، ولا ترى في القرية إلا سجنا كريها تجب مغادرته ما أمكنت الفرصة.

وانتهزت آمنة فرصة غياب خالها عن القرية، وتسللت منها متجهة شرقا، وما زالت تضرب في الطريق حتى وصلت بعد لأى إلى المدينة، فاتجهت من فورها إلى البيت الذي وجدت فيه العطف والثقافة، وهو بيت المأمور، ثم استأنفت حياتها في هذا البيت، بعد أن اعتذرت لأهله عن رحيلها المفاجيء إلى القرية بسبب مرض أختها، ثم ذكرت لهم موت هذه الأخت دون أن تفصل الحقيقة، وبكت ما وسعها البكاء، مما زاد عطفهم عليها وغفرانهم لها ما كان قد طرأ عليها من تغير ووجوم.

غير أن آمنة منذ رجعت كانت تفكر في أمر هذا المهندس الذي ذهبت أختها ضحيته، وكانت تود لو تستطيع الانتقام منه حتى يدفع ثمن جريمته. وكان هذا المهندس يقطن بيتا قريبا من منزل المأمور، وكانت آمنة تستطيع أن ترقب هذا البيت من بعض نوافذ المنزل الذي تعيش فيه، وعن هذا الطريق عرفت الكثير عن حياة المهندس، كما تعرفت على البستانى الذي يرعى حديقة بيته، ثم على خادمة التي تعمل مكان أختها عنده. وكانت كلما زادت معرفة بأمره، زادت حقدا عليه ورغبة في الانتقام منه.

وذات يوم رأت حركة غير عادية في البيت المأمور. وما لبثت أن عرفت أن جارهم المهندس قد تقدم لخطبة خديجة صديقتها وحبيبتها قبل أن تكون سيلتها. وارتاعت آمنة حين تصورت أن تكون خديجة هذه الطيبة الطهور، زوجة لهذا المهندس الفاجر الآثم، ولكنها كتمت مشاعرها وتظاهرت بالفرحة، ومع ذلك دبرت للأمر. فتقدمت في حياء إلى سيدتها الكبيرة، وفي سرية تامة أفضت إليها بقصة المهندس مع أختها، فشكرتها السيدة، ثم فسخت الخطبة. ،أصرت آمنة على ترك العمل في المنزل مخافة أن تفشى السر ذات يوم إلى خديجة، وكراهة أن تظل معها ثم تخفى عنها سرا كبيرا يتصل بها.

واتجهت آمنة من فورها إلى زنوبة هذه التاجرة المخدمة، التي كانت تعرفت بها في بيت العمدة، فألحقتها بعمل عند أسرة طيبة، ما لبثت أن أخرجت منه نتيجة لولعها بالقراءة واصطحابها لبعض كتب أبناء هذه الأسرة. وهنا اتجهت إلى زنوبة من جديد، حيث حققت لها أمنية عزيزة، وهي العمل عند هذا المهندس الذي خرجت خادمته منذ قليل، والذي كانت آمنة منذ قدومها إلى المدينة هذه المرة تدبر أمر اللقاء به، وتعمل على التسلل إلى بيته لكي تنتقم لأختها منه.

وانتقلت إلى بيت المهندس، ولم تعد تخشى أن يراها أحد من منزل المأمور، بعد أن انتقل من المدينة... وبدأ المهندس يناوشها طمعا في أنوثتها، وظنا أنها مثل ما سبقتها من الخادمات. ولكن آمنة ظلت تتمنع عليه ولا تمكنه من شيء، وهي في الوقت نفسه تتعرض له ولا تقطع من نفسه الأمل، حتى تحول اشتهاؤه إلى حب. وبدأ يحسن معاملتها ويترفق بها، وأخذ يتضح من سلوكه أنه محب معذب. وهنا بدأت مشاعر آمنة تتحول نحوه من كراهية منه إلى حب له، ومن رغبة في الانتقام منه إلى أمل في الاحتفاظ به. وصار كل منهما يحس أن الآخر ضرورة له وأن لا حياة له بغير صاحبه.

ونقل المهندس إلى القاهرة وقال لآمنة لن أضايقك بعد اليوم، وستستريحين متى إلى الأبد، فسوف أسافر تاركا هذه المدينة وكل من فيها. فرجته أن يقبلها خادمة له في القاهرة، ففرح وصحبها معه. وعاش مع والديه وقد صلحت حاله، وترك كل سهراته ومباذله، حيث كان يجد في قرب آمنة منه ما يعوضه أنبل تعويض.

وذات يوم فاتحها في أمر الزواج منه، فأبت، وحين فهم أن رفضها ربما كان رعاية لوضعه في أسرته، وخوفا من غضب أهله عليه، راح يقنعها بأن حبهما لا يستطيع أحد أن يقف في سبيله، وأنه هو قادر على إقناع الأهل والأسرة بمباركة هذا الزواج. ثم ألح عليها في معرفة السبب في الرفض، فلم تجد بدا من أن تحكى له كل ما كان من أمرها معه.. واعترفت بكراهيتها السابقة نحوه، وعزمها القديم على الانتقام منه. فزاده كل هذا حبا لها وإعجابا بها، وإصرارا على الزواج منها.

وهكذا نرى أن الرواية تمثل صورة من كفاح الطبقة الفقيرة في محاولة التغلب على تعاستها، كما حدث لهذه الأم وابنتيها، حين قدمن من القرية إلى المدينة التماسا لحياة أكرم.

وكفاح الطبقة الفقيرة من أجل تحسين وضعها والتحامها بالطبقة التي تعلوها يكلف تصحيات، وبخاصة إذا لم تأخذ المحاولة الطريقة القويم الذي من شأنه أن يوصل إلى النجاح. كما حدث لهنادي، التي طمعت في الالتصاق بالطبقة الأعلى ممثلة في المهندس، دون أن تسلك لهذا الالتصاق الطريق القاصد، فكانت النتيجة أن زلت وقتلت.

هذا على حين يستطيع البعض أن يفرض نفسه على الطبقة الأعلى، وذلك إذا تثقف وطرح الحقد وسلط سبيل المعرفة والحب، كما كان من آمنة حين تطورت بالثقافة، التي أتاحتها لها صحبتها لخديجة، وزمالتها لها في تلقى دروسها الخصوصية واستذكار علومها في المنزل، وحين ساعد على تطورها هذا الحب الذي اقتلع من قبلها أشواك السر ونمى مكانها زهور الخير.

على ان نصف النجاح متوقف على مدى وعى الطبقة الأعلى ومقدار تعاطفها مع أبناء الطبقة الفقيرة. فلا بد من إسهام أبناء الطبقة العليا في عملية وتذويب الفوارق بين الطبقات، وذلك بالوعى الإنساني والطعاطف مع أبناء الطبقة الكادحة، وتغيير النظرة الى أبناء هذه الطبقة، من اعتبارهم خداما لهم، وظيفتهم إمتاعهم وتجميل حياتهم، إلى اعتبارهم مواطنين مثلهم، دورهم تحقيق الحياة الكريمة لأنفسهم وللمجتمع الذي يه يعيشون. ففي هذا الوعى والتعاطف، ومع تلك النظرة المنصفة، يكون خير الجميع، وتحقيق السعادة الحقيقية لأبناء الطبقة العليا أنفسهم... وقد

ركز المؤلف هذه الفكرة حول المهندس الذي يمثل الطبقة الأعلى، فهو حين كانت نظرته إلى من دونه نظرة طبقية متعالية، كان ماديا آثما، هاتكا للأعراض مضيعا، يحيا لنزواته ويعيش ليومه. وحين وعى وتعاطف وصارت نظرته إلى من دونه نظرة إنصاف وإكبار وحب، وأصبح إنسانا ذا قلب، فيه شرف، وله أمل، يعمل لغذه ويسعى لتحقيق عيش مستقر كريم.

الرواية الذهنية

ويقصد بها تلك الرواية التي يقدم بها المؤلف فكرة ذهنية. يؤمن بها، ويريد أن يؤنمن بها معه الآخرون. فيعبر عنها لهم في قالب روائي. تكون هذه الفكرة الذهنية هي مغزاه أو مضمونه، أو الهدف الرئيس الذي تشير إليه.

ولكون الغرض الأول هو تقديم هذه الفكرة الذهنية والإقناع بها، ترتب الحوادث ترتيبا خاص، بحيث تعمق الإحساس بهذه الفكرة. كما تشكل المواقف وتحرك الشخصيات على النحو الذي يتسق مع هدف الرواية، حتى تصبح المواقف والشخصيات والصور الجزئية بمثابة الرموز لعناصر الفكرة المسبقة، وحتى يتحقق في النهاية من مجموع الأحداث والمواقف والشخصيات والصور الجزئية، الرمز الكلى الذي يريده الكاتب.

******

MODEL QUESTIONS

Time : Three Hours Total Weightage : 30

I أجب عن الأسئلة الآتية. (12x¼=3)

اختر الجواب الصحيح مما بين القوسين

1. شاعر الزهد (أبو نواس، الجاحظ، أبو العتاهية)
2. قامت الدولة العباسية على أكتاف ..... (العباسية، الأموية، الفرس)
3. الأمر الذي دفع إلى ظهور الزندقة (اللهو والمجون، تأثير الفرسى، الشعر وتأثيره)
4. المعرى يعرف ب (شاعر الزهد، شاعر التشاؤم، شاعر الغزل)

اجب في جملة

5. أبو نواس كيف اشتهر في الشعر؟
6. من الذي لقب برهين المحبسين؟
7. من الذي ألف البخلاء؟
8. "هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيئ" من قال هذا؟

أكمل

9. الجاحظ يعرف بشاعر ....
10. ولد إبن المقفع بقرية ....
11. التحق نجيب محفوظ بجامعة القاهرة سنة ....
12. كليلة ودمنة كتاب وضع على ....

II أجب عن الاسئلة الآتية في جملة أو جملتين. (9x1=9)

13. من أسس الدولة العباسية؟
14. أين مقر الدولة العباسية؟
15. ماذا تعرف عن "مقدمة" ؟
16. متى انتظم علم الكلام؟
17. اكتب ما تعرف عن آثار أبي نواس.
18. أين ولد أبو العتاهية؟ ومتى؟
19. هما كتابان في الأخلاق وحسن التصرف – وما هما؟
20. ماذا تعرف عن آثار أبي تمام؟
21. كيف يداوي ابن المقفع الظلم والاستبدار في الراعي؟

III أعد مذكرات لخمسة من الآتية (5x2=10)

22. مراكز الأدب العباسي
23. الخصائص العامة للشعر العباسي
24. الخصائص العامة للنثر العباسي
25. أبو نواس الشاعر المجدد. بين
26. اكتب فقرة عن حياة أبي العتاهية وآثاره وزهده وعن فنون شعره
27. كتاب كليلة ودمنة
28. نجيب محفوظ

IV اكتب مقالة عن اثنين من الآتية. (2x4=8)

29. عبد الله بن المقفع.
30. أبو نواس
31. المتنبي